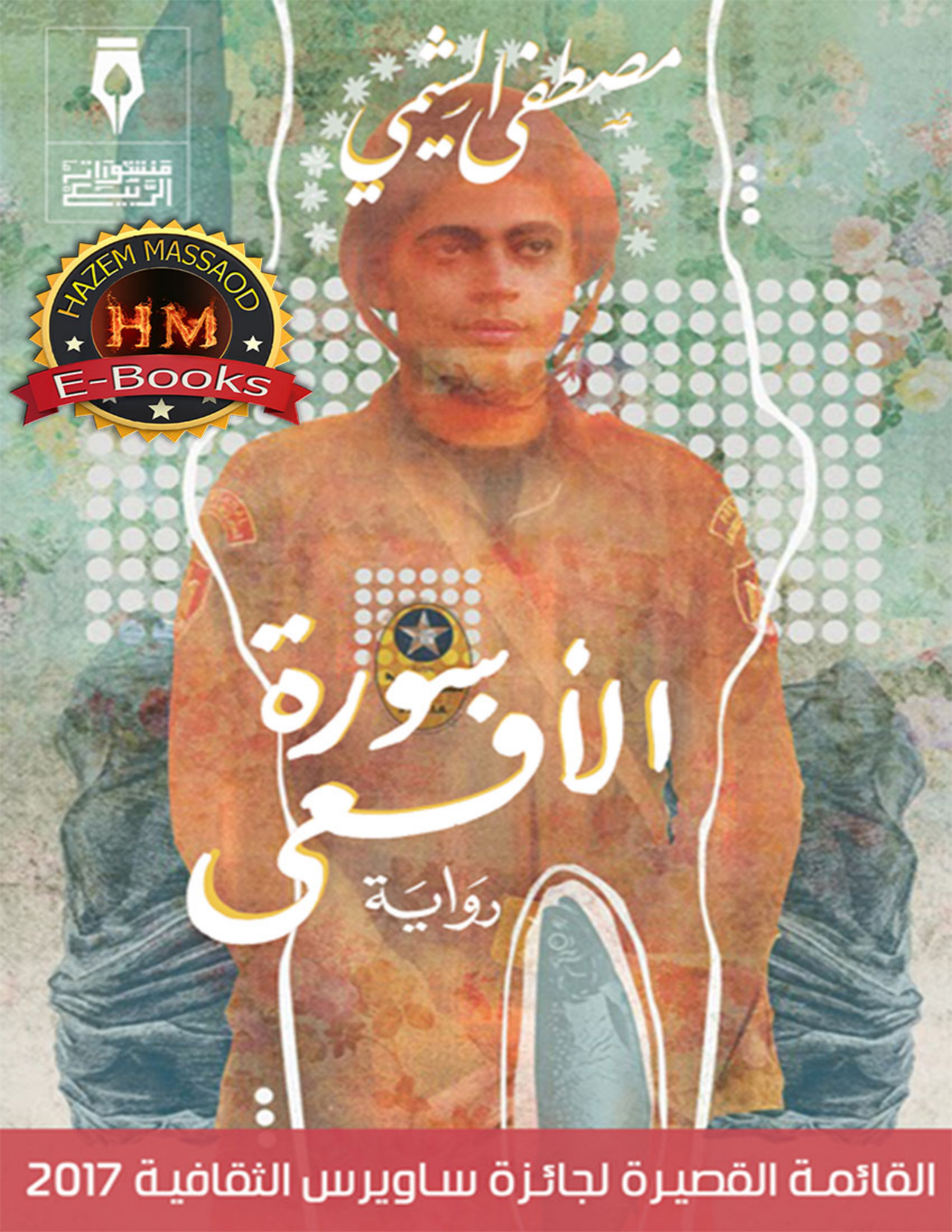

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

القائمة القصيرة لجائزة ساويرس الثقافية 2017

سورة الأفعى

تأليف: مصطفى الشيمي

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

إلى الغراب، والغريب، والمسخ
وإلى أمي النبيَّة..
حربٌ هي حياةُ الإنسان على الأرض
التوراة، سفر أيوب

(١) الساحر الأول

لسنوات سيحكي الشيخ عن قيامة الغريب التي رآها في إحدى مقابر السيدة، عندما سافر من قرية أبو الريش بأسوان، لحضور مولد سيدي زين العابدين. وبينما الجميع يرقصون ويهللون، منتشين بسَكرة الإيمان، سيكون أول من يرى تلك اليد العظمية التي تنبت من الطين ويجاهد صاحبها للهروب من دود الأرض والعودة للحياة. سينهض الميت في اللحظة ذاتها التي تصرخ فيها امرأة متشحة بالسواد، فتطغى صرختها على الموسيقى والأنوار الملونة. والناس يهربون بجلودهم من كوم العظام الباحث عن جلد يستره، والشيخ يقف وحده، مندهشًا، أسفل ضوء القمر وهو يردد «رأيتها!». وقد أدرك، بنور إلهي، أنه ولا سواه المقصود بالرؤية. ولن ينكر أن الخوف قد أطبق على صدره، وقطرات العرق اللزجة بدأت تتزحلق على جسده، رغم أنه شهر «طوبة».

سيشعر لوهلة أن قدميه صارتا جذع شجرة يابسة، بينما يمشي الميت، مترنحًا، وهو يُلملم بقاياه ويلزقها لزقًا فوق الدم اللزج، وعند قدمي الشيخ سيركع ويقول بصوت أجش «إنني عالق تمامًا في هذه الحياة».

وكلما حكى الشيخُ المعجزةَ سيُضيف تفاصيل وينسى أخرى، حتى يُصاب بالزهايمر وينسى كل شيء. دراويش الشيخ لن ينسوا أن ملاك الموت هرب كقطة سوداء من بوابة المقابر، وأن ملاكين –أو سبعة- من ملائكة الرحمة وقفت وتعكز الغريب عليهن، ومشى بصُحبة الشيخ وظلًّا يحكيان والدموع تنهمر كماء زمزم.

البيوت في أبو الريش مُلوَّنة، بعضها مُلوَّن بالأزرق أو الأحمر أو الأصفر، وبعضها باهت. مرصوصة فوق الجبل. تُطل جميعها على قضبان القطار، ومحطتين بائستين لأبو الريش. أمامها طريق سريع مؤدٍّ إلى الشمال، رؤوس تُطل دومًا من شبابيك السيارات أو القطارات لتُلقي نظرة على الأطفال العُراة والحُفاة وهم يعرجون نحو السماء. طرق ترابية ضيقة وعرة كأنها جحور فئران، يلعب فيها الأطفال بجلابيبهم البيضاء وأقدامهم السوداء، وفقراء كسالى يجلسون أمام البيوت، أعينهم مخزية في الأرض، تبحث عن أعقاب سجائر أو نقود ضائعة. دراويش يهللون، في أياديهم مباخر. يصعدون الطريق الترابي بأقدامهم الحافية المُتسخة والأطفال حولهم.

على هذا الطريق مشى الدراويش ثلاثين عامًا؛ للوصول إلى بيت شيخهم، جد «نجم الدين»، وانقطعوا مع انقطاع الوحي ووفاة الجد. وعادوا، عندما تجلَّى على الحفيد سَمْتُ الأولياء. مشوا، لم يمسحوا عرقهم أو يجلسوا أسفل شجرة ليأكلوا النبق؛ كل هذا ليجلسوا أسفل قدمي شيخهم، ويغسلوها بالماء والملح والزيتون.

في بيت الشيخ يجلس الدراويش أرضًا، ويتركون الأرائك الملوَّنة، ليجلس عليها نجم الدين وحده، فيشرد في الأقمشة الحريرية المعلقة على الجدران، والبراويز المنقوش فيها لفظ الجلالة، ويستنشق رائحة العطر التي تفوح من البيت. يحاول تتبُّعَها فيفشل. يتساءل: من أين لنا كل هذه الأشياء؟ ومن أين تأتي هذه الرائحة؟ يتذكر أنهما لم يأكلا شيئًا سوى خبز شمسي والقليل من الجبن بزيت الزيتون، فينزل ليجلس على حجر جده ويقول بصوت مبحوح «جعان يا جدي»، فلا يرد. كان الجد شاردًا في نسيم آت من النافذة.

وبينما الدراويش يغسلون قدم الشيخ يهمس:

«بسم الله، الساحر الأول، على غيره لا نعوّل»
ينتشي الشيخ ويهز رأسه، تتطاير خصلات شعره الأبيض المجدول، ويمسك لحيته الطويلة بيده، ويتمايل. يتمايل الدراويش وهم يتصايحون «حيّ» التي تتخلل صلاة الشيخ، كأنها صوت دف، بإيقاع متناغم، فيهتز الصغير.
«بسم خالق الدود، عدو ابن آدم اللدود، لا مهرب أو سدود».
والدراويش يرتلون وراءه «الله!»، والصغير ينتشي تمامًا حتى ينسى الجوع ويغني «الله!»، ويبكي.
ولم يكن أحد يعلم أن هذه هي اللحظة التي يتنفس فيها الجد النفس الأخير، من النسيم الآتي من النافذة.
ربما نسي الدراويش شيخهم بعد أيام، لكن الصغير ظل يتذكر تلك الليالي والتراتيل. كان يبكي وحيدًا فوق الجبل وهو ينظر إلى البيوت المنطفئ فيها نور الله. يتذكر جده وهو يقول «تعال، اجلس على حجري لأسرح لك شعرك»، وعندما يلمس خصلات شعره الأسود يسقط في النوم، ويرى منامًا غريبًا، يرى قاربًا خشبيًّا مثقوبًا يوشك على الغرق لولا أن خصلات شعره الأسود تنقذه كأنها حبال مربوطة في صخرة بالميناء. وحين يستيقظ وقبل أن يتفوه بشيء يقول الجد «هنيئًا لك على ما فعلت. انظر إلى نفسك الآن». فيجري الصغير حتى كورنيش النيل ويُلقي نظرة واحدة في الماء فيصدق المعجزة. يعود إلى جده فيجده يُحادث طيفًا زائرًا فيسأل الصغير مشفقًا «جدي. ما بك؟»، فيُجيب الجد ضاحكًا «كان هذا الليث يبشرني بالوحدة!».
لسوء حظ الجد لم يملك مالًا يُخلِّده في مقام كبير، لذا نسيه الجميع وهجروا داره. أصبحت الدار باهتة كمقبرة صغيرة يعيش فيها نجم الدين وحده، يصلِّي هنا، ويتضرع إلى الله، ويقول «هبني من عطر جدي»، لكن الله لم يستجب. وعندما كبر نجم الدين وعاد إلى البلدة، ارتدى عباءة جده الزرقاء فرجموه بالحجارة.
صار نكتة القرية ليومين، يومين فقط.
الغربان
في طريقٍ جانبيٍّ مظلمٍ، مليءٍ بالقمامة، أسفل أعمدة إنارة منكسرة المصابيح. كانت رائحة مُقززة تملأ الهواء، والكثير من الحشرات، وفئران تركض في كل اتجاه. وكان رجل ينتظر في العتمةِ القادمَ تعِس الحظ. قطة سوداء عوراء قطعت سكون الليل، قفزت من صندوق القمامة، وفي فمها بقايا سمكة. ماءت قبل أن تعدو هاربةً. تلاها وقع أقدام تدق الأرض بانتظام ولاح ظِل صاحبها من بعيد، ورغم كثبان العتمة بدا أن القادم غريب، والغرباء عمي، لا يعرفون عن حكايات الشارع شيئًا.
ظل الرجل منصتًا ومتحفزًا لوقع أقدام القادم. يشد سيجارة بأنفاس متقطِّعة قبل أن يهرسها في جذع الشجرة. لم تصرخ الشجرة. أضاءت السيجارة ملامح الرجل لوهلة قبل موتها: كانت ملامح مشوهة بآثار حروق، وفوق الحاجب الأيسر ندوب ممتدة إلى أسفل الأذن. بدا ظل الرجل على الشجرة عملاقًا وأحدب. لم تجزع الشجرة. كان عمرها ثلاثين ربيعًا، نضرة وقبيحة! وعلى أغصانها تجلس الغربان التي رأت كل شيء.
الغريب القادم مؤمن بمغزى الرؤيا التي رآها في الصباح. كان غارقًا في النوم، متعرِّقًا، يتقلب على الجانبين ويحس بألم شديد في ضرسه الأيسر. ورأى، فيما يرى النائم، أن هذا الضرس مُعلَّق

بخيط رفيع من الدم، ورأى يدًا تمتد لاقتلاع هذا الضرس. وحين استيقظ شعر ببقايا ذلك الألم، فنظر إلى المرآة، وكان كل شيء على ما يرام، جميع الأسنان موجودة وبيضاء ومصفوفة بشكل مثالي، ورغم ذلك فإن ثمة فكرة لم يستطع طردها من خاطره، وهي أنه قد مات، وأن آلام سكرة الموت تُضاهي انتزاع ضرسٍ تالفٍ.
قام بعدة تجارب لاختبار الموت، أو لاستفزاز الحياة، قرص جلده، عض يده، شد شعره، أمسك بمطرقة كبيرة ودق بها في مناطق مختلفة من جسده، صرخ، تورَّم جسده، رأى البقع الزرقاء والكدمات ولم يصدق.. وتساءل: لماذا يكون الألم هو دليلنا الوحيد على الحياة؟
ولم يكن جاهلًا بما يدور في الشارع، كان موجودًا عندما خرجت فتاة عارية -من الطريق الجانبي المظلم- وهي تهرول فيهتز نهداها الجميلان، وتصرخ فتُضيء صرخاتها البيوت والشبابيك تنفتح -كالأعين- عن آخرها. يتفرج الناس بفضول، ويجري البعض لمساعدتها وسترها. لم يكن مهتمًّا بكل ما يجري لذا تابع السير. لم يكن فضوليًّا يومًا لكن الأمر اليوم مختلف، فهذه التجربة ستحدد كل شيء، ها هو يدلف إلى الطريق الجانبي المظلم، وقد آنس دخان سيجارة عند الشجرة. ها هو يمشي بخطى بطيئة ويتساءل: هل يُعقل أن يموت المرء مرتين؟
ظل الأحدب مترقبًا ومتحفزًا للانقضاض. وبدأ أحد أعمدة الإنارة يلهو، فيضيء تارة، وينطفئ تارة، ويضفي على المشهد-والغريب- هيبة أسطورية. لم تلبث أن تلاشت عندما انتصر العمود على أسلاك الكهرباء البالية. وبدا أن ما تجلَّى لثوان عديدة لم يكن سوى خدعة من حيل الظلام. فالقادم شخص عادي الملامح، ذو كرش صغير، ويرتدي بدلة رمادية أنيقة توحي بيُسر الحال، دون ربطة عنق أو ساعة يد. ومثل شبح في الظلام انقض الأحدب على الغريب، فلم يتوقف عن السير، ولم يُبدِ اهتمامًا أو ذعرًا، كل ما فعل أن أخرج يديه من جيب البنطال وأفسح الطريق، فاستجاب الأحدب بشكل غريب، كأنما وقع تحت سِحر غامض، وسقط من يده الأولى الخنجر، ومن يده الأخرى الصاعق الكهربيّ.
عندما خرج الغريب من الطريق الجانبي الضيق دبت الحياة فجأة. الناس يمشون على أقدامهم، أو يجلسون في ميكروباص متهالك أو توك توك. تمشي التكاتك عادة في منتصف الشارع وحدها وتملأ الدنيا ضجيجًا وصخبًا. نداءات الباعة تتردد في كل مكان: «كل شيء موجود وبنصف الثمن.. يا بلاش!»، ومغازلات الشباب للفتيات التي دعكت وجهها بالمساحيق، وصوت قرآن يعلو من مكان ما. وللحظات ظل الغريب واقفًا محتارًا.

ولم يعرف أين هو. لوهلةٍ ظنَّ هذه المنطقة حدائق المعادي. ثم قال «بل هي فايدة كامل». ولم يكن متأكدًا. كانت المشكلة الأكبر هي: أين يسكن؟ أو كيف يعود إلى المنزل؟
لم تكن علامةٌ مميزةٌ تدل على الطريق، ولم يستطع أن يحدد بشكل يقيني: أي جهة هي الصواب!
العمامة الزرقاء
«ما اسمك أيها الغريب؟»
هكذا قال المُسِنّ المُستنِد على عكاز غليظ للطفل الصغير. قال الصغير «لستُ غريبًا. أنا حسن». وبدا المسن شاردًا ومتعبًا، وقال «حسن من؟!»، فأجاب الصغير «ابن صالح الصياد، الجميع يعرفون أبي. وأنت أيضًا تعرفني». لم يبدُ المُسِن في حال جيدة. وقال «حسنًا تعرف بيتي. خذني هناك». ركض الصغير بعيدًا وصاح قائلًا «لا أستطيع!». ووقف في نافذة البيت الطيني المقابل

للنيل، يراقب المُسِن وهو بالكاد يمشي، أسفل الشمس الحارقة، مرتديًا عمامة كبيرة. تعجب حسن كيف يستطيع أن يتحمل ثقلها! ولم يكذب حدس الصغير إذ سقط المُسِن، وتمرمغ في التراب، وازدحم السوق، وبدا جليًّا أن العمامة هي من قتلت المسكين.
في اليوم الثاني. بدت أشجار القرية الصغيرة التي تقع على شرق النيل سوداء. لأن غربانًا كثيرة تجمعت على أغصانها وأوراقها. وعرف الصغير أن الموت أمر مثير؛ لأنه حين يتلصَّص على البيوت في الليل يسمع نُواح النساء وعديدهن، نواحًا حزينًا، آتيًا من الروح مباشرة، الروح البعيدة التي لا يعرف مكانها. وراوده شعور خفي أن هذه الغربان السوداء والرمادية فوق الشجر ما جاءت من القرى المجاورة إلا لتسمع هذا العديد وترحل.
وفي اليوم الثالث، سأل الصغير والده «مَن مات بالأمس؟». فأجاب والده بسرعة «السادات، رئيس مصر». فخاف الصغير وقال في سرِّه: «يا ربي! لماذا لم أساعده؟». ومشى في شوارع البلدة وسمع الناس يتحدثون عن ميت آخر. وعرف أن مصر لا يحكمها رئيس الآن لكن البلدة لا تبالي. لأن المُسِن ذا العمة الكبيرة أهم لدى القرية من الرئيس. وعندما عاد إلى الدار أخبر والده «الغربان في كل مكان»، فأجاب «لا أحبها؛ ستأكل محصول الحقول ولن تشبع». وصدق عم صالح إلى أبعد حد. مكثت الغربان في القرية ولم ترحل.
بعدها بسنوات عرف الصغير أن لا شيء مثير في الموت. مات الكثيرون، ولم تحزن القرية أو تشعر بهم. غرق خالد في النيل وهو يطارد ليلى الجميلة، وغرقت ليلى بطريقة غامضة بعدها بسنوات، ووالده الصياد -الذي يعوم في النيل مثل سمكة- غرق. أخرجوا جثة زرقاء وجاحظة العينين، كأنها لم تر من الملائكة غير المطرودين. قالوا «هذا أبوك» فلم يصدق، صدَّق فقط أن النيل فاتن لكنه -لمن أمعن النظر- ليس سوى مقبرة كبيرة.
نصف نبي
لم يستطع الأحدب أن يدرك ما حدث، للوهلة الأولى شعر أن هذا العابر شيطان وأحس بالفزع. بدأ يرتعش فوق الرصيف، ويضحك، ويبكي. أخرج سيجارة ملفوفة أخرى، لها جسد امرأة في الأربعين، ورائحة أفريقية. بدأ يلعق مؤخرتها قبل أن يُشعلها. وفكر: لماذا لا يكون هذا العابر ساحرًا؟ أو جنيًّا؟ أو شيطانًا؟ لا، لم يكن شيطانًا؛ فالشيطان -من وجهة نظره- ليس سوى إنسان، دون مكياج، وهو أقل بشاعة من ابن آدم. ربما كان العابر ساحرًا، واختاره الملاكان المطرودان من بين البشر ليصير سليمان جديدًا. يذكر كيف كان مولعًا بقراءة كتب السحر في الجامعة مثل: شمس المعارف الكبرى، والخاتم السليماني، وسر الأسرار. ولم يكتفِ بقراءتها بل جرب طلاسمها وتعاويذها، مثل: طلسم تهييج المرأة وطلسم الحظ. كان مهتمًّا بهذين الطلسمين، لأن من يملك الحظ والمرأة يملك كل شيء. هكذا كان يظن. وربما كان العابر جنيًّا، جاء من الصحراء، على ظهر حية، إلى القاهرة. وكبدويٍّ ساذج مرَّ من هنا، والقاهرة ملعونة بزحامها والغرباء.
مشى الأحدب محتارًا، ينفث الدخان، يزوم، ويبصق فوق الأرض. وشعر برغبة جارفة في زيارة «أم علاء» ومضاجعتها. صاحبة البيت، بيضاء مثل اللبن، وفي الخمسين من عمرها. لها نهدان ممتلئان ومتدليان على كرشها الصغيرة. وهناك يسألها، وهو نائم على نهدها، «ما العمل؟!»، ويبكي. ربما حينها لن تهدده مرة أخرى بالطرد من الحجرة الصغيرة التي يسكنها جوار بئر السلم. هذا الجحر الصغير يليق بفأر، بجدران مشققة، ومبللة، بمياه المجاري التي تتسلل من كل خرم.

ربما إن استجاب لها، وانصاع، صار نبيًّا. أوَلم تقل دومًا: «وإذا دخلت غاري نزل عليك الوحي!».
ماذا في الغار؟ ردًى.
على الغار ردًى أسود، وحمامتان تنامان باستسلام في الجانبين. ولا بد أن أحدًا لم يدخل الغار منذ دهر، لذا فإن الرائحة عطنة. امرأة مثل أم علاء تملك بيتًا بطابقين في ميت عقبة، وشقتين في مدينة الشيخ زايد؛ فلا بد أن الغار مملوء بالذهب والمرجان. وماذا عن علاء؟ ابنها مطارَد من الشرطة، وتجار الحشيش، ولن يعود. وماذا لو عاد؟ لن يعود. أشعل الأحدب سيجارة أخرى، ونفث دخانها، وزام، وبصق فوق الأرض وصاح وهو يضرب الأرض كالطفل الصغير. «حسنًا، لن يعود، لن يعود، لكن ماذا لو عاد؟ ها؟ ماذا لو... أيها الغبي الذي يتحدث في رأسي؟».
ووجد نفسه يمشي لساعات طويلة وشرد في العاهرات اللاتي يقفن في شارع جامعة الدول العربية، وتساءل «هل اخترن هذا الشارع عن قصد؟» وتذكرها. اسمها لبنى، صغيرة، ولها نهدان ضئيلان، جميلة رغم نحافتها وصدرها الرقيق. يومها ظل واقفًا يراقبها في الظلام، ولم يتجرأ على الذهاب إليها. ظلت تستند على عمود إنارة. ولما ابتعدت قليلًا تقدم إليها وأخرج ما يملك من نقود: كانت بالكاد ثلاثين جنيها وبعض الفكة. ولما عرفت أنها ستضاجع هذا البائس القبيح أشفقت على نفسها، لكنها، حين أخذها إلى الجحر، كتمت صرخاتها وتأوهاتها بصعوبة. شهقت، شتمت، نخرت، وتنهدت. ونادت كثيرًا باسمه قائلة «أنا عاهرتك. ضاجعني يا جوهر». ولما فرغ منها نظر في عينيها طويلًا ثم قال «يا لك من طفلة صغيرة!»، وبكى. فبكت أيضًا. ووجدت نفسها سعيدة وهي تبكي في حضن هذا الوحش.
مرت ثلاثة أشهر ولم يتقابلا، كان يذهب إلى تلك الناصية، حيث تقف ويراقبها في الظلام. كان يحس أنها تتلفت أحيانًا، تنظر نحوه، تراه... لا تراه. فيرحل ويلعنها في سره قائلًا «عاهرة». ولم يعرف لماذا تذكرها اليوم تحديدًا؟ ربما لأنه شعر برغبة في البكاء مثل أخرق. وظل يمشي، خطاه تدق الأرض، بانتظام ورتابة كبندول ساعة، والساعة ساعة ليل. ورأى نور الفجر يطلع، فبدأ يتنفس بصوت عال. وعند جامعة الدول بحث عنها فلم يجدها وشعر بالخيبة، وخمَّن أنها عادت إلى بيتها.
جعة بيضاء
أمام مرآتها كانت تجلس تضع حمرتها وزينتها، وترتدي قميص نومها، القصير الأحمر، الذي بالكاد يغطي مؤخرتها. لها نهدان كبيران يبدوان كأرنبين متحفزين للوثب. وشفتان مثيرتان، وأسنان مصفوفة بشكل مثالي، وساقان ناعمتان وممتلئتان، وأصابع أقدام جميلة مزينة بطلاء الأظافر. ولم تنس أن ترتدي خلخالها وهي تنهض للرقص، على أنغام ألف ليلة وليلة. خصرها يهتز. تمتزج مع الموسيقى كأنهما شيء واحد. تُجيد الرقص بقدر ما تجيد الجماع، وتحب من يعتليها كفرس جامح، ويشدها من شعرها الطويل ويصفعها على مؤخرتها. تعلو تأوهاتها أكثر كلما شتمها.
لم تخسر أي رهان. في الفراش تكتشف فلسفات تربطها بطين الأرض، جذران لا بد أن يلتقيا، ويتشابكا، من شدة العطش للماء. هي امرأة خلقت فقط لهذه اللحظة التي تنفصل فيها عن العالم، وتتصل فيها بفينوس، وعشتار، وتقول لهما: «آه. ما ألذَّ كينونتي!». فوق مرآة تسريحتها لوحة فنية بديعة، اللوحة للرسام «bouguereau»، وفيها نساء كثيرات عاريات، يجلسن فوق

أرجوحة أو يحتضنَّ بعضهن أو نائمات فوق العشب، والطبيعة من حولهن تحتضنهن. وعلى الحائط المقابل ثمة لوحات أخرى حديثة مبعثرة للرسام «Borda»:
امرأة بيضاء تحتضن زنجيًّا قويًّا، وأخرى مقيدة في الحبال، معذبة، وتحتها مائدة فيها: كأس من الخمر، ووردة حمراء، وطبق يتدلى فيه شعرها، وورود على جسدها. تبدو الفتاة في حال نشوة تامة.
الموسيقى تدق من حولها، وقفت أمام المرآة لثوان، تتحسَّس نهديها وعنقها، وخصرها يهتز. رمقت نفسها باشتهاء. وعادت ترقص وتتمايل، على أطراف أصابعها، كأنها بجعة سعيدة، ثم إلى الشرفة دلفت، وهي لا تزال ترقص. نظرت إلى الشارع طويلًا. شعرها بُني، غجري، ينساب مع الهواء كيفما شاء، ويضفي على سحرها سحرًا. يراقبها ابن الجيران المراهق من النافذة البعيدة، كعادتهما كل مساء. وهي تراه... لا تراه. لا تهتم كثيرًا. تعود لتُلقي نظرة على عقارب الساعة، فتلدغها وتقرص حلمتيها، قرصة خفيفة موجعة.
تسمع صوت أقدام تصعد الدرج فتعدو نحو الباب وتنظر من العين السحرية. تتمنى لو صدق على هذه العين اسمها فتسحر الصاعد إلى هيئة من تحب أن تراه، لكنها تخذلها. ربما لو كانت أصغر من الأربعين لوجدت ما يُنسيها تكات الساعة، والوقت عدوها وعدو الجميع. لو كانت طفلة صغيرة لانشغلت بالرسم، لامتلأت يداها

وملابسها بألوان الزيت، ولصار شكلها مضحكًا وجميلًا بشعرها المنكوش ونظرتها المجنونة للعالم، لكن والدها العميد المتقاعد «شمس» كان سيشتمها، ويعنفها، ويضربها، ويقول لأمها «ابنتنا ستصبح مثل سالي، سيئة السمعة، ويتحدث عنها أهل الحي». وكان يقصد بسالي قطتها الصغيرة التي هربت من المنزل وعادت فقط لتلد قططًا ممسوخة من قط شارع مُشرَّد، وترحل وتترك لهم هَمَّ الاعتناء بأطفالها الصغار.
جلست على السجاد الفرو البُني، وضحكت وهي تتذكر طفولتها التي بدت كفيلم كارتون. والدها يدخن الغليون في الشُّرفة ويصرخ فجأة «رأيتها!»، وينزل الدرج بقفزات رشيقة ورائعة، ويطارد سالي في الشارع، يتفرج الناس مشفقين وساخرين. تحتضنها أمها وترتعش وتقول لها «تعالي نرسم معًا مدينة جديدة». ويبدآن بالرسم قبل أن تتأملها الصغيرة وتسألها ببراءة تفسد اللعبة «أمي. أنا لا أفهم فعلًا لماذا يطارد أبي قطة صغيرة في الشارع؟».
كانت ستبكي..
لكن القادم الذي تنتظره جاء أخيرًا.
مفتاح وحيد
أمام باب الشقة ظل الغريب واقفًا، متوجسًا، لا يعرف فائدةً لسلسلة المفاتيح الكبيرة التي يمسكها والتي لا يتعلق بها سوى مفتاح وحيد صدئ. وهل يصلح مفتاح صدئ للدخول؟ كانت هناك أشياء أخرى تشغل خاطره، مثل: «هل هذا هو المنزل حقًّا؟». مشى في شوارع لا يعرفها، مسترشدًا بذاكرة مشوَّشة، ورأى بنايات كبيرة مظلمة ليس فيها رائحة البرتقال. وعندما مر أمام بعض المقاهي سمع أُناسًا يلقون السلام. ولم يفهم معنى هذه الكلمة أو مَن يقصدون. ومشى على أيِّ حال دون أن يُبالي كثيرًا. وفكر فجأة «ما فائدة أن يعود رجل ميت إلى المنزل أصلًا؟». وأراد أن يعود للخلف ليبحث عن قبر، شرق النيل، وينام. ربما كان من الأفضل لو أعدَّ كل شيء مسبقًا، لكن

الموت لم يُهدِه بطاقة تهنئة «ستموت قريبًا؛ فاستمتع». وملائكة العذاب يعرفون ذلك، لذا سينتظرون، في قبره، ولن يَمَلُّوا.
في القبر دود جائع، وعقارب كثيرة. لماذا تكون الأرض قاسية علينا؟ نحن أبناؤها، خُلقنا من طينها. ولِمَ يختارُ الدفن أصلًا؟ ربما هناك طريقة أخرى. يجلس –مثلًا- في كابينة ميناتل مهجورة عند ناصية الشارع، لن يزعج أحدًا، لأنه لا أحد يراها. وربما رن هاتفها ذات يوم وسمع خبرًا سارًّا. هل يسمع الموتى؟ يسمعون ويمشون في الشوارع والأسواق، ضائعين، يبحثون عن شيء غامض. وربما شعر بهم أو رآهم بعض ممن يملكون أرواحًا هشَّة.
عندما انفتح الباب رأى تلك المرأة، بشعرها الغجري، وقميص نومها القصير. قالت معاتبةً بحزن «تأخرت». ثم قفزت في صدره فاحتضنها. أراد أن يسألها «مَن أنتِ؟»، ولم يجد فرصةً لهذا. كانت جائعة تمامًا للدرجة التي دفعتها ليفعلاها على البلاط البارد، لم يقاومها، ولم يُقبِل عليها، تركها تفعل ما تريد، تُقبِّل صدرَه، تلعق عضوه، وتقول أشياء بذيئة. أشياء بذيئة جدًّا؛ لا تليق ببراءة وجهها وطفولة تشع من عينيها.
في الصباح استيقظ، قال «حلم غريب»، وتذكر مقولة والده «ستعرف غدًا أن لا شيء يحسرنا سوى امرأة تزورنا في أحلامنا». وقبل أن ينهض من الفراش رآها تمشي عاريةً، على أطراف أصابعها، فتجاهلها. ولم تمر دقيقة حتى مرَّ طيفها وهي تمشي بمؤخرتها المثيرة، وتدخل إلى غرفة النوم لتحضن ظهره، تقول: «صباح الخير». ثم تعود سريعًا إلى المطبخ لتُعد الإفطار. وسمعها تقول من هناك «فول بالزيت الحار مع بيض مقلي وجبنة بالفلفل الأخضر». قال «الآن أعيش مع الأموات». واندهش لما شم رائحة إفطارها الشهي.

(٢) الغار

لثلاث ليال لم يتوقف الأحدب عن القيء، بعد مضاجعة أم علاء، في تلك الليلة المشؤومة. أحس أن ثمة مادة لزجة، زرقاء اللون، عالقة كأنها من لعابها، ولا يستطيع بلعها. قُبلتها كانت شيئًا شاذًّا، مُرًّا ولاذعًا. عندما لامس لسانها أحس بهذا المرض الذي لم يغادره، ينسل ويتسلل. حاول الهرب من وجهها المقزز بالنظر إلى أثاث غرفة نومها: مذياع قديم، وأريكة مكسورة الأرجل، وبرواز فارغ معلق على الجدار، وعلى الجدار رأى ظليهما يتعانقان، لم يَصدُق الظل؛ لم يعكس تجاعيدها، أو رائحتها، وإنما عكس بوضوح الحدب النائم على ظهره. مسخان يتضاجعان، هي تئنُّ وهو يشعر برغبة في البكاء. فلماذا جاء إليها؟ رائحتها عطنة، غارها مبلل ومملوء بالردى، ورائحة فراشها كالأدوية والنفتالين. وفي حلمتها شُعيرات رقيقة صفراء.

عرف أن لعابها سام. وخشي أن تكون مريضة بالإيدز، أو السُّل، أو الصفراء. ووقف أمام المرآة شاحبًا. عيناه غويطتان، مسحوبتان إلى الداخل. ولم يستطع أن يفكر في شيء محدَّد. صور تلك الليلة تُطارده كأثر سُكْر عنيف: عيناها النهمتان، ودهونها التي تملأ جسدها، ورائحتها. كيف استطاع أن يلمس لسانها الطويل؟ يا للبؤس! جرى إلى المرحاض يتقيأ.

ولم تمر دقائق حتى سمع وقع خطوها على الدرج. فانكمش -الأحدب العملاق- كأن ملاك الموت قادم. وبدأ يُنصت وهو يتلفَّت يمينًا ويسارًا بعصبية، ولم يتنفس، ولم يطمئن. تخيَّلها تقف أمام باب الحجرة وتكتم أنفاسها، تتنصَّت، تتردد، تمد يدها للطَّرق، ولا تفعل. تمد يدها فينكمش. تكاد تطرق فيلتزق بالجدار. سمع قدميها تصعدان، وتوجَّس من عودتها.

وقرر الخروج إلى الشارع. فتح باب الحجرة ببطء، وفحص المكان ببصره جيدًا، قبل أن يعدو هاربًا. ولما مشى في الشارع شعر بالوهن. ولما مرَّ أمام بعض المطاعم تذكَّر الجوع، وأحس أن الحياة أطيب خارج غار أم علاء.

لم يملك أيَّ نقود، لذا تابع السير. محاولًا الهرب من روائح الطعام. بالكاد يمشي، وقريبًا سيسقط. لا يقوى على الوقوف، فكيف سيسرق لقمة العيش ليلًا؟ ضحك. في السجن لم ينشغل بالطعام. الطعام متوفر، رديء لكن متوفر. السجائر كانت هي النادرة، مثلها مثل النقود. «هي عملة السجن». وهل كان لصًّا جيدًا ليفكر في معاودة الكَرَّة؟ عاش مع اللصوص، والمجرمين، وقطَّاع الطرق، شهرين كاملين ولم يتعلم منهم شيئًا. فرصة ذهبية وأضاعها؛ لا يزال ساذجًا. ينظر إلى الحياة بعين الطالب الجامعي. كأنما لم يُطرَد من الجامعة بعد فضيحة بجلاجل، والعشق أُس الفضائح، وكان هو العاشق الأحدب.

وهي كانت ملكة. اسمها الذي وهبها غرورها ونرجسيتها. غوايتها لم تكن عادية؛ كأنها لا ترى أحدًا سواها. تمشي على أطراف أصابعها، كأنها تخطو فوق أوتار بيانو. ثمة موسيقى يسمعها وهي تمس الأرض بقدميها. ينظر في عينيها، كمن يرى سحرًا، يسأل « أهذه هي الحياة؟» يجيب «مؤلمٌ هو الجمال». ويعرف أن الحجر الذي في صدره ينطق. «العين تُبصر من تهوى وتفقده وناظر القلب لا يخلو من النظر».

يعود إلى المنزل، كل يوم، ويكتب كلامًا موسيقيًّا، كوَقع خطوِها وهي تمشي. ينظر إلى السقف، إلى القمر، إلى اللا شيء، ويراها. ما أجملها! يملكها، يسجنها في قصيدة، تهرب في اليوم التالي،

تمشي في الجامعة. تتمايل، تختال، تحتال على قضبان صدره، فيعود ليسجنها في قصيدة جديدة. يلزق كل القصائد على الجدران. ويمنع أي أحد من دخول الغرفة. يخلع نعله أمام الباب ويدلف. تتحسَّس هذا الحدب النائم فوق ظهره بشفتيها، تقول «أنت جدّ مميز». فيبتسم لها ويذوب تمامًا كالشمع بين شفتيها. هل تعرف النيران التي تُشعلها في صدره؟ ربما لم تكن تعرف، بعد أن أحرق وجهها الجميل صارت تعرف جيدًا.

لعبة اسمها...

على الأرض جلس الغريب مع سالي، عاريين، ليلعبا لُعبةً ما. خلفهما نافذة تُطل على شجرة سنديان كبيرة تتساقط أوراقها الصفراء. وصوت موسيقى بيانو هادئ - «Liberty or Death». ظل الغريب ينظر إلى سالي، يريد أن يخبرها بإحدى الحقيقتين: أنت ميتة أو أنا ميت. عيناها تُشِعَّان بطفولة لم يستطع أمامهما أن يكسر لعبتها، قالت «اسمها الحياة»، أفاق على صوتها وسألها «ماذا؟» فقالت «اللعبة التي سنلعبها اسمها الحياة»، ميتة تريد اللهو. وأنت ماذا تريد؟ أمسكت بزهر النرد وألقته على المائدة، فوقفت عند الرقم «٦». ضحكت بحزن وقالت «هذا رقم الحظ. احك لي عن حظك وسأحكي لك». أراد أن يخبرها «لي عينا سمكة ميتة»، أنسته جلستها، وهي مربعة القدمين، وفضولها ما كان سيقول. وتذكر والده الهزيل، رائحة السمك التي كانت تملأ الدار، وعروس النيل التي ظهرت لتفسد كل شيء. ولما أطال السكوت، قالت غاضبة «حسنًا، أنت فاشل في اللعب والحكي». فأشفق على طفولتها وأراد أن يربت على كتفها لتهدأ، ولم يفعل. هدأت وحدها. قالت وهي تبتسم «لكنني أحبك أيها المقرف!». ولما لم يُجِبها صمتت وبدا الحزن عليها ثم قالت «أيها المسكين، ربما ليس لك مع الحظ حكاية!».

الصياد وعروس النيل

في اللحظة التي اصطاد فيها سمكةً أولى كان والده يرى عروس النيل للمرة الأولى. أمسك حسن السمكة ورفعها، ونظر في أعماق عينيها. فيهما بعض البرودة واليأس، وتنظران إلى العالم بجمود. وضع السمكة جواره وانتظر منها حركة، هز ذيلها، لعب في فمها. أدرك أنها ماتت قبل اصطيادها. «ربما غرقت!».. فكرةٌ غبيَّة. وضعها على السطح وراقبها وهي تقع بانسيابية إلى القاع، وقرر أن ينزل مثلها ليغوص في النهر. ألقى الجلباب في الهواء وقفز، فتطاير الرذاذ، ورأى أسماكًا كثيرة، وصخورًا. فكر «لماذا تكون سمكتي الأولى ميتة؟». لمح شبحًا أزرق يقترب. كان الشبح لخالد، كان مخيفًا، شفافًا كالماء، وأزرق. حاول أن يصعد هاربًا لكنّ يدي خالد منعتاه، بحث عن صخرة تنقذه. رأى صخرة صغيرة أسفل قدمي ليلى، كانت واقفة وحزنٌ في نظرتها. انتفض لما رآها زرقاء هكذا، صرخ، شرب الماء، شَرِقَ، وجد يدًا تمتد بصخرة، نظر إلى صاحبها، والده، كان شفافًا كالماء، وأزرق. خاف أكثر، صفع وركل ولعن الماء كثيرًا.

لم تكن السمكة التي اصطادها عم صالح ميتة، بل سمكة حقيقية، لها ألوان زاهية، بشعرها المُحَنَّى البُني وعينيها الخضراوين، بزغت من النهر، وأشعة الشمس تتلألأ من حولها. صاح مندهشًا «عروس نيل ريفية!». جسدُها طينيٌّ أسمر، مشطورٌ نصفين، نصف ينتمي إلى عالم الإنس والآخر إلى عالم السحر والأسماك. ولها نهدان منتصبان، تغطي جسدها قشور ملونة حتى ذيلها الطويل.

قبل أن تكشف عن نفسها ارتطم القارب الخشبي، وسمع الصياد صوت تأوهٍ أنثويٍ. وكذَّب ما سمع. أمسك بعصاه وبدأ يضرب النهر ليجذب الأسماك نحو الشبكة. «لا أستطيع الخروج!». هذه

المرة صدَّق أن هناك صوتًا. استند على حافة القارب الخشبي وألقى نظرة، رآها مسجونة في الشبكة. قالت بدلال «هنيئًا لك. أمسكت بي!». تأمَّلها قبل أن يقول «أنتِ؟». فأجابت «أنا.. أنا عروس النيل، امرأتك». ولم يجد صعوبة في التصديق، قال «إذًا الخرافة حقيقية». فسألت كأنها لا تعرف «أي خرافة؟». فأجاب «أنتِ!». ولم يشأ أن يخبرها أن كل أحاديث الصيادين عنها حتى لا تغتر. لكنها قالت «لا تُخفِ شيئًا. أستطيع أن أقرأ أفكارك». وسكتا قليلًا. كان عم صالح يفكر أن لا يفكر، فعرفت وضحكت وقالت «لا تريد أن تخرجني من الشبكة حتى لا أهرب». فقال «صحيح!»، قالت «تعرف أنني لن أفعل»، فسألها «لم؟». فأجابت «لأن من يُمسك عروسًا يملكها إلى الأبد. أنت تعرف الخرافة، جميع الصيادين يحفظونها جيدًا».
وصدَّقها، وعندما أخرجها عادت إلى الماء. فصاح كالطفل «لكنكِ وعدتني!»، وانتظر ردَّها، انتظر طويلًا. ولما يئس من عودتها بدأ يجدف بالقارب للعودة إلى البلدة فسمع صوتها من ورائه «أبهذه السهولة ترحل؟». فصاح غاضبًا «لا تتلاعبي بي». أطلقت ضحكة صافية كالماء، وبها نسي لم غضب، وصاح كأنما اكتشف وجودها للتو «عروس نيل ريفية!». فضحكت بدلال وقالت «هنيئًا لك أيها الصياد المُسِنّ. أمسكتُ بك!».
عندما عاد إلى البلدة رأى ولده، أسفل شجرة البرتقال، يلعب بالطين. كتلة من الطين شكَّلها على هيئة إنسان. وضع لها أربع ورقات شجر، في موضع اليدين والقدمين، وزلطة في موضع الرأس. ونفخ بكل ما يملك من قوة على أمل أن تنبت فيها روح. دهسها عم صالح ونهره «أيها الغبي، لا يلعب بالطين سوى ربِّ الطين!». فنهض الصغير غاضبًا وصاح «لقد قتلتها!». ثم ابتعد عن والده للعب في مكان آخر. لم يكن يقصد أن يخلق إنسيًّا جديدًا. كان فقط يريد أن يجد إجابة واحدة: من الطين خُلقنا، والماء، وورق الشجر، فمن أين جيء بالدم في عروقنا؟ ولماذا يصير لوننا أزرق حين نموت أو نحزن!
حاول نسيان أمر السمكة الميتة وما رآه من أشباح. ولم يفهم ماذا كان يفعل والده مع الموتى. أمسك بكتلة طين أخرى وقال بصوت حزين «ليلى». وبدأ يشكِّلها على صورتها. دموع تسقط على جسدها وهي تبكي، تقول

«مات خالد يا حسن». فيحتضنها عند النهر ويقول «سيصحو، أبي قال هذا». فتبكي أكثر وتقول «أنا أكبر منك، لا يصحو الموتى». يسألها «كيف؟ سيصحو...أبي قال هذا. صدِّقيني!». تترك جسدها يتهاوى على ركبتيها وترتعش، فينظر إليها، «يا ربي، لماذا ينام الموتى طويلًا؟».
لأيامٍ ظلَّ ينفخ في طينها، ويعدل من ذراعها ورأسها، يقول «ربما تنقصها عيناها الجميلتان». لا ييأس. يقرر إعادة تكوينها من جديد، صوت غناء والده الآتي من بعيد يقطع الخلق. يقترب الصوت أكثر. يعرف هذه الأغنية. يسمع «الدنيا غربتني وأنا الشاب الأمير» فيضحك. يسأل والده ما إن يراه «أنت الشاب الأمير؟» فيضحكان معًا. يقول عم صالح «عشت كثيرًا ولم أر مثل ما رأيت اليوم». يسأل حسن «ماذا رأيت؟». فيشرد والده في نهديها ويقول خجلًا «لا.. لا أستطيع؛ لن تفهم». يرد حسن غاضبًا «لماذا؟». فيُجيب عم صالح «لأنك صغير». فيصيح قائلًا «لست طفلًا، عمري عشرة أعوام، سأفهم، احكِ لي والنبي».
وحكى والده كل شيء بالتفصيل، ابتداء من ارتطام القارب بشيء ما، ولون أشعة الشمس في الماء، وشعوره بالخوف لمَّا سمع صوتًا يتكلم في النهر. لم ينسَ شيئًا من التفاصيل. ظل الصغير

متشوقًا للنهاية. سكت والده، فسأله خائفًا «وماذا كان؟ جني؟ عفريت؟». استرخى والده بظهره على جذع شجرة، وقال «كانت عروس نيل»، فكرر الصغير وراءه مندهشًا «ياه! عروس نيل!!». فهز والده رأسه مؤكدًا وقال باعتزاز «نعم. عروس نيل ريفية».

ظل يجدف حتى عرض النهر، وتأكد أن لا أحد يراه من الصيادين فاطمأن، ناداها هامسًا «يا.. أيتها الـ..». ولم يعرف بماذا يُناديها، فأكمل «سمكة». ورآها تخرج ضاحكةً إلى السطح وهي تهز شعرها البُني، فنظر إليها مسحورًا وسألها «ما اسمك؟»، ظلت تسبح وهي نائمة على ظهرها، تضرب النهر بذيلها فيتطاير رذاذ الماء الملوَّن. يا لجمالها! بحركة صغيرة منها تجعل الدنيا قوس قزح. قالت بدلال وهي تحرك كتفيها «ما رأيك لو سميتني أنت؟». فرفض بسرعة وقال «لا، ستكون هناك امرأة حتمًا تحمل مثل اسمك، وهذا لا يليق بك». ولم يعرف متى صار حكيمًا هكذا! قالت «ليكن روح». فردد وراءها مأخوذًا من جمال نطقها لاسمها «روح!»،وسألها الصعود إلى القارب فقالت «سأفعل لو أمسكتَ بي». وقفز وراءها يطاردها حتى لهث. يسبح فتغوص، يغوص فتظهر على السطح. تضحك وهي تراه عاجزًا عن إمساكها. تقول ضاحكةً «تريد أن تُمسك سمكة؟ لن تقدر!». وتعب وصعد إلى القارب وقال «لن أفعل، لا أريد». وصعدت وراءه مشفقةً على رجُلِها وقالت «حسنًا، تذكر أنني أقرأ أفكارك، وأنك لا تُتقن التمثيل». وصعدت فأمسكها وقال «خدعتُك»، فضحكت ببراءة قاتلة.

ولم تلبث أن قفزت من القارب. سألها عن السر، فقالت «تريد العودة بي إلى البلدة». سألها متعجبًا «وما المشكلة؟ هناك سأتزوج بك!». فضحكت من سذاجة صيَّادها وقالت «تزوَّجني هنا». وبدهشة أكبر سألها «هنا أين؟»، فأجابت وهي تستلقي بظهرها على الماء «هنا في النهر». سألها «ولماذا لا تأتين معي؟». فقالت «أنت تعرف الخرافة جيدًا، جميع الصيادين يعرفونها، تتزوج بي فتصير ابنًا للبحر ونصف سمكة مثلي». قال وهو يستعطفها «لا أريد أن أصير نصف سمكة، لتكوني أنت امرأة كاملة». هزت رأسها وقالت بدلال «لا، لا. إن رآني الناس وضعوني في السيرك». قال «سأحميك، أقسم لك». فابتسمت «آه يا صيادي القوي، إن غيرت القرية سأعود معك. هذا وعد».

لعبة..

لم تستطع سالي أن تمنع ضحكتها العالية، احمرَّ وجهُها، وظلَّت تشير بإصبعها إلى زهر النرد دون أن تنطق. نظر إلى الزهر ولم يفهم سرَّ ضحكها. وراقبها وهي تستلقي على ظهرها. تضحك وتتلوَّى، ترفع ساقيها لأعلى فيقع بصره على ما بينهما. غريبٌ أمرُ هذه المرأة، عاهرة حقيقية، رغم موتها تضحك وتتلوَّى، ولا يعنيها المجهول القادم! يسألها بعدما ملَّ ضحكها «حسنًا، ما الأمر؟» فتحاول السيطرة على نفسها. تفشل، وتضحك وتقول «حسنًا.. هذا نرد مزيّف». تمسك بزهر النرد وتقلبه على وجوهه وتقول «هل ترى؟ منقوش على كل وجوهه رقم الحظ ٦، لا يوجد زهر نرد كهذا. نحن ساذجان. نلعب وهو ما يلعب بنا!».

قربان

في الليل. أحس حسن بحركة مريبة في البلد، ورأى رجالًا يمشون بالسَّواد، بينهم فتاة مُلثَّمة تمشي حافية القدمين. وعرف أنها فتاة من جمال قدميها وبياضهما. ونهض ليتتبع هذا الجمع وهو يشعر أن ثمة حدثًا جليلًا. اختبأ وراء جدران البيوت والأشجار. ومشى ببطء وهو يتلفَّت ليتأكد أن لا أحد يراه. كانت الغربان تراه، نظر لها مبهوتًا وقال «هس!»، فلم تنعق. ظل يتبعهم حتى وصل إلى

دوَّار عائلة الرشاونة. دلف، وهنا أحس بالخطر. لأن جميع رجال العائلة وصبيانها كانوا موجودين ويتحركون كالنمل في كل مكان. ولمح آثار حفر أمام بعض البيوت، فاختبأ وراء شجرة لم يتركها، وعرف أن طريق العودة صار صعبًا.
نزلت الفتاة إلى القبو وحدها، وجلس باقي الرجال يدخنون الشيشة والسجائر. بعضهم جلس أمام هذا القبو، أو خلف البيوت، أو عند بوابة الدوَّار الكبيرة. يهمسون والتوتر بادٍ على حركة أجسادهم. لم يسمع شيئًا منهم. طال غياب الفتاة، فشعر بالخوف عليها، ماذا يفعلون بها؟ ورأى شبح خالد يعرج مع دخان النار المتقدة في الحطب، أمام الرجال، ولا يراه سواه. يسبح حتى يصل عنده، دخانيّ اللون ذا رائحة ثقيلة. قال «اتبعني». فمشى وراءه مسحورًا. ودخلا في طرقات مظلمة فارغة من الناس حتى وصلا أمام بيت، دلف الشبح، تردد حسن. قال «اتبعني». وأراد أن يعترض أو يهرب. لم لا يساعده في الهرب؟ هو لا يريد التلصص بعد الآن.. والبيت فارغ، مُهَدَّم، ممتلئ بأدوات حفر. وصل الشبح إلى جدار، وفي الجدار خرم، ومن الخرم أمره أن ينظر فأطاع.
كانت الفتاة تقف، عاريةً، في منتصف الغرفة. خاضعة تمامًا. جسدها أبيض ومُحنًّى. وعلى الأرض يجلس رجل أمامها، يتلو عليها أشياء غامضة. قال خالد «هذا مغربي». وفي الركن رأى رجلًا آخر أسود. سأل حسن «ومن هذا؟». فأجابه «هذا حارس المقبرة». ، سأله بخوفٍ «ومن هي؟» وأحس فيها روح ليلى، لم يرد خالد. ورآها حسن ترتعش، كأن كهرباء قد مسَّت جسدها. فهمس حسن مُشفقًا «رباه! لماذا جاءت؟» فأجابه «لأن عُرسها اليوم». ورأى خيطًا رفيعًا من الدم يسيل من أنفها، وعرف أن الجني الحارس قد قَبِلَها وجعل مهرها لُقيةً ذهبًا إلى آل رشوان. فهل يعرف الجني أن آل رشوان ليسوا وكيلها الشرعي؟
يدٌ وُضِعتْ على كتف الصغير فانتفض. شبحٌ أزرق. تعجَّب «أبي؟». والده يضحك بحسرة، كمن أدرك الخسارة أخيرًا واستسلم، هكذا صار منذ قابل عروس النيل. ثلاث سنوات مرت منذ أن رآها، وكل يوم يصير مُسِنًّا أكثر، ضئيلًا، وأصغر من ذرة تراب. والجنوب جبل شاهق.
وأحسَّ حسن أنه وجد مُنقذه أخيرًا. قشَّة صغيرة ها هي، فليُمسك بها. همس «أخرجني من هنا!»، فأمسك والده بيده وابتعدا عن دوّار آل رشوان. لم يرهما أحد. ومشيا في شوارع البلدة. ظل والده يضحك بحسرة، وعندما داسا على بِركة ماء صغيرة رأى والده يختفي فيها.
رائحة البحر
حياة مديدة عاشها جد نجم الدين. عاصر فيها ملوكًا مثل: عباس حلمي الثاني، وحسين كامل، وفؤاد الأول، وفاروق الأول. ولم يحفظ يومًا أسماءهم. شهد انتقال مصر إلى الجمهورية ولم يعرف سوى اسم ناصر. مات الجد في عمر الثمانين وترك حفيده صغيرًا، بالثامنة من العمر، في دنيا كبيرة. ولم يكن الصغير يعرف في الدنيا سوى جده. ولم يخبره الجد أن والده حيّ ويعيش في آخر البلاد.
كان الجد حزينًا عندما أخبره ولده بأمر الرحيل. قال «الدخيلة مدينة كلها خير. حتى نابليون عرف هذا ودخل مصر من شاطئها». ابن ضال يتبرَّك بالفرنسيين ويترك بركة والده التي يسافر لأجلِها الدراويش بلادًا. وسافر ولم يُبالِ بسخط الجد. ترك أم نجم الدين تلده دون أن يكون جوارها. وماتت بعد الولادة، فلم يُقِم لها سرادقًا أو يتذكر وجهها.
وفي الدخيلة عاش سنة كاملة. رأى آثارًا رومانية وقلعة مهجورة ومدفعين على البحر من القرن السابق. وانتقل ليعيش في الإسكندرية ويعمل في مينائها. الإسكندرية مدينة كبيرة، وهادئة، وفيها

نساء جميلات. لهن سيقان طويلة بيضاء، ويرتدين ملابس قصيرة. لم يكتف بالفرجة عليهن. وكان الجد يعرف. يراه، مثلما يراه الله، ولا يغفر.
عندما رأى الصغير، بعد يوم من موت الجد، ضخم الجثة هذا يقترب من الدار توجَّس، وفزع لما سقطَ باكيًا ما إن رآه. راقبه وهو يحاول النطق، بلسان مرتعش وعينين دامعتين.. يفشل. فكر أن يجري إلى القرية ليستنجد بها، كان الناس هم من يعْدون من بعيد ويصيحون «عاد أيوب! عاد والدك يا نجم». ومدحوا أيوب كثيرًا وظلوا يختلقون الأعذار حتى قالوا «ظنناه مات في الحرب. والدك أنقذ أرضنا من اليهود». وما إن صدَّق نجم الدين واطمأن وغفل، طالبوا أيوب بالديون القديمة والأموال التي لم يردّها. فقال بعينين دامعتين «بالأمس رأيت رؤيا لن أنساها. رؤيا طهرتني من ماضيَّ. أيوب تاب عن الحرام. فاشهدوا». ووعدهم أن يرد أموالهم في النهار

وطلب منهم المغفرة. فغفروا وهللوا. وقبل الفجر أيقظ ولده وسافرا والناس نيام.
ماء نار العشق
لأيامٍ طويلة غابت شياطين الوحي وشَعَر جوهر بالوحدة، وخمَّن أن ملكة قامت بإغوائهم. وفكر في حيلة جديدة لامتلاكها. وقرر شراء كاميرا. سيلتقط لها مئات الصور ويُعلِّقها على الجدران جوار قصائدها. ولن تستطيع إغواء الكاميرا، لأنها أخت للمرآة، وهي أكبر غواية للمرأة. وفي الصباح ترصدها. وظل على هذه الحال شهورًا. يصوِّرها في السِّر ويسعد بما يملك من روحها. صورها في المدرج، والحرم، والكافيتريا، حتى في حمّام الفتيات. ولم يكتف بالجامعة، تتبعها حتى حلوان، وصورها وهي تشتري خبزًا، وحليبًا، وخضارًا. وعندما دخلت بنايتها، جرى وراءها. وهناك ضبطوه، كسروا الكاميرا، صفعوه على خدِّه. قاومهم. كان عملاقًا قويًّا. هرب منهم. لو أمسكوه لسلموه إلى الشرطة. ليتهم فعلوا!
في بيتها ناقش الجيران وأهلها ما حدث. تعرفوا بسهولة على هُوية عاشقها المهووس. قالوا «كان أحدب». وكان هذا كافيًا. انقسموا إلى فريقين: فريق يرى إبلاغ الشرطة، وفريق يرى أن هذا غير كاف. على رأس الفريق الثاني كان والدها وعمها وابن عمها. والأخير كان عاشقها منذ الطفولة؛ لذا عجَّل بخطبتها وقرر تولي الأمر.
خلال أيام أعدَّ كل شيء. انتظره أمام الجامعة مع ثلاثة من فتوات حلوان. وما إن خرج من البوابة حتى حاصروه وضربوه بالمطواة أعلى العين اليسرى. صرخ متألمًا وانقضَّ عليهم فطرحوه أرضًا. ضربوه بالمطواة فوق الذقن. صرخ. دفعهم بكل قواه. نهض. ولم يرَ الرذاذ الذي ألقاه أحدهم لكنه شعر بألم مبرح. خار مثل ثور أهوج. وبدأ يكسِّر كل شيء: كشك سجائر، زجاج سيارات. والناس يتفرجون في دائرة كبيرة. هرب أعداؤه ولم يشعر بهم. ظل يضرب الهواء حتى سقط. وظل الناس واقفين. ولما همد جسده نقلوه إلى المستشفى.
انقطع جوهر عن الجامعة ثلاثة أشهر، وهدأت الأمور، أو هكذا ظن الجميع، فبعد أيام ذهب العاشق الأحدب إلى الجامعة، ورآها وتتبعها وهو يُرهف السَّمع إلى موسيقى خطوِها. ونادى اسمها مُلتاعًا، وقال «ملكتي». وعندما التفتت مطمئنةً ألقى على وجهها الجميل ماء النار. صرخت وراقبها رافع الحاجبين مشفقًا على آلامها. ظلت تصرخ. ووقف يراقب ناره تحرقها. لم يفكر بالهرب. أمسكه الحرس الجامعي. ضربوه وأسقطوه أرضًا. ظل ينظر إليها بحسرة وهي تتألم، وقال «الآن تراني في وجهها وأراها في وجهي» وأحس أنهما بلغا ذروة العشق.

(٣) طروادة أخرى

بعد أيام ينطلق السيرك في مدرسة «سان مارك». مدام «كاتي»، اليونانية العجوز، وعدت طفلها الأسمر بأنهما سيذهبان معًا، ويشاهدان المهرج، والرجل ذا الساقين الطويلتين، والفتيات اللاتي يقفزن من أعلى، والأُسُود المُدلَّلة التي تقف على قدمين وتهز ذيلها. رأت نجم الدين، للمرة الأولى، وحيدًا وحافيًا. يتشاجر مع ظلٍّ يُحاصره. وأحسَّت بثدييها المُكرمَشَين يقطران لبنا. رقَّ صدرها على الصغير. نادت من شرفتها «يا ولد، اصعد إليّ». وصعد الدرج وهو يلعن والده والإسكندرية. كان والده قد ترك ميناء الإسكندرية للعمل بوابًا لبناية تُطل على البحر في محطة الرمل. بناية مهيبة على الطراز الإيطالي، لها أبواب وشبابيك كبيرة أسفلها ترقد حيوانات غريبة مُحنَّطة. البناية لوحة بديعة من لوحات عصر النهضة، لم يفهمها. ورأت مدام كاتي صغيرها الأسمر جيدًا، بشعره الأسود الفاحم المضفَّر، وعينين سوداوين حزينتين. ودون مقدمات قالت «ألكسندر خاض حروبًا لأجل أن يبني هذه المدينة». قال الصغير «وأنا أكرهها». ولم يبدُ عليها أنها سمعت ما قال، تابعت «ليبني مدينةً كالحُلم». ألكسندر العظيم قال «لتكن مدينة خالدة»، فكانت. قال «لتكن هي أنا، ولأكن أنا هي»، فكان ما أراد. ثم نظرت إلى الصغير بعينين زرقاوين باكيتين، قالت «وأنت تكرهها يا صغيري!».

وأحس نجم الدين بالذنب لأنه جعل هذه العجوز الجميلة تبكي، ووقف حائرًا أمامها. وجهها مكرمش جدًّا، عيناها مثل البحر، داخلهما دمعٌ قديمٌ ومحار! لم يعرف وجهها الحقيقي. وراء كل هذه الخطوط والدوائر كان الزمن يُخفي طفلة مذعورة، طفلة تجري في الظلام مع أشباح للاختباء أسفل الأرض، تريد أن تُشعل شمعة وتأخذها معها. تنهرها يدٌ، توقِعُها أرضًا، وتشدها. أسفل الأرض يرقد الموتى، عادةً، وهم يقلدون الموتى، لا يشعلون المصابيح، يختبئون ويتنفسون خلسةً. يمشون كأشباح زرقاء. ينتظرون بداية الحرب، أو نهايتها.

استندت كاتي على يد الصغير وهي تنزل الدرج، ولم تترك يده وهما يمشيان عند محطة الرمل. وتأملها نجم الدين. عمرها خمسون عامًا، لكنها تبدو عجوزًا جدًّا. ساقاها ثقيلتان، وجسدها مترهِّل، رغم هذا ترتدي جونِلَّة قصيرة. تنظر إلى البحر بشرود. تتذكر الصغير فجأةً فتسأل «لماذا تكره هذه المدينة؟» فيُجيب «لأنني أحب الصحراء». ولم يعرف لماذا سُمِّي هذا المكان بمحطة الرمل. لا رمل هنا، لا شمس أسوان، ولا جبال. وبدأ يتذكر أسوان ويحس بلفحة الشوق إليها وكاتي ترى الصحراء تتشكَّل أمام بصرها. خيول كثيرة تعدو فوق الرمل، على رأس هذه الخيول «بيسيفالوس». خيل أسود يضرب الأرض ضربًا. ويعدو مثل الريح، في صحراء طروادة، المدينة التي لا تُقهَر. هناك حيث قُتِل «هيكتور». هناك حيث بكى «آخيل». وهناك حيث زارهما «ألكسندر» وتبرَّك بهما. ماذا تكون الإسكندرية لو لم تكن هي روح ألكسندر وجسده؟ مات ألكسندر وحنطوه هنا. وبعدها اختفى جثمان الملك العظيم، صار هو إياها، إلهًا خالدًا كما أراد دومًا. وماذا يكون بحر الإسكندرية لو لم يكن «بيسيفالوس». البحر خيلٌ أسود، موجٌ هائل لا يروَّض، لا تتحدَّهُ، افعل كما فعل ألكسندر، اعرف نفسك. يومها قال أرسطو للصغير «اعرف نفسك تملك العالم». وقد فعل ألكسندر. عرف من يكون. كيف لا يموت. ويومها لمعت عينا ألكسندر وقال لأرسطو «سأصير أعظم من آخيل، سأصير إلياذة أخرى». ها هي مدام كاتي تمشي

مع الصغير في صفحاتها. طفل يلهو ألكسندر، يقتل ويلهو، ولا أحد يغير العالم سوى الأطفال. الأطفال مُقدَّسون، الأطفال آلهة لا يخطئون. وماذا تكون بارات الإسكندرية لو لم تكن معابد؟ هنا يعبدون «ديونيسيوس»، إله الخمر والحب، خالق « أوليمبياس» ومعبودها. «أوليمبياس» التي ضاجعها «زيوس»، والذي جاءها في هيئة ثعبان، فجاء «ألكسندر» إلى العالم. همست في أذن وليدها منذ اليوم الأول «أنت ابن زيوس». رغم هذا ظلَّت مُخلصةً لإلهها، «ديونيسيوس»، وحده دون الآلهة. تتعرَّى وترقص، في المعبد، يراقبها الكهنة. تتمايل والخمر يسيل على نهديها. تصرخ منتشية من شدة اللذة. يلمسها إلهها، يشدها من شعرها، ويضاجعها.

الإسكندرية طروادة أخرى. ملحمة تهب الإنسان البائس الأمل. رجل يسافر من بساتين الزيتون في اليونان حتى قصور الهند. يمتلك الشرق: مصر، بلاد فارس، وسط آسيا. يهزم الفيلة. يدهسها. يحتضن الموت في المعارك، ولا يموت. لأن الآلهة لا تموت. الإسكندرية هي توق الإنسان الفاني إلى الخلود. عرفها الرجل الذي هزم الموت. من كان ألكسندر؟ ابن «فيليب» البشري؟ أم ابن زيوس؟ أم ابن آمون كما قال كهنة معبد سيوة؟ ربما لم يكن أحدًا. كان حلمًا، طيفًا، أو كأس ماء. «والعالم محض صحراء يا صغيري». هكذا قالت الأم لابنها الصغير.

كاتي تعرف الظمأ والظلام. تجلس في المخبأ، وتسمع صوت سارينة الإنذار. تقول لها أمها «لا تبكي. لا يبكي أحفاد ألكسندر». فتهمس «لكن...». انقطعت سلالة ألكسندر حين مات في سن الثلاثين. مات دون ولد. وقعت الإمبراطورية العظيمة. من يرث ألكسندر؟ لا أحد أو كل أحد. كل القتلة والمهرجين يطمعون في الإرث. «هتلر»، «موسوليني»، «ستالين»، «تشرشل»، «روزفلت»، «توجو». كل هؤلاء يريدون جسد ألكسندر. مهرجون يحكمون العالم، مهرجون لهم أنوف حمراء وشعر أخضر منكوش.

لكنها تحب السيرك. تذكر يوم قالت لأمها «أريد أن أرى ذلك الحاوي». ونزلت الدرج، ووقفت مع الجمع، تتأمل السحر الذي يحدث أمامها. أرانب تخرج من قبعة الحاوي، وحمام يحلِّق في السماء، قطعة نقود تخرج من أذنها، تصيح «أووه!». فيغمز لها الحاوي. كان شابًّا غجريًّا أسمر، وكان لا يعجز أمام أيِّ لعبة. قال له أحدهم «هل تستطيع أن تطير؟»، فابتسم ابتسامة واسعة ثم جلس على الأرض مقرفصًا. اتسعت أعينهم عن آخرها حين رآوه يعلو، مقرفصًا، فوق رؤوسهم. صاحت ثانيةً «أووه!». وشعرت أن قلبها يطير، هذه السعادة تلاشت عندما عاد والدها. أمرها أن تصعد إلى البيت فلم ترضخ. شدَّها من شعرها فتدخَّل الغجري وقال «اتركها أيها الضفدع!». ولم يتحول والدها إلى ضفدع، لكن كلما حاول أن يشتمها أو يشتم الغجري لم يصدر غير نقيق. وضع يده على فمه مبهوتًا وحاول النطق فلم يستطع. قال «نق.. نق..نق!». وكان يقصد أن يقول «يا ابن الوسخة!». ضحك الجميع وضحكت. والدها إيطالي متغطرس. والعام هو ١٩٤٠. وإيطاليا تضرب مصر في السلوم وسيدي براني، وبعدها تضرب اليونان. ووالدها يضرب أمها ويقول لها «ستكون مصر واليونان والعالم لنا». سيظل يضربها لأيام، ولن يقول لها سوى «نق..نق..نق!». ويختفي تمامًا من حياتهما. ولن يعرفا أين ذهب. ربما هرب وعاد إلى إيطاليا، وربما احتُجز في معسكرات الاعتقال التابعة للسلطات البريطانية بتهمة التعاطف مع الفاشية. ستسوء معيشتهما، تلجأ أمها للعمل وتجد الصغيرة الوقت الكافي لرؤية ساحرها الغجري. ستذهب هناك حتى بلاد الغجر، حافية، وترى المعجزات.

بعد أيام قليلة ينطلق السيرك في مدرسة «سان مارك». بعد أيام يركبان الترام من محطة الرمل، مرورًا بالقائد إبراهيم ومقابر الأقباط حتى يصلا إلى الشاطبي. وهناك يقابلان الغجري واقفًا أمام مقابر البطالمة. سيندهش الصغير حين يراه، وتهمس مدام كاتي «هذه هي مفاجأتي لك». وسيشعر أنه يقف أمام مرآة. فهذا الغجري الأسمر، رغم شعره الأبيض، بدا كصورة من الصغير باستثناء الخطوط التي خربشها الزمن على جلده. سيندهش الصغير أكثر حين يرى الغجري يبتسم بحفاوة بالغة ويقول «هذا هو ابني الذي به سررت!».

بدلة سوداء

أغسطس ٢٠١١، ومرآة زرقاء ضبابية. يقف أمامها الغريب. يبدو باهتًا مثل شبح. لن يلعب مع تلك المرأة لعبة أخرى، لأنها طفلة لن تتحمَّل الخسارة. كيف يخبرها؟ «خسرت عمري في ضرس تالف» أو «خسرتِ عمركِ في اللعب والانتظار». ها هو يُدير ظهره لها. تمشي عاريةً وراءَه. تُخرج من الدولاب بدلة جديدة. تحتضن ظهره، وتقول بصوت ناعس «أيها الوسيم، الهدية حلوة؟». يمسك البدلة دون أن ينطق. يتأمل صورتهما في المرآة. تحتضن وهمًا، تشدُّه إلى حضنها، تتغنَّج. تقول بصوت هامس «ما رأيك؟». كانت بدلة أنيقة وباهظة. ولم يعرف بماذا يُجيبها، قال بشرود «إنها سوداء!». فلم تفهم. وبدأت تساعده على ارتدائها، وأحسَّ أن سوادها ردًى، دخان. بدأ يشعر بالاختناق. يسعل. يصيح «أيتها الميتة الحمقاء. انظري. إنها سوداء». فتنظر بدهشة وتبكي. كان يعرف أنها ستبكي. يسمعها تصيح. تضرب صدره. تقول «أنت هو الميت. وأنا لن أحبك بعد اليوم». يتحرك بجنون إلى باب الشقة. تبدأ في تكسير الأشياء: الفازات، المرايا، الصور، الساعات، المصابيح. قبل أن تسقط أرضًا وتحتضن جسدها بيديها. كانت تنتظر أن يُقبّلها ويقول لها «شكرًا لأنكِ هنا». فتهمس «ستعشقك نساء كثيرات، فعُد إليَّ». الآن خرج ولن يعود. سيظل يمشي في شوارع القاهرة دون أن يعرف أين يذهب.

في أيام أخرى كان ينزل من البيت بلا حيرةٍ كبيرة، يقود السيارة السوداء إلى ميدان التحرير، ويُمضي ساعات في العيادة؛ يعالج المرضى ويحدد مواعيد للعمليات التي سيُجريها. اليوم لا يملك أيَّ سيارة، تغيَّر الروتين، ولما تغيَّر الروتين فزعَ. صار يمشي حتى ناصية الشارع، يركب تاكسي فيأخذه حتى العيادة. لماذا سرقوا السيارة؟ كان ينظر من النافذة ورأى الناس يخرجون بعد صلاة الجمعة في حشد هائل ويصيحون بسقوط النظام.

الدخان يعلو. الطلقات الرصاصية تنطلق في كل اتجاه. يترك النافذة ويختبئ أسفل المكتب. الدخان يعلو أكثر. المدرعات تطارد الناس الذين يجرون أمامها كفراخ مذعورة وهي تُطلق الرصاص عليهم فيُلقون عليها الحجارة. يسوء الأمر أكثر. يحمل بعض الناس قتيلًا ويصعدون إلى العيادة ويأمرونه «عالج الرجل»، والرجل ميت. كيف يُعيد للموتى ضوء أعينهم! لقد حاول من قبل ولم يستطع. يصيحون «افعل شيئًا»، فينقاد ويطردهم ولا يفتح باب العيادة.

ليومين ظل الغريب هناك، وظلت الممرضة جواره. وفي نَوبة فزع استسلما للحب فضاجعها. تذكرت فتياتها الصغيرات وطلبت أن يساعدها في العودة إليهن فرفض قائلًا «لا أستطيع». ورحلت وهي تلعن ذلك الجبان. وظل الناس في الميدان رغم إعلان حظر التجول، وانسحب رجال الشرطة من الشوارع، وتم حرق الأقسام. وظل الغريب متعجبًا مما يحدث، ولم يفهم شيئًا. وقرأ لافتة يحملها شاب منكوش الشعر «ارحل عايز أحلق شعري». ظن ما يحدث نكتة لا يفهمها.

تشجع، غادر العيادة. وما إن دخل البيت رأى المرأة الميتة تنتظره، تضرب صدره وتقول وهي تبكي «قتلتني من الفزع». لم يرد على الهاتف مرة، والآن تركها دون أن يقول شيئًا. ونام، والنوم لا يريح القلب المرهق. ينام والميدان لا ينام. نهض من الفراش أخيرًا، وشاهد الخيول والجمال تدهس المتظاهرين في التلفاز، ظنها لقطة من فيلم ما. بدأ الواقع يتحول إلى فيلم كارتونيّ مضحك جدًّا. وسمع صوت المرأة الميتة تنادي من الشُّرفة «لا أرى سيارتك». ولما نزل الشارع وبحث عنها لم يجدها. هاتفت والدها فشتمها وقال «سيارة! أيتها الطفلة الغبية المُدلَّلة». وأغلق الهاتف في وجهها. وخرج الرئيس على التلفاز يؤكد على الاستقرار أو الفوضى، وهرب المساجين من المعتقلات وملأوا الشوارع، وأحس الغريب أن القاهرة صارت مدينة أخرى لا يعرفها، مدينة للظلام والخفافيش واللصوص والقتلة. ونهضت المرأة وأغلقت الباب بثلاثة أقفال، وربتت على كتف رجُلها وقالت «لا تخف، عندنا من الطعام ما يكفي».

اليوم يمشي في الشارع دون هدف. يمر أمام المستشفى الذي يعمل به في السيدة نفسية بعدما أغلق عيادة التحرير. يسمع دعوات بعض الدراويش الذين يمشون في الشوارع «يا أيها النور الذي يُعمي الأبصار»، كأنهم يتنبؤون بالقادم. يمشي كالأعمى لا يرى شيئًا. لا يريد الذهاب إلى العمل مثلما لم يُرد الذهاب إلى المدرسة في صغره. لا يذكر من المدرسة شكلها أو سورها أو اسمها أو موقعها. يتحجج بالمرض. يسعل. هذه البدلة السوداء هي السبب. يلعن تلك المرأة. لماذا اختار تخصص العيون؟ والده غرق في النهر. رآه حين أخرجوه من النهر بعد يومين. مثل النهر كان حزينًا أزرق. لمس شعره المبلل. قالوا «مات». قال «هذه جريمة قتل». ضحكوا. من قتل والدك أيها الأحمق؟ ولم؟ من سيخبرهم؟ عروس نيل ريفية. لن يفعل لأن هذا سر والده. سيصمت. سيتقطَّع مثل قماشٍ بالٍ. سيحتضن جسده بيدين مرتعشتين ويبكي. وليلى؟ أسفل الطين هناك، لن تسمع، لن تحتضن جسدك. اصرخ. لن يصرخ. والدك أزرق مثل النهر. لماذا لا يخبرهم؟ عروس نيل ريفية. ولم؟ لتسرق قلب والدي. قلب والدي الذهبي أيها العميان.

لا يعرف أين يذهب. تبدو الطرق تالفة مثل صلصال مُبلَّل. يرى درويشًا يجري في الميدان يدور، يرقص، وطفلًا يجلس أسفل عمود نور يذاكر، وعمة تدخل الدار الضيقة للمرة الأولى فتتسع عيناها وتقول «كل هذا البيت لك!». عيناها واسعتان مكحلتان. ودرويشًا يسبح في مكان ما، يقول «يا ملك الغيب والضباب». وطفلة تعدو تجاه المولد والأراجيح، وطفلًا يجري تجاه ضريح ليلى. يمشي، يتبعثر مثل شظايا. تضيع خطوط الزمان من كف يده. ينظر إليها مليًّا، يعجز عن قراءتها. تدور الدنيا أكثر وأكثر. تعلو موسيقى من مكان ما. لا يعرف مصدرها ولا يصل. ما هذا الزحام؟ ما هذا الفراغ؟ كل هذا الحشد ولا أحد هنا!

عرق النبي

سقط الأحدب في منتصف الشارع. حمله أربعة رجال أقوياء، أعادوه إلى السكن. والعين مثل الكاميرا، ترمش فيسود الظلام، وتبصر فيرى الجدران المشقَّقة. يرى أم علاء تجلس بشعرها المنكوش، جواره على الفراش. تضحك بهستيريا. ها هي تهز رأسها بجنون، تُخرج لسانها، ويسيل دمٌ من شفتيها. والعين مثل الكاميرا، ترمش فتجري عقارب الساعة، ترمش فيعدو الزمان أسرع. ها هو يرقد فوق الفراش، والحُمَّى لا تغادره، وأم علاء لا ترحم. تصعد جسده، تجلس فوق قضيبه، فيتأوه من ثقل جسدها. تهتز، يَصِرُّ الفراش المتهالك، وهي تُصِرّ. أم علاء لا ترحم. والعين؟ «العين مثل فتحة النيشان». هكذا تهمس في أذن رجلها. يلعنها الأحدب. فتهمس «افعل ما

يغضب قلبك». يلعن دينها وموتاها. فتهمس «لا بد أن يموت تمامًا». يصرخ. يقع برواز متهالك من الحائط. فتهمس «ليقع الكون وتنجو». يصرخ ويضاجعها. يضاجعها، حتى تنفذ قواه ويبصق فيها مَنِيَّه. وأم علاء تضحك بجنون مثل مشعوذة لا تبالي بلعنتها. وبعد أيام نهض الأحدب أخيرًا وصعد إليها، عبر الدرج بخطوة نمر. طرق بابها ولما فتحت ضاجعها كثيرًا حتى اعتاد رائحة عرقها وقالت بلذة «آه. بني، أيها النبي».

أصبح قادرًا على المشي أسفل أعمدة الإنارة، وأمام أضواء السيارات، ولا يخشى الضوء. وفي شارع جامعة الدول العربية رأى لبنى أسفل عمودها المعتاد. رآها. والعين مثل فتحة النيشان. اقترب منها بخطًى ثابتة وهو يرصدها. رأى ابتسامتها تتسع، وهو يتقدم منها، وعيناها تمتلآن بالأمل، لكن ابتسامتها لم تدُم، عيناها ضاقتا حتى صارتا مثل ندبين. انقبض فؤادها. صار يملك أن يرى. فؤادها يخفق بشدة وينغزها بقوة. ينتفخ بالدم ويضغط على رئتيها. ما من هواء. تختنق. تبلع ريقها بصعوبة. تريد القليل من الماء. وهو ماذا يريد؟ أظافرها تتحفَّز. فما الذي أفزعها؟ همسَت: «فقدت سبع أرواح ولم يبقَ سواي». وهذا القادم من يكون؟ شخص آخر. ورغم قلبها المتوجِّس عرفت أنها ستستسلم لجوهر ما إن يلمس يدَها، ففعل، وقادها إلى الطريق.

في شقة بالشيخ زايد وجدت لبنى نفسها. تأملت الجدران والنافذة والزهور والأرائك، وقبل أن تسأل أجابها «هذا بيتك منذ اليوم». ابتهجت وقفزت في حضن بطلها، فقبَّلها وشدها إلى الكنيف. وهناك عرَّاها من ملابسها وضاجعها. كانت الرائحة مقززة لكنها موحية. «ثمة أمر سيء». هكذا حدَّثها قلبها. في الصباح نزلت لتحضِّر حقيبتها وأغراضها. عادت فوجدت فتاة أخرى بالداخل، صغيرة سمراء مثل قطعة شوكولا، تنظر من النافذة. تلتفت إليها فترى الذعر في عينيها. تسألها «مَن أنتِ؟». فتقول «اسمي غادة». وتحكي عن الأحدب الذي أنقذها من قوَّادها وقادها إلى هنا وقال لها «هذا بيتك منذ اليوم». اندهشت لبنى وبدأت تفهم ما يجري. وفي اليوم التالي وجدت الفتاتان نفسيهما وسط ثلاث نساء سمينات نهودهن كبيرة. التصقت الفتاتان ببعضهما. وظلت غادة ترتعش في حضن لبنى، وظلت لبنى تتصل بأحدبها فلا يرد.

كانت النساء الأخريات يعرفن بالضبط لماذا جئن إلى هنا. قال لهن «بيت دعارة». لم يكذب. أما الطفلتان الصغيرتان فقد وهبهما الأمل. ولما جاء إلى البيت ضربت لبنى صدره كثيرًا، وتركها تفعل ما تشاء حتى هدأت. أخذها إلى الكنيف مرة أخرى، وقال لها «هذا المكان يليق بنا»، وضاجعها هناك فلم تعترض. ولم يضاجع سواها. رغم هذا ترك رواد المكان يضاجعونها متى شاؤوا، ولم تفهم هذا الحب. ظلت تُطيع أحدبها إن اشتهاها. تترك جسدها ليفعل بها ما شاء، ولما يرحل تذهب إلى غادة وتحتضنها فتهدِّئ بكاءها بالقبل والأحضان.

خيال المآتة

ضباب يعوم مثل الموج وقمر كامل الاستدارة، وليلٌ أزرق. حسن يجلس أسفل عمود الإنارة أمام كتب كثيرة. عمره صار ستة عشر عامًا. نما له شارب ولحية قذرة، صار أطول من النخلة المكسورة جوار داره، أنحف من العصاة الطويلة التي يضرب بها الماء للصيد. لا يزال فاشلًا بالصيد مقارنة بوالده. بالكاد يصطاد القليل ويذهب إلى السوق. يجلس أسفل الشمس الحارقة ساعات حتى يبيع كل ما عنده. يعود إلى النيل ليستحم. رائحة السمك صارت جزءًا من جسده، يعرق عرقًا زفرًا. يستحم ويعود إلى عمود النور. يجلس هناك بالساعات حتى يتعب. لا يأكل شيئًا. حين يتعب يعود إلى الدار للنوم. هذا المساء أراد أن يفعل شيئًا مختلفًا. أراد أن يرى ليلى ويلمس

وجهها. كانت الجبّانة قريبة، هناك، خلف الجبل. سار ولم تتركه تلك البومة. تُحلِّق في الليل ولا يراها. يرى ظِلَّها يغطِّي ظِلَّه على الأرض. تقفز من شجرة إلى أخرى، ومن عمود إنارة إلى آخر. تطارده حتى يصل إليها فتختفي.
في الجبانة رأى أضرحة كثيرة، من رخام أو خشب. على كل ضريح ثمة غراب أسود. تنعق الغربان جميعًا في آن، كأنها تريد أن تطرده بعيدًا. هي علمت الإنسان الدفن. وهو ماذا يريد؟ يريد أن ينتشل ليلى من مخالبها. ورأى ضريح ليلى بسهولة في الظلام. لم يكن ثمة غراب واحد يجرؤ على الاقتراب منها. قال في سره «هذا دليل خلودها». وجلس على الأرض وبدأ ينبش بيده التراب. يُهيل التراب على جسده ويلطم. تنعق الغربان ولا يُبالي. كان الليل أزرق. وشعر أن ليلى تترجاه أن يكمل. سيعالجها ويعيدها. أخبره والده «إن عالجنا الموتى عادوا». توقع أن يلمس يدها وهو ينبش القبر فتتحرك أصابعها. العام هو ١٩٩٠. مر على موتها عشرة أعوام. لا بد أنها شبعت من الموت. إن أحسَّت يدها بيده عاد قلبها للنبض من جديد. لن ينقذ خالد. سيترك دود الأرض ينهش جسده. لا يريدها أن تموت مرة أخرى إن مات. ظل ينبش قبرها، توقَّع أن يراها تمد يدها فتلمس يده.

تخرج من قبرها وهي ترتدي كفنًا أزرق على هيئة فستان قصير. لكنها لم تخرج. وسمع صوت حارس المقبرة يصرخ من بعيد «يا ملعون». ونظر وراءه ورآه مفزعًا كخيال مآتة. وتمنَّى أن يسقط ميتًا الآن. ربما لا يمنعها من الخروج سوى هذا الحارس. ربما تخشاه. يبدو مخيفًا بالفعل. يصرخ من بعيد «سيسخطك الله قردًا يا ملعون». يشعر بالخوف. يترك قبرها، يسير بعيدًا. يسمع وقع أقدام حارس المقبرة وراءه، يطارده. والموتى يصيحون. الموتى يستغيثون بأملهم الوحيد. صيحاتهم موسيقى حزينة. يا لبؤس الموتى! يعدو ويصطدم بشواهد قبورهم، يسقط شاهد خشبي. يتعثر، والغربان تنعق. وأمام النيل استلقى بجسده المُنهَك، وتأمل السماء الممتدة مثل بساط سحري. ورأى ليلى في النجوم المبعثرة، تضحك بابتسامتها الطيبة. وقع في النوم، ولم يدرِ لأن عينيه كانتا مفتوحتين عن آخرهما، عندما خرجت ليلى من النيل، مبللةً، بفستانها الأزرق. لم تكن وحدها، كانت تمسك بيد خالد. كل شيء واقعيٌّ. هي ترتدي كفنًا أزرق، وخالد عار إلا من ورقة تين كبيرة. ولم يُحس بوهمٍ أو خداع. نهض إليها وقال «الآن صرت أكبر منكِ. انظري إليَّ». قبضت على يد خالد أكثر وقالت «الموت يجعلنا أجمل»، وأحس أنها ملعونة بموتها، بشرتها بيضاء جدًّا، وأسفل عينيها هالات زرقاء. وخالد يضحك دون سبب. يستطيع أن يضرب خالد اليوم ضربًا مبرحًا. صار أكبر، وخالد لا يزال في الثانية عشرة ولن يكبر، فلماذا لا يفعل؟ ليلى! قاسية القلب، مثل صخرة باردة، ملساء، حادَّة الحواف وقاتلة.
واستيقظ على صوت سُعالٍ حادٍّ آتٍ من الدار. ودلف إلى الداخل فرأى العمة راقدة فوق الفراش الخشبي المتهالك. وجهها أصفر مثل ورقة شجر. وعرف أن خريفها قد حان. مدَّ يده وتحسس وجهها، كان مُتعرِّقًا. صنع لها كَمَّادة ووضعها على جبينها فلم تغير شيئًا. بدأ يُبلل جسدها بقماش، ولم يعرف هل كان يعالجها أم يغسِّلها، وأراد أن يُحضر طبيب المصحة فأمسكت يده وقالت «لا تفعل»، وعادت إلى شرودها. وكلما حاول أن يتسلل خلسةً عادت لتكرر مقولتها «عِدني أن لا تفعل». ثم تعود لغيبوبتها. وجلس أسفل فراشها ثلاثة أيام، يُطعمها، فتقيء كل شيء. وفي اليوم الثالث كان الله رحيمًا بها. بدأت تُتَمتِم آيات قرآنية وهي تبتسم، ثم لفظت نصف الشهادة فقط، لأن

حسن وضع يده على فمها ومنعها من إكمالها. كان يأمل أن الله لن يقبض روحها حتى تنطق الشهادة كاملة، لكن الله لم يفعل. ورأى روحها تسيل على فمها في هيئة مادة بيضاء. وقام بلمس هذه المادة بأصابع مرتعشة، كان ملمسها مثل زبد البحر.

ذاكرة الحمَّى

سبعة أيام كاملة قضاها الأحدب في الفراش، بعدها تعلم أول دروس أم علاء. في تلك الأيام السبعة كان يرى صورًا من السجن بذاكرة مريضة بالحُمَّى. توقفت الحافلة بالمساجين قبل مدخل مدينة السادات: عند الكيلو ٨٢ في طريق الإسكندرية الصحراوي. كان السجن هو مجمع وادي النطرون، «ليمان ٤٣٠»، ببوابة واحدة تدخل منها الترحيلات أو الزيارات، وأبراج حراسة موزَّعة بعناية طبقًا لقاعدة القوس في النيشان. في المواجهة كان هناك مبنى الزيارة المتصل ببوابة خلفية تقود إلى عنابر السجن والمستشفى والإعدام، وأمام ذلك المبنى كان مبنى الإدارة، حيث يجلس مأمور السجن وكتيبة الحراسة. وراء مبنى الإدارة طريق يقود إلى ستة عنابر أخرى. والأحدب لم ير غير سواد. كان معصوب العينين. اصطف المساجين في الساحة الواسعة أسفل الشمس. وخمَّن الأحدب أنهم ينتظرون شيئًا مهمًّا، ولمَّا طال انتظارهم فهم أن هذه هي الحياة في السجن انتظار دون هدف.

وتساقطوا كأحجار دومينو. تعرَّق الأحدب. فكَّر لماذا لا يجلس! ولم يجرؤ أن يجرب. لا صوت يعلو ولا نفس. لم يسمع غير صوت الريح وخطوات الحُرَّاس الرتيبة حولهم. وأخيرًا صاح أحدهم «اخلعوا ملابسكم الآن»، ففعلوا. وانتظروا أن يرتدوا ملابس السجن لكنهم ظلوا عُراة. تعالى صياح الحارس «ارفعوا العصابة السوداء»، ففعلوا، ولم يروا شيئًا في البداية، ضربت الشمس أعينهم. وبعدها بدأ الأحدب يرى جمعًا كبيرًا من المساجين العُراة. وفوجئ أن الحراس كانوا عُراة أيضًا، وكذلك مأمور السجن. الفارق الوحيد هو أن قضبان المساجين دقيقة بينما كان للحراس قضبان وخصيان ضخمة.

ألقى نظرة أخرى فرأى الحراس جميعًا مُمسكين بأسواط رفيعة سوداء، يلسعون بها الأرض وأجسادهم. أراد أن يصحو من هذا الكابوس. وتعرَّق أكثر. لماذا لا يهربون؟ أياديهم حُرَّة، بلا أغلال، والحراس لا يملكون غير أسواط بدائية، وخشي أن يخبر أحدًا بهذه الفكرة. وبدأت الصفوف تتحرك بأوامر الحراس للتوزيع على العنابر. ورأى لافتةً من بعيد على مبنى العنابر، ولم يستطع قراءة العبارة المكتوبة عليها. وكلما تحركت الصفوف اقترب وحاول من جديد. ظل على هذه الحال حتى وصل أمامها، وقرأها فانقبض فؤاده. كان مكتوبًا عليها «أيها الداخلون. اطرحوا عنكم كل أمل». وعرف أن هذا هو الجحيم الحقيقي الذي قصده دانتي، ولا سواه.

وفي مبنى العنبر أمروهم أن يمشوا على أربع. قالوا لهم «هنا تصير أقل من دودة». ولم يكذبوا. داسوا على وجوهم فالتصقت بالبلاط. وأمروهم أن يمشوا على بطونهم فلم يعصوا. مشوا على بطونهم حتى دخل كل منهم إلى الغرفة المشار إليها. كان العنبر يحتوي على ثماني عشرة غرفة، والغرفة تتسع بالكاد لعشرين سجينًا، لكنها كانت مُكدَّسة، ومُظلِمة، ومُدنَّسة بروائح الخراء والبول والعتمة. خرم صغير في بطن الأرض هو الكنيف، هنا يتبولون ويتبرزون. ولا ماء في المكان. صنبور صدئ يعمل أحيانًا وكثيرًا ما يُعاندهم، إنْ عمل الصنبور سكب الواحد منهم كوز ماء وراءه، والرائحة لا تغادر. تحرك الأحدب متعكِّزًا على الظلام وافترش المُصلَب للنوم. نام على وضع «الرأس والرجل» وشم رائحة قدم الرجل الآخر. كانت كريهة جدًّا، سيعتادها فيما بعد،

ويفتقدها إن مرض أحدهم وذهب إلى عنبر المستشفى، أو إن استطاع رشوة حارس للانتقال إلى زنزانة أخرى. كانت رائحة أقدامهم بديلًا عن أسمائهم، بها يعرفون بعضهم البعض. ولم يكن ثم «تريوط» في الغرفة يسمح للشمس بالدخول، عكس بعض الزنازين الأخرى، ففهم أن الضوء ضدّه، أو هو امتياز لبعض المساجين. وللمساجين أحلام، بعضهم يحلم بانقضاء المدة، وآخرون يحلمون بالهروب، وآخرون أحلامهم أكثر واقعية مثل الانتقال إلى زنزانة أخرى أو العمل في الميز أو أن تمضي الأيام ويصيرون مساجين قدامى، إن قدم الواحد منهم صار نباطشيًّا للغرفة أو صديقًا مقربًا له. البعض يسعون لنيل هذه المكانة بطرق أسرع، كأن يصير عصفورًا أو مرشدًا. الغرفة بها ثلاثة أفراد من الإسلاميين يرتلون القرآن بصوت جميل، واثنان من البدو لا يتحدثان مع سواهما، وإن تحدثا لم يفهمهما أحد. لم يهتم الأحدب بهذه الأشياء وبدأ يغفو. لم يذكر هل كان يحلم أم لا! في الأيام الأولى كان يرى ملكة، يتخيلها واقفةً أمام مرآتها تتحسَّس وجهَها المحروق، فترى أحدبها فيها، تبتسم؟ لا يعرف. ربما تبكي كثيرًا وتختبئ أسفل وسادتها، لكنها تراه. وبعد أيام لن يذكر وجهها. سينساه تمامًا. كانت للعتمة سطوتها.

بعد لحظات بدأ «التمام»: عدّ المساجين. وعندما رحل الحارس شعر الأحدب، رغم الظلام، أن ثمة ابتسامة تعلو وجوه المساجين، لم يفهم السر. والسر لم يطُلْ؛ إذ بدأ الجميع في اعتلاء بعضهم البعض وتعالت صيحاتهم وآهاتهم وزئيرهم، كانت لهم أصوات حيوانات، يراهم في العتمة برؤوس كلاب أو أُسود أو ضباع أو فئران. في السجن ليس أمامك خيارات كثيرة: إما تكون الفاعل أو المفعول به. وفي الحالتين عندما تخرج من العنبر، وقت الراحة، سيعتليك الحراس ويصفعون مؤخرتك وينعتونك بالعاهرة. كان سجنًا غريبًا جدًّا أو هي ذاكرة الحُمَّى.

ومضت الصور: مطاردة للفئران، للبق، للبراغيث الصغيرة. وجدران كُتب عليها الأيام، الأحلام، الذكريات. ولم يكتب الأحدب شيئًا، كان يريد هذا النسيان الأسود. في العتمة تفقد كل شيء، تصير شبحًا بعينين غويطتين وباهتتين. حين يأتي وقت الراحة لا يذهب إلى المكتبة أو الملعب ولا ينشر البطاطين مع المساجين، يتركها على وساختها، ويصير جسده ملاذًا للحشرات. تظل فكرة الهروب من السجن هي أعظم الأحلام. فماذا لو صارت الحياة بأكملها سجنًا كبيرًا؟ تلوح في المدى فكرة الانعتاق. هل تصير أرواحنا طيورًا بعد الموت أم هواء؟ يسمع همسات بعض المساجين، يثقون في بعضهم البعض. يقولون بعقل مختلٍّ «سنهرب»، ويبدأون بالتخطيط. يقولون «سنبدأ بالحفر أسفل هذا الفراش»، ولماذا أسفل هذا الفراش تحديدًا؟ لا يعرفون. يسأل أحدهم «كيف سنحفر؟» فيُجيب آخر «بهذه الملعقة»، وتلمع أعينهم جميعًا. يبدأون بالحفر بالملعقة الصغيرة وأظافرهم، فتنجرح أياديهم وأحلامهم.

في ٢٩ يناير، هرب مساجين أبو زعبل والمرج. عرف مساجين وادي النطرون هذه الأخبار من الهواتف التي يهرّبونها في مؤخراتهم. كانت عادة الأخبار التي تأتيهم من الخارج يكون لها رائحة الخراء، أما رائحة هذا الخبر فكانت مختلفة. التلفاز والجرائد ممنوعة بأمر المأمور لكنهم عرفوا كل ما يدور بالخارج. القاهرة ملأى بالجثث في كل مكان، جثث مفقودة في النيل ودماء تملأ الأرصفة والأسفلت وبنايات وسط البلد، ولم يستطيعوا أن يعرفوا بالضبط كيفية الهروب من السجن، ذلك الحلم الذي استطاع إخوتهم تنفيذه، وفي تلك المعمعة صاح أحدهم بحماس مجنون «سنعاود المحاولة!». وأخرج الملعقة. لم يكن الأحدب يُبالي بكل هذا، بم يفيد الخروج

من هنا؟ لم يجد سببًا واحدًا. الشمس هناك، والشمس عدوَّة لهم، ضوءُها يؤذي الأعين والقلوب، قلوب تمشي عليها الجميلات وتهرسها ولا تُبالي. ما الحرية وأنت مقيَّد بهذا الحدب الجاثم فوق ظهرك؟ ثقيل جدًّا ويَحول بينك وبين الطيران. وكان يسمع همسات المساجين وهم يرددون «سنهرب غدًا»، ولا يفهم لماذا هذا اليقين. يقولون «سنقتل كل السجانين». فجأة يصيرون أُناسًا طيبين جدًّا. تشتعل الثورة فيهم وتُطهِّرهم، وفي صباح الغد تتحقق أحلامهم. يستيقظ على صيحات لا يعرف مصدرها. «اهرب. عد إلى بيتك». لا يعرف من القائل. يفكر في البقاء. العالم بالخارج مفزع جدًّا وجميل. أو هو جميل حدَّ الفزع. الجميع يهربون من السجن وهو يهرب من الشمس المشرقة. أناس يحملون أسلحة في كل مكان ويهددونهم بالقتل إن مكثوا. يهمس أحد المساجين «الشرطة!»، وآخر يرد هامسًا «بل البدو». يغادرون أسوار السجن من خرم كبير. لا حارس هنا ولا سجَّان. يشعر بالفزع أكثر. السجَّان كان رحيمًا بهم مثل أم، يُطعمهم ويُعاقبهم كي يصيروا أجمل. السجَّان عارٍ مثل حيوان بدائي ذي خصية كبيرة، والحياة مثل الغاب، والغاب قلب الطبيعة، والطبيعة عادلة جدًّا، الطبيعة ظالمة جدًّا. ما هذا الحدب النائم فوق ظهرك؟ يمشي مبتعدًا أكثر ويسمع أحد الهاربين يعدُّ خطوَه فوق الرمل «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة». يظل هكذا فلا يصدمه جدار. يسقط آخر على الأرض من شدة الضحك، ويشخر دون قصد، مشيرًا إلى خرم السور «ملعقة كبيرة!».

قبل هذا اليوم، كان اللواء البطران يصيح في الهاتف «نيرون يحرق مصر!». وبعدها سافر لمحاولة إخماد هروب من سجن القطا، ونجح في ذلك، ومات برصاصة طائشة من برج حراسة، أو برصاصة متعمَّدة وفقًا لأقوال المساجين. هذه الأشياء عرفها الأحدب من التلفاز بعدما اختبأ في بيت أم علاء. المرأة السمينة عرفت منذ الوهلة الأولى من يكون، ولم تُبال. وافقت أن يأخذ حجرة البدروم للسكن فيها، ولم تأخذ ثمنًا لها. كانت تعرف جيدًا ما تريد. ابنها الهارب لم يعد رغم اختباء رجال الشرطة في منازلهم، لأن تجار الحشيش لن يرحموه. وها قد صار الله رحيمًا بها وحباها بابن جديد. مجرم ربما، ولكن يحتاج إلى سكن وحضن يتسع لهذا العالم. وهي تملك هذا الحضن الكافي لتغفر للعالم خطاياه، وللعالم خطايا كثيرة وبلاوى، فلماذا لا نكون سيئين بقدر هذا العالم، ولماذا نختار أن ننجو بطفولتنا!

(٤) عين حورس

قطعة مفقودة أو قطعتان، كل يوم، كانت كاتي لا تراها. في البدء اختفى الجرامافون، وتلاه المذياع، والبيانو، والفازة القديمة المنقوش عليها هيباتيا وسور مكتبة الإسكندرية. ولم تسلم سفينة ألكسندر التي تحبها أمها من هذا المصير، السفينة الصغيرة التي بناها نجَّات يوناني مُسِنّ كان صديقًا لهم ولـشاعر يوناني يُدعى «كفافيس». توقف النجَّات عن الخلق واللهو بعد موت كفافيس، بعدما أقام تمثالًا رديئًا -بقدر ما يملك من موهبة- لتخليده. وظل يردد قصائده في كل مكان، يجلس على أريكتهم ويأخذ نفسًا عميقًا من لُفافة تبغ قبل أن يقول بصوت موجوع:

أنت لن تجد أرضًا جديدة
ولا بحرًا جديدًا
ستُلاحقك هذه المدينة دومًا
ستسكنُ في نفس الشوارع
ويشيب شعرُ رأسك في نفس المنازل
سوف تنتهي هنا دائمًا
انسَ أيَّ مكان آخر
فأنتَ لا تملكُ سفينةً ولا طريقًا
والحياة التي ضيَّعتها هنا
ضيَّعتها في أي مكان آخر.

لم تنشغل كثيرًا بالأشياء المفقودة. تطمئن حين ترى أمها جالسة في الركن، أمام ماكينة الخياطة، وقد صارت قطعة فنية من أثاث المنزل. أحيانًا يهاجمها النوم فتغفو على هذه الحال، تطفئ الصغيرة المصباح لها وتتركها هكذا. لم تقترب منها بالقدر الكافي لتعد خطوط تجاعيدها، كل يوم يظهر خط جديد ويقصر من كف يدها خط. عيناها تبهتان وتغوصان للداخل، تظهر هالات لها لون زيت سيارة محروق.

ولم تلحظ الصغيرة أن ساعة الحائط المخادعة قد توقفت عقاربها، لكن الزمن يمضي. يبدو جليًّا في تجاعيد أمها وروحها التي صارت أثقل. أما هي فقد استدار نهداها وخصرها، صار لها ثلاثة عشر عامًا. خمس سنوات مضت على اختفاء أبيها. انتهت الحرب بالنسبة لها سنة ١٩٤٢ بعد انتهاء الغارات الجوية وفشل الإيطاليين في دخول الإسكندرية، وبالنسبة للكبار انتهت مع موت هتلر، ومع موت هتلر ماتت أمنيات البعض بتحرير مصر على يد الألمان. كل هذا لم يكن يشغلها، كان يهمها فقط أنها صارت تستطيع أن تفتح نافذة غرفتها والمصباح مُضاء، وتنزل إلى الشارع صباحًا لتمشي على البحر دون أن تُلقي الأمواج إليها جثة رجل مجهول. أمها منشغلة في ماكينة الخياطة، والديون، وأخيها السكِّير الذي يُدير محل القماش المملوك لزوجها المختفي. لا تمنع ابنتها من النزول. يدق أحدهم الباب فتنادي على صغيرتها فلا ترد. تنهض متثاقلةً ولما تفتح الباب تجد مظروفًا مُلقًى على الأرض يحتوي على جنيهين. تنزل الدرج لتبحث عن جندِيّها المجهول فلا تجده، فتنظر إلى السماء بامتنان وتشكر المسيح على هداياه الكثيرة الرحيمة بها وصغيرتها في هذه الأيام الصعبة.

مشت كاتي في شارع العطارين شاردة، الشارع مزدحم بسيارة وعربة كارو وحنطورين وبعض من المارة، ستعيش طويلًا حتى ترى زحام الإسكندرية المفزع فتحنُّ إلى تلك الأيام الهادئة. كانت تدندن أغنية لأسمهان وهي تركب الترام، موسيقاها حلوة، وترد الروح. شعرت بالحزن لما تذكرت نهايتها المؤسفة فدعت لها بالسَّكينة. انطلق بها الترام مارًّا بميدان الساعة، بكرموز، حتى وصل بها إلى عمود السواري. وفي ذلك الشارع الفارغ مشت جوار امرأتين ترتديان البرقع وتنظران إليها بسعادة. اعتادت المرأتان رؤيتها ورغم هذا ظلَّتا على تساؤلهما «ماذا تفعل الخواجاية الصغيرة هنا؟»، ربما تُصلي أمام عمود السواري لجدِّها الإمبراطور «دقلديانوس»، لكنها تبدو أصغر من إدراك التاريخ. تقف هنا قليلًا ثم تعود، ستقترب هذه المرة من غايتها. هناك خلف عمود السواري يمتد جبل كوم الشقافة. تتجاوز تل باب سدرة ومدافن العمود حتى يلوح الجبل والمقبرة الأثرية التي اكتشفوها أخيرًا، بعد سقوط حمار فيها. تضحك وتقترب من المكان. تسمع غناء بلغة غريبة وموسيقى طبل جميل. تهز رأسها مع الفتيات النوبيات اللاتي يرقصن وهن يبتسمن لها. أمام الخيام يجلس أناس لهم بشرة سمراء طيبة. يبتسمون لها، تبتسم لهم، ابتسامتهم حلوة. رائحة بخور تشدها إلى المجهول. تسألهم عن خيام الغجر فيشيرون أن تُكمل المسير، حتى آخر الجبل، وهناك ترى ساحرها الذي ينتفض ما إن يراها ويسير بعيدًا، تقف وحدها وعيناها تلمعان من شدة الحزن. بعد يومين ستأتي ويراها غجريُّها فيُلقي تعويذة من دخان ويتلاشى. ولن تيأس، ستأتي مرة ثالثة فيعدو وتطارده حتى المقبرة الأثرية ويدخلها. لن يراه الغفير الجالس أمام الشيشة. تخمن أن تعاويذه هي السبب. وتقف لتلتقط أنفاسها وهي تنظر إلى تلك المقبرة الغريبة قبل أن تخطو بداخلها. المقبرة محفورة تحت الأرض على هيئة شوارع أرضية، وعلى الجانبين توجد مقابر محفورة في الجدران. تنزل كاتي درجات حلزونية وهي تتأمل الجدران حتى تصل إلى الطابق الثاني، ترى بهوًا وحجرة دائرية. للبهو واجهة رومانية في جزئها الأعلى، بشكل مقوَّس، تعلوها زخرفة يونانية على شكل أسنان، ومن الأسفل إفريز فرعوني يحتوي قرص الشمس المجنَّح، بين صقرين يُحلِّقان عاليًا. على جانبي حجرة الدفن ترى نقوشًا تبدو كصلاة لطرد الشر والشياطين. تسمع همسات بلغة غريبة حولها، تدور حول ذاتها وتعجز عن معرفة مصدر الصوت. تشعر بحُمّى تنتابها. تتعرق. يتسلل البرد إلى روحها وأطرافها. تكاد تسقط والكلمات تعلو بها. تشعر أنها تفهمها، رغم لغتها الغريبة، تبدو سهلة فجأة. تتضح مخارج حروفها ومعاني كلماتها. والظلام يرقص بها. الظلام عدو الإنسان الأزلي، وعدوها منذ طفولتها.

في عين حورس ينهزم أعداؤك
وأعداؤك جزء منكِ
يا ابنة رع
دعي الظلال تنهشك كالطير
قبل الخروج نهارا
وراء الشمس
في بحر نون تولد الآلهة
وتستعيد الأشياء شكلها وذاكرتها الأولى
ذاكرتكِ جعران ميت
فدعي الريح تنهشك

سلِّمي رفاتكِ للهواء
كانت هذه آخر الكلمات التي سمعتها قبل أن تدور الدنيا بها أكثر وتغرق في العماء.
رأس ميدوسا
فتحت عينيها، وجدت نفسها مُستلقيةً على ذراع غجريّها، غاصت عيناها في العينين العسليتين وهما تلمعان بأشعة رع الذهبية التي تنعكس من الجدران. ولا شمس هنا غير شمس قلبها. قلبها جمرة مشتعلة. بركان ينفجر بألوان جميلة. وقعت عيناها من ورائه على رأس ميدوسا، تلك الشيطانة التي تسكن الثعابين رأسها، في كل خصلة من شعرها ثعبان جائع. إذا وقعت عيناها على إنسيٍّ تحوَّل إلى حجر، ولم تخشاها وظلَّت ترمقها طويلًا.
وللحظاتٍ طويلة ظلوا هكذا، تمثالين حجريين، هي نائمة في حجره وهو ينظر إليها كإنسان بدائي. صدرها يعلو ويهبط مع كل نفس، على العكس منها صدره. ينظر إليها في حزن غريب. تبدأ عيناها بالترقُّق والدمع وتبدأ عيناه باللمعان وهو يحاول أن يسجن أسرارها. تحرّك يدها أخيرًا، تلمس أهداب ساحرها الطويلة، وتنزل بها برِقَّة على خدِّه، تقول «لماذا تهرب مني؟»، يرتعش جسده. يُمسك يدها ويضعها على فمه ويقبّلها، ثم يفتحها ككتاب ويقول بحزن «لأن السطور مائلة يا صغيرتي». ويشير إلى خطوط كفها. تنظر إلى كفها باندهاش ولا تنطق، يظل يردد بشرود «هنا، انظري جيدًا، وهنا أيضًا». تسقط دموعهما في كفها، لتكون بُحيرة صغيرة من الملح. ترفض وتقول «أنت تكذب».
يهرب خارج المقبرة. تعود صيحات التماثيل من حولها، تمتزج التعاويذ ببعضها. تضع كاتي يدها على أذنها وتعدو إلى الخارج. وهناك ترى الظلام يوشك أن يحل. وهناك تراه للمرة الأولى: ظِلها الذي يطاردها في كل مكان دون أن تراه، يقف مبتسمًا أمام المقبرة وممسكًا وردة حمراء.
أزرار تلك البدلة

ابن العطار المولَع بالوصفات الشعبية والتوابل الملوَّنة والروائح الغريبة كاد أن يُدهَس عصر ذلك اليوم، والسبب عينا كاتي الباردتان. مشى وراءها يعبر الشارع مسحورًا. وسائق العربة فوجئ بالطفل في منتصف الشارع، هرس الفرامل هرسًا. توقفت العربة على بُعد خطوة من جسده النحيل مصدرةً صوتًا مزعجًا، لم ينزعج الصغير. التفت إلى مقدمة العربة اللوري الضخمة بابتسامة بلهاء. ترجَّل من العربة ضابط برتبة رائد. نزل ليطمئن على الصغير الذي ظل مبتسمًا سعيدًا يلهو بأزرار البدلة. لم تلبث أن تحركت العربة في طريقها للملك فاروق في المنتزه، لعرض بعض التحف العسكرية التي تحملها من المتحف. وبالطبع لم يخمِّن الصغير أن هذا الرجل الذي رآه سيصير أول رئيس جمهورية لهذا البلد، سيتذكر هذا حين ينضم إلى الضباط الأحرار بعد أن يقرأ المنشور الأول لهم في أكتوبر ١٩٥٠:
«إن الضباط جزء لا يتجزأ من الشعب، وإذا كان الشعب يُحكم حكمًا ملكيًّا مستبدًّا، فإن الجيش هو الآخر يخضع لنفس الظروف منذ سيق إلى مجزرة فلسطين، دون رأي ودون استعداد، وفرضت عليه الخطط الفاسدة والأسلحة الفاسدة».
وسيشهد محاصرة الملك في رأس التين تحت قيادة القائم مقام أحمد شوقي، والبكباشي يوسف صديق، والبكباشي حسين الشافعي، والبكباشي عبد المنعم أمين. كان ابن العطار المغرم بعينين

زرقاوين يُدعَى صلاح، برتبة ملازم أول، ضمن القوات البحرية التي تقوم بدوريات مستمرة وهي تحاصر القصر، بجانب الطائرات والمشاة.
كل هذه الأشياء سيتذكرها فيما بعد، لكن ذلك اليوم سيمُر بشكل عادي، على الأقل من طرف الرائد محمد نجيب الذي سيقابل الملك للمرة الأولى ويراه مرتديًا المايوه، ويراه مجرد طفل يحكم دولة كبيرة. ومن طرف كاتي التي ستتابع لعبتها مع صديقتها. وسيظل جرحًا في صدر ابن العطار.
سينزل إلى الشارع في اليوم التالي مرتديًا بدلة عسكرية، اشتراها والده بعد إلحاح طويل. يعبر الطريق متأنقًا لتراه الصغيرة كاتي، فلا تراه. ستظل تلعب السيجا مع صديقتها. سيظل واقفًا أمامها مختالًا حتى يغضب، يشتعل مثل النار، وينطفئ من عينيها. يُخرج المسدس الصغير ويحاول أن يطلق النيران عليها، فيعجز. يسقط من يده المسدس ويبكي. يا لهذا العجز! ينكمش في الظل، وهي لا تزال ترقص.
لا زال يذكر يوم مولدها. الجارة الصامتة التي لم يسمع لها أحد صوتًا، ملأت الدنيا ضجيجًا بعد منتصف الليل. لم يستطع الرفض لما قال والده «خذ أمك وجارتنا إلى هناك». كانت المرأتان جاهزتين والعباءة السوداء ملفوفة جيدًا حول خصرهما. ونزل الدرج والمرأتان تهرولان والظلام حالك جدًّا. الظلام الحالك لم يوحِ للصغير بطاقةِ النور التي ستخرج للدنيا. غابت المرأتان في الغرفة المغلقة وظلَّ الصغير وحده. يفكر أين زوج تلك المرأة؟ الرجل الإيطالي ذو الشعر الأسود الكثيف. لم يعرف أن الرجل عبد للخمر، ففي تلك الليلة ظل سكرانًا في البار. وظل الصغير يقاوم النوم حتى سمع بكاء تلك الوليدة، كان بكاؤها مزعجًا. شعر بالراحة لما سمع بكاءها، إذ إن الزغاريد ملأت البيت فجأة. ولما دخل الغرفة أخيرًا طلب أن يرى ذلك المخلوق الضئيل الذي أيقظ الحارة وأزعجها، ولما رآها قطعة لحم صغيرة أشفق عليها. وطلب أن يحملها. سألهم بلهفة «ما اسمها؟». فقالت أمها «سأدعوها كاتي». وردَّد وراءها مسحورًا «كاتي». ولمس أصابع يدها الصغيرة سعيدًا.
على هذه الحال ظل صلاح سنوات كثيرة، لا يفعل شيئًا في الدنيا غير مراقبة تلك الطفلة من النافذة. فإذا نزلت إلى الشارع نزل وراءها وراقبها كظلِّها، وهي تأكل الجيلاتي، وتشرب الماء، وتشتري غزل البنات، تعدو بفستانها القصير، تجلس على الدرج وحيدة. تمنى لو يعرف سر حزنها، ولم يقترب خشية أن يحترق.
كان يقترب فقط حين تبدأ الغارات. عندما يعلو صوت السارينة ويتصايح الناس «غاااارة» ويطفئون المصابيح، يجرون إلى المخابئ. ينتهز هذه الفرصة ويقترب منها. تمسك أمها بيدها اليُسرى وتمتد يده للإمساك بالأخرى. لا تعرف لمن هذه اليد فتُذعَر، تشدها فيقبض عليها أكثر، تشدها أكثر فيضغط عليها ويؤلمها. تصيح فلا تسمع أمها صيحتها وسط الزحام، وتنجح أخيرًا في انتزاع يدها. وفي الصباح تنسى. وحين ترن السارينة في المساء ويتصايح الناس «غاااارة»، تتذكر تلك اليد وتخشاها أكثر من هتلر والظلام.
جسدها يُثمر، وثمرتاها الصغيرتان تنضجان، يشم منها رائحة فاكهة لم يعرفها. راقبها ورآها تذهب باستمرار إلى بلاد الغجر، تطارد غجريَّها الذي يهرب منها كل مرة. وعندما خرجت من مقبرة كوم الشُّقافة في ذلك اليوم وجدت أمامها رجلًا غريبًا حزينًا ينتظرها، يرتدي بدلة بحرية ويُمسك وردة حمراء. كان حزينًا جدًّا، يتوسَّلها بنظرة طفل بائس. لم تعرف ماذا عليها أن تفعل. أحسَّت بالحزن الشديد تجاه تلك الوردة التي ستموت هباءً. وجرت هاربة في طريقها إلى الترام،

طاردها، ناداها، لم تتوقف. أراد أن يخبرها «لقد رأيت طاقة النور تلك الليلة، ولم أستطعْ النوم». لكنها عدت مع الريح، وفستانها يتطاير وراءها، وهو يموت هناك في الظل.
غير أن الأمور تغيَّرت، إذ نجح الضباط الأحرار في مسعاهم، طردوا الملك وعرف الناس أن دور الإنجليز قادم. ووجد الفلاحون أحلامهم تتحقق في قانون الإصلاح الزراعي، وظل السياسيون يطالبون بعودة دستور ٢٣. وكاتي ظلَّت تطارد غجريَّها الذي لم تره سوى مرة واحدة قال لها فيها «ستلدين طفلًا أسمر». ولم يترك أثرًا. وظل عاشقها البائس يطاردها. وبدأ أحد الضباط الأحرار بمطاردة ناهد رشاد زوجة طبيب الملك، وقام آخر بالاستيلاء على قصر بجاردن سيتي ليكون قريبًا من إحدى الأميرات التي يعشق. أيام صعبة امتزج فيها العشق بالسجن. لم تعرف كاتي أن الأيام صعبة إلا حين ماتت أمها سنة ١٩٥٤ وتركتها مُحاصَرَة بالديون التي لم تستطع سدادها. هرب خالها بما يملك من مال، وبيع بيتها في المزاد. وقرر عاشقها البائس مساعدتها فأسكنها شقة بمحطة الرمل. ووافقت بشرط واحد. وانصاع إلى شرطها. لم يستطع الوصول إلى قلبها، ولم يسمح لآخر بالنجاح فيما فشل، وظل الوضع على هذا الحال حتى مات مريضًا بسرطان الرئة عن عُمر الثالثة والخمسين، في ليلة ميلاد نجم الدين.
ضباط أحرار
لا تحب ذلك الطائر. عندما علَّق والدها رُتبة رائد في ذلك اليوم لم تفهم لماذا فرح كثيرًا. بحثت في الكتب فوجدت أن النسر طائر خسيس، لا يأكل سوى جيف الحيوانات، وشعرت بالتقزُّز من والدها. فلم يكتف بمعاداة قطتها الصغيرة فقط بل عادى نافذتها. كانت ثلاث نجمات يؤنسن وحدتها في الليل، سرقها والدها ووضعها على كتفيه. في البداية أصدر أمرًا عسكريًّا ألَّا تفتح هذه النافذة. وبعقلية لا تترك شيئًا للصدفة ذهب إلى جاره وقال أن جيل الشباب طائش وسيء الذوق الموسيقيّ. وأردف بلهجة مُهذَّبة «لو كان صوت أم كلثوم ما حزنت». ومن يومها انقطعت أغنيات حميد الشاعري التي كانت تؤنسها من نافذة ابن الجيران.
وبهذه السهولة انتهى كل شيء، بالنسبة لابن الجيران، أما بالنسبة لها فقد بدأ. لم تكن تتوقع أن هذه الأغنيات قد تعني أي شيء، ولم تعرف هل كان يحبها ذلك الشاب فعلًا أم أن والدها أساء الظن. لو لم يلفت والدها انتباهها ما أزعجها الحب. لكنها ظلت تنتظر أن يتحدى ابن الجيران والدها بأغنية هذا المساء.
الأغنيات لم تعد. ولأمسيات عديدة ظلَّت تنتظرها. شعرت أنها بلا قيمة فانتابها بكاء. ودون أن تشعر كرهت ذلك الشاب الذي خذل قلبها، وقررت أن تنتقم بطريقة ما. استيقظت من ذكرياتها على صوت سائق التاكسي وهو يقول «الشوارع خطرة». أومأت برأسها موافقة. رغم أنه لم يتبق في عُمر والدها سوى بضعة أنفاس، لم تنس أن تُلقي نظرة على التلفاز. وكان ثمة حرب شوارع واشتباكات بين المتظاهرين ورجال الأمن، الذين بدأوا بتصفيتهم بصواعق الكهرباء والرصاص المطاطي والخرطوش والفسفور الكيماوي والغازات السامة. والمتظاهرون يردون بالحجارة والألعاب النارية. ورغم كل الجثث التي نقلها التلفاز وهي تلقى في صناديق القمامة فإن وزير الداخلية نفى استخدام أي عنف. ولم تفهم سالي شيئًا. كان المتظاهرون يطالبون بسرعة نقل السلطة من المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلى رئيس وحكومة مدنية. ظهر المشير طنطاوي يؤكد أن: «القوات المسلحة لا ترغب في الحكم وأنها على استعداد لتسليم السلطة فورا إذا وافق الشعب المصري على ذلك في استفتاء شعبي». تمثل الرد في أغنية الشيخ إمام..

يا شعب ثور داهية تسمك
وشيل أصول أسباب همك
عصابة بتمص في دمك
والاسم قال ضباط أحرار
شقَع بقَع يا ديل الفار
وسالي مشغولة مع ذكرياتها. تذكُر والدها الضخم الذي ضعُف مع الأيام ونحُل جسدُه، ومكالمة أمها لها منذ دقائق «سالي، تعالي، والدك يموت الآن». قالتها بلهجة باردة. وعادت سالي بذاكرتها إلى ابن الجيران الذي خذلها فلم يعشقها، والحظ الذي خانها عندما سافر إلى الخليج دون أن تنتقم. واليوم والدها على وشك الرحيل ولم تنتقم ولم تغفر ما فعل بها وبقطَّتِها سالي الصغيرة المسكينة. وجدتها نائمة أسفل فراشها، وفرحت

بعودتها. ظنت أن القطة تريد مفاجأتها فاختبأت هنا، ففضحها ذيلها، اقتربت منها، شدَّتها إليها فوقعت إلى الوراء، وذُعرت حين وجدت الذيل المقطوع وحده في يدها ظلَّت تصرخ والدم يلوِّث قميصها الأبيض. تجري أمها، تحتضنها، ترى الذيل، وتصرخان معًا. تمد يدها فتُفاجأ بأشياء أخرى مثل: أذن القطة، قدمها، أنفها، رقبتها. وأشياء أخرى كثيرة جعلتهما تبكيان ولا تتوقفان عن الارتعاش.
كان العميد السابق شمس الدين يرى في هذه اللحظة عالمًا آخر، بوابة كبيرة بُنيَّة، تنفتح على مصراعيها فتتجلَّى من ورائها ألسنة نيران بطول الشجر والنخيل، وعرف أنها الجحيم الذي ينتظره. ولم يكن هذا هو الجحيم الذي رآه «علي»، الأسمر، عندما نزل من عربة الترحيلات مع المستجدِّين وإنما كانت محض صحراء بلا نخيل أو شجر. الشمس تجلدهم، والوحدة العسكرية في أسوان. قال علي لمن يجاوره «أعتقد أننا متنا، وبعثنا، وحاسبنا الله، وهذه الحياة العسكرية هي جهنم». رأى أول ما نزل من العربة جنودًا قَدامَى يرتدون الأفرول الزراعي ويطاردون حية الطريشة، يتقافزون كلما حاولت أن تلدغ أحدهم، يتصايحون بشجاعة. تنجح في الهروب أسفل تل الحجارة المكوَّمة عند خزان المياه. ضحك وقال لمن يجاوره «نحن أذكياء جدًّا، أفرول زراعي، في أرض صحراوية». ورآه الصول زيدان يضحك فقال «تعال». وتقدم علي من الصول الذي أمره «ارقد». فابتسم علي وهز رأسه أن «لا». واشتاط الصول أكثر وأمر باقي الجنود أن يرقدوا جميعًا، فرقدوا ما عدا علي. وأمرهم أن يزحفوا فزحفوا، ثم قال «ستة استعد» فاتخذوا وضع تمرين الضغط، وأثناء ذلك أمرهم مجددًا «تسعة استعد» فجلسوا في وضع التبرز، وقال مُسرعًا «سريعًا مارش يا أولاد الزواني». فظلوا يتقافزون كالأرانب. ثم عاد وقال «ارقد»، فرقدوا، و»انتباه»، و»ارقد»، و»انتباه»، وظلوا هكذا يرقدون ويقفون سريعًا حتى سمعوا فقرات ظهورهم تطقطق، بعدها نظر الصول إلى الجندي المتمرد فرآه لا يزال مبتسمًا ببلاهة.
كان أسوأ تكدير هو «نزح الطرنش»، وبالنسبة إلى علي كان هذا رائعًا. وقف أمام الصول بالشورت وممسكًا بجردل لينزح الطرنش، وابتسم ابتسامة كبيرة وقفز في الخراء. تعامل مع الأمر كأن هذا هو النيل، ظل يسبح في الطرنش وينزح الخراء بالجردل. ينظر إلى الصول زيدان مبتسمًا أثناء العمل فيصرخ الصول الأسود ويقول «لماذا تبتسم؟»، وكان الصول أسود القلب، معروفًا باسم «الرجل العرص»، ولا يُغضبه سوى أن يرى في الوحدة من يبتسم. وقرر أن هذا

الجندي لن يكسره سوى قائد اللواء، العميد شمس الدين، شخصيًّا. وكان العميد خارج الوحدة، لهذا ظلَّ الصول يكدر الشاب المبتسم بشتى الطرق حتى حلَّ المساء. وعند العاشرة ذهب الجنود للنوم في الميعاد الرسمي، وكذلك الصول زيدان، وظل علي مُكَدَّرًا وحده أسفل ضوء القمر. وكان القمر كبيرًا وأبيض ولهذا شعر الشاب بالتفاؤل. وظل يُردد بصوت عال:

أنا لستُ أُحسَبُ بين فرسان الزمان

إن عُدَّ فرسانُ الزمان

ولم يكن الشاب وحده، فهناك الشاويش كمال الذي يمر على الخدمات ويطمئن أن الشاب لا يزال مكدرًا وفقًا لأوامر الصول زيدان. ولما مر الشاويش كمال فوجئ بالشاب نائمًا نهره وأمره بالنهوض فقال الجندي بصوت نعسان «اتركيني أنام يا أمي ولا تخبري أبي». وابتسم الشاويش مشفقًا على حال الجندي الذي لم يأكل لقمة واحدة منذ الصباح. وكان الشاويش يكره الحياة العسكرية بكل ما فيها، ولا يستطيع أن يتحدَّاها، لذا ركل الجندي النائم وصاح «استيقظ أيها الغبي. هل تظن أنك ستهزم الجيش بطفولتك؟»، واستيقظ الجندي غاضبًا وكاد يتشاجر مع الشاويش لولا أن الأخير قال بصوت هامس مذعور «في هذه الحياة لا توجد سوى قاعدة واحدة: إن كان سيدك أعمى فلماذا تريده أن يبصر؟».

رغم أن نصيحة الشاويش كانت هي أن يعتذر للصول زيدان في طابور اللياقة، رفض الشاب وقرر أن يعود للنوم أمام دهشة الشاويش. ولم يجد الشاويش حلًّا آخر أمام ذلك المجنون سوى أن يرجوه «إن نمت ستؤذيني. أرجوك». وشعر علي بالشفقة نحو الرجل وقرر أن يظل واقفًا يقظًا حتى الصباح. وقُبيل الفجر رأى بعض الجنود يمرون ويتهامسون «أبو جبل»، ويشيرون نحو الجبل، ولم يفهم ماذا يقصدون. سألهم «ماذا هناك؟»، فاقترب أحدهم وقال «أبو جبل عاد «. سألهم بنفاد صبر «ومن هو أبو جبل؟»، فقالوا «قرينك، ستراه قريبًا». وكان أبو جبل يُعد أسطورة بالنسبة للجنود، فهو فارع الطول، أسمر، ضمن كتيبة الإنذار المجاورة لهم. لم يُطِع أمرًا عسكريًّا واحدًا، وهرب مرتين من الكتيبة. ولما يرجع إلى الكتيبة يصافح الجنود والضباط ويذهب إلى السجن بنفس راضية. في المرة الأخيرة التي هرب فيها شرب سيجارة حشيش مع أحد أصدقائه وناما، واستيقظ صديقه في الصباح فلم يجده جواره. وجد فقط ورقة صغيرة مكتوب فيها «سرقتُ هاتفك، ونقودك، سامحني». وظلت هذه الحكاية هي أفضل وصف لمدى جنون الأسطورة المسماة أبو جبل.

بعد لحظات قصيرة رأى علي ذلك الظل الطويل الذي ينزل من قمة الجبل بخطًى متهوّرة، ويقفز من صخرة إلى أخرى، ولا يخشى السقوط. كان سهلًا على المرء أن يخمِّن هوية ذلك الظل الذي يصفر موسيقى غريبة ويُطلق صيحات غريبة. واقترب أبو جبل من علي الواقف، وحده، بعد منتصف الليل أمام ميز الضباط أسفل ضوء القمر. اقترب بسعادة غريبة وهو يتأمل علي المبتسم، وظل الاثنان هكذا يتأملان بعضهما كقردين يشاهدان المرآة للمرة الأولى. وتساءل أبو جبل «لماذا تطيع؟»، وكان السؤال صعبًا. فكَّر علي، وتذكر الشاويش كمال، قال «لأنني وعدت رجلًا». فابتسم أبو جبل مستنكرًا وردد وراءه «وعدت رجلًا!» ثم تابع «ويزعمون أنك خليفتي!». تراجع في الظلام، وقال بجنون موسيقيّ هامس «سيكسرونك يا فتى». وتبعها صوت غراب ينعق من مكان ما، وظل الغراب ينعق ولم يسكت.

في الصباح كانت الوحدة ممتلئة عن آخرها بالكتائب التابعة للواء وجنود الاحتياط، استعدادًا لمشروع الحرب. وبدأ اليوم بداية سيئة فقد دخل عقرب أسود إلى عنبر الجنود ولدغ اثنين كانا نائمين على الأرض قبل أن يقتلوه، حالة أحدهم سيئة جدًّا والآخر شُفي سريعًا وظل في العيادة الطبية للهروب من الميري الشاق، ورأوا حية طريشة أخرى. بدأ الجنود يهللون ويتصايحون ويطاردونها. الجو شديد الحرارة لذا لجأ الكثيرون إلى الكانتين والبيبسي. وبحث آخرون عن شجرة أو ظل فلم يجدوا مكانًا سوى بالقرب من ميز الضباط، قام الضباط بطردهم إلى الشمس. ولم يعتذر علي للصول زيدان الذي أخبر العميد شمس الدين بأمره فقال العميد ببساطة «لن ينجح مشروع الحرب في وجود جنود لا تُطيع قادتها، والقائد هو الأب يا زيدان». ومع ذلك رفض العميد أن يسجن الشاب وقال إن هذا عقاب سهل، واختار بدلًا من ذلك عقابًا بشعًا وهو أن يكون علي مسئولًا عن الكانتين. ولم يفهم علي ما السيء في الأمر، فهو على علاقة جيدة بالأرقام، ارتعب الجنود وقالوا «راح الفاشوش». وطوال فترة الكانتين لم يخطئ خطأ واحدًا، كل شيء كان مسجلًا في الدفاتر: البضائع والديون. وكان يَجرد كل حين. وكانت مهمة سهلة جدًّا رغم امتلاء اللواء بالكتائب وجنود الاحتياط ذوي الكروش. ورأى علي أبو جبل في الكانتين، وتعجب الجميع لأنه من المفترض أن يكون في السجن. وعرف علي أن أبو جبل أسطورة حقًّا، يعرف كل خبايا الجيش، ويستطيع الخروج من المشاكل الصعبة من خرم إبرة. وعندما رآه أبو جبل قال «سيكسرونك يا فتى». وشعر علي هذه المرة بالخوف والكره لهذه الأسطورة. وخاف أن يكون هو من يريد أن يكسره حتى يظل متربعًا على عرش الأساطير وحده.

لم تعد الابتسامة مرسومة على شفتي علي، كان محاصرًا بين الأرقام. وعلى النقيض ظل أبو جبل يضحك. قلق عليّ عندما سمع من الجنود القدامى أن أحدًا لم يخرج من الكانتين معافى، سألهم «ماذا تقصدون؟» فشتموه قائلين «أنت غبي». وفي المساء جاء الشاويش كمال إلى الكانتين ورأى علي يراجع كل شيء بقلق كبير: البضائع والأرقام. ويتشكك من كل شيء. خاصة بعدما خرج الجنديان الآخران من الكانتين بعد مهاتفتهما لواسطة كُبرى. ورماه الشاويش بنظرة مشفقة وقال في سره «أيها المسكين!» ولم يشرح. لم يشرح أحد شيئًا ما عدا أبو جبل الذي جاء سكرانًا بعد منتصف الليل وقال ضاحكًا «سيكسرونك يا فتى». وكان قد مرَّ شهر منذ تسلم الكانتين ومشروع الحرب يوشك على الانتهاء فسأله علي وقد نفد صبره «لم؟»، وبدأ أبو جبل يشرح ببساطة «لأنك ستخرج مُدانًا من هنا مهما فعلت. تركك صديقاك وستدفع العجز وحدك». فقال علي متعجبًا «ليس هناك عجز!». فضحك أبو جبل كثيرًا. وفي الصباح طلب الضابط المسئول عن الكانتين الدفاتر، وفي الظهيرة قال لعلي «عليك عجز عشرة آلاف جنيه. هل كنت تسرق؟»، وطلب علي أن يراجعا الدفاتر معًا وأصرَّ «ليس هناك عجز!»، أمره الضابط بالانصراف. وعرف علي حجم الهاوية التي وقع فيها. وجلس مع أبو جبل مكسورًا في الكانتين بعد العاشرة مساء وقال الأخير «ألم أقل لك؟» ولم يعرف بماذا يرد ففضَّل السكوت. وكان أبو جبل يرتدي فانلة بيضاء، فرأى آثار طلقة نارية في الكتف اليسرى، سأله «ما هذه؟»، فضحك أبو جبل «هذه رصاصة لم تقتلني». تعجب علي فحكى أبو جبل قصتها. «كنت أريد أن أشرح لهم شيئًا لم يفهموه في أيامي الأولى». وسأل علي عن هذا الشيء فأجاب أبو جبل «أن لا أحد يستطيع أن يكسرني». كانت قصة هذه الرصاصة غريبة جدًّا، فقد أطلقها أبو جبل عندما كان لا يزال مستجدًّا. «كنت أعرف أن الرصاصة التي لا تقتل

تزعج»، وانزعج عميد الكتيبة وانقلبت الدنيا، فقد كان مستقبلهم الوظيفي مهددًا إن مات. وتعجب علي من هذا الشيء. وقال بعينين لامعتين «هل تقصد أن موتي سيؤذي غيري؟» فأجاب أبو جبل «بالطبع. ستتوقف الترقيات وتتم محاكمة المسئولين. سيحاكمونك أنت أيضًا. سيدفنون جثتك ويعلقون زيك العسكري على شجرة ويطلقون النيران عليك، إن ثبتت إدانتك، لكنك ستكون ميتًا على أيِّ حال فلا تهتم».

واستمرت المفاوضات يومين آخرين، ظل الضابط مُصِرًّا على المبلغ الأول، عشرة آلاف جنيه. من أين يأتي بها، وأمه الفقيرة في سوهاج لا تجد ما يكفيها وأبناءها السبعة، ووالده موظف فقير. ظلت الفكرة التي قالها أبو جبل تومض بين الحين والآخر، ولما انتهت المفاوضات إلى اللا شيء وجد علي نفسه يبتسم. ظل يضحك وهو يصرخ في الصحراء «لكن قلبي قلب فارس. كره المنافق والجبان، مقدار ما عشق الحقيقة». وأحس أن ثمة أسطورة أخرى ستولد في الصحراء. أسطورة ستتجاوز أسطورة أبو جبل وتكون مُلهِمَة للعبيد الجدد القادمين. وفي صباح الجمعة مر العميد شمس الدين، أمام الكانتين، سعيدًا بنجاح مشروع الحرب، سمع فجأة انفجارًا مدويًا ورأى ذلك الشاب المشتعل بالنيران يرقص ويصرخ، ويجري بجنون في كل مكان، والجنود يجرون هاربين. كانت الصدمة كبيرة على القادة للحد الذي جعلهم يقفون متسمِّرين في أماكنهم والشاب تأكل النيران جسده. وظلت ألسنة النيران تعلو والعميد شمس الدين يراقبها، واقترب منها أكثر في هذه اللحظة، بالذات، بعدما طرده جسده ولفظ النفس الأخير. ووقفت سالي أمام جثمان والدها الراقد على الفراش وفي عينيها نظرة باردة.

علا صوت القرآن بـ «كل نفس ذائقة الموت». وأحست سالي بالراحة أخيرًا. أرادت أن تحتضن أمها وتقول لها بظفر «هنيئًا لكِ»، لكنها فضَّلت الصمت. وتذكَّرت فجأة نظرات سائق التاكسي إلى نهديها وشعرت بالغضب، تذكرت كذلك رجلها الذي لم يعد منذ ثلاثة أشهر، فدمعت عيناها وشعرت بالشفقة على نفسها.

مدينة العجائب

«السيدات والسادة.. أقدِّر شجاعتكم جدًّا.

أقدِّرها جدًّا جدًّا، ولن أُطيل عليكم...

كل ما سأقول هو أنكم وقعتم في الجحر.

والجحر جحر أرنب.. فيا لسخرية الحياة!

الحياة التي لا تظهر أبدًا على حقيقتها، لكنها تُخفي سرًّا.

تخيلوا... فتاة تقع في جحر أرنب ولما تنهض ترى هذا العالم الغريب.

ولما ترى هذا العالم الغريب يخفق قلبها بقوة وتلمع عيناها بالدهشة.

ولما تلمع عيناها بالدهشة ويخفق قلبها تعرف ماذا تعني «الحياة».

ماذا كان اسم هذه الفتاة؟ كان اسمها آليس.

وأنتم أيضًا أيها الشجعان هنا في السيرك الأوربي.

فمرحبًا بكم في مدينة العجائب».

كان الرجل الذي يمسك بالمايك، يقول هذه الكلمات بطريقة مثيرة، ويرتدي قبعة طويلة ويمسك عصا سحرية صغيرة. ونجم الدين كان جالسًا بين كاتي والغجري الأسمر ذاهلًا، شاردًا في

الأضواء التي تلعب في الخيمة الكبيرة. لم يتخيل أن يرى هذه الأشياء، فمع الفقرة الأولى ظهر الساحر وأخرج من جيب البدلة الأيسر منديلًا أحمر مجدولًا في منديل أزرق مجدولًا في آخر، وهكذا. فجأة تتحول هذه المناديل بطرقعة إصبع إلى حمام أبيض. يطير الحمام فوق رؤوس الجماهير الذين يقفزون ويصفقون بجنون. يردد الساحر كلمة «جلا جلا» ويطلب من الجمهور ترديدها، فينفجر الحمام فوق رؤوسهم إلى قنابل ألوان. يرفع الساحر القبعة للأعلى فإذا بأرنب يلوح من أسفلها على رأس الساحر، ولما يُنزلها ويرفعها لتحية الجمهور مجددًا يتلاشى الأرنب كأنه لم يكن؛ فتعلو صرخات الجمهور السَّكِرة والمنتشية. وبدأ الزمن يذوب بين الفقرات، إذ ظهر البلياتشو الذي رأى قبعة الساحر موضوعة فوق المائدة فأخذها ولبسها وانفجرت بعشرات المخلوقات من: ضفادع وأرانب وحمام. وحاول البلياتشو السيطرة على مجرى الأمور فلم يستطع. وعاد الساحر فوجد الخيمة في حالة فوضى عارمة. ونظر إلى الجمهور الذي ظل يصيح بجنون «جلا جلا»، وابتسم لهم وحياهم قبل أن يرفع العصا السحرية للأعلى ويردد «جلا جلا»، فتنفجر جميع هذه المخلوقات ولا يتبقى سوى البلياتشو الذي يتحول إلى ضفدع. ونجم الدين يصرخ ويصفق بانتشاء مجنون ويضرب قدميه بعضها ببعض. ويمشى البهلوان على الحبل ممسكًا بمظلة وآيس كريم من أجل الوصول إلى فتاة تقف بالأعلى في الجهة الأخرى، ولما يصل البهلوان تقفز الفتاة بالحبل إلى الجهة الأخرى وسط تصفيق الجمهور الحاد. ويبدأ البهلوان يطاردها وهو يمشي ببطء على الحبل، بينما تتأرجح هي بسهولة بالحبل إلى الجهة الأخرى. ووسط كل هذا يدخل الرجل ذو الساقين الطويلتين ليحمل البهلوان ليطاردها بسهولة، ويمسك بها فيصفق الجمهور كثيرًا. كانت الفقرات منظمة وكان خيال نجم الدين عشوائيًّا، يخلق من الألعاب ألعابًا أخرى. ورأى أجمل الفقرات هي التي تتعلق بالوحوش، الدب الذي يمشي مقلوبًا على يدين ويطارد كرة، والفيل الصغير الذي يمشي على جرادل مقلوبة دون أن يتعثر، والثعابين التي تطيع صوت الناي والطبل، والأسود التي تقف على قدمين كقطط مطيعة وتقفز في حلقة النار. ورغم كل هذا كان نجم الدين يشرد أحيانًا في رجل يجلس على بُعد عدة مقاعد منهم، الرجل هو تشارلي شابلن، يبتسم لنجم الدين ويلوّح بحركات غريبة، يلكز نجم الدين الغجري فينظر إلى حيث يشير ولا يرى أحدًا. يكون تشارلي في هذه اللحظة يربط حذاءه أو يبحث عن عُملة مفقودة، ولما ينظر الغجري للجهة الأخرى يعود تشارلي وينظر للصغير.

في صباح اليوم التالي، يذهب نجم الدين بصحبة الغجري إلى مدرسة سان مارك، لم يكن هناك عروض اليوم ولم يشعر الصغير برغبة في الذهاب. قالت كاتي «هناك ستعرف التعويذة التي تحبها»، ولم يفهم هل سيعمل هناك أم ماذا؟ صار عمره عشر سنوات. وبعد عرض الأمس ظل يصرخ «أريد أن أصبح لاعبًا في السيرك» ولم تستطع كاتي أن ترفض له طلبًا. لم يعد صغيرًا، يستطيع أن يلعب ويمرح ويموت في السيرك.

لا يزال يصدق كل ما رأى بالأمس. يصدق أن الكون ينقاد لنا حين ننطق بتعويذة سحرية لا يعرفها سوى قلة من الناس. وجده؛ هل كان يعرفها؟ بالطبع يعرفها. بهذه التعويذة قام بالكرامات والمعجزات وصار وليًّا. بهذه التعويذة تصير وليًّا أو... لاعبًا في السيرك. وظل نجم الدين يمشي في حديقة سان مارك مع الغجري وهو يتأمل عربات السيرك. المكان مُظلم. ما من أضواء ملوَّنة تجري بجنون في كل مكان، وكانت وجوه المهرجين شاحبة بعد إزالة المكياج من عليها، والأسود سجينة أقفاصها تأكل لحم حمير قذر.

وتوقع الغجري أن إصرار الصغير سيتلاشى ما إن يرى الكواليس، لكن عيني نجم الدين اتسعتا عندما رأى مدرب الأسود القوي وهو يمشي ممسكًا بسوط رفيع، والبلياتشو وهو يضع الباروكة الخضراء ويرسم بالمكياج ابتسامة سعيدة. وتشارلي شابلن ظل يلوح هناك ويرقص ويقفز فوق عصاه. مر الصغير أسفل قدمي الرجل الطويل، أمسك بهما، فوجئ أنهما خشبيتان، فابتسم بسعادة، وظلت عيناه تلمعان بامتنان إلى الغجري. رآه يُمسك بقبعة الساحر ويُدخل يده فيها فلا تُمسك أرنبًا أو ضفدعًا أو حمامة. تربت على ظهره يد، فيلتفت ليرى الساحر. رجل مُسِنّ أبله. يبتسم الساحر إلى الغجري ويقول كلامًا غريبًا فيرد الغجري باللغة ذاتها، والصغير بينهما لا يفهم شيئًا، قبل أن ينظر الساحر إلى الصغير قائلًا «Quieres ser un mago?». ينظر الصغير إلى الغجري ولا يعرف بماذا يرد فيترجم الغجري ما قال. يقفز الصغير كقرد «نعم أريد». يكرر الساحر الأسباني ما قاله فيفهم الصغير وحده، ويقول «سأكون ساحرًا عظيمًا».

(٥) الساحر الثاني

على صخرة جلس نجم الدين، مرتديًا عباءة زرقاء حاملًا مسبحة زرقاء. ورغم قطرات الدم التي تتساقط من رأسه فإن كل شيء كان مطمئنًا. استنشق رائحة بخور طيبة عرفها منذ زمن، ملأ صدره بها، وسمع صوت الجد عميقًا كصوت وحي مفقود. صوت يزلزل الروح ويرجُّها رجًّا. ورآه هناك، يتمايل يمينًا ويسارًا ويردد بعض الصلوات، ورأى ذلك الصغير الجالس أسفل قدمي الجد. فجأة يعلو صوت الجد أكثر. يتمسَّح الصغير بالقدمين ويتبرَّك بهما. «بسم الله، الساحر الأول، على غيره لا نعول». يا لها من صلاة لا يزال يذكر سحرها. يبتسم. يترك تلك الصخرة ويمشي. كان جرح رأسه لا يزال ينزف ومع هذا لم يُبال. رجمه أهل أبو الريش جميعًا. طاردوه حتى الجبل. لم يرحموه. كل هذا لأن نجم الدين ارتدى عباءة جده الزرقاء وابتسم لهم وقال «لقد حلَّت في جسدي الروح القدس». لم يفهموا ماذا يعني، لكنهم شعروا أن ثمة شُبهة تجديف فيما قال. هذا الشاب الصغير المُهرطق. ماذا يريد؟ ومن يكون الجد؟ نسوه تمامًا مثلما نسوا الليث. قال الشافعي «الليث أعلم من مالك لكن أهله لم يقوموا به». كان الليث غنيًّا جدًّا وظل الدراويش يتمسحون في نقوده. لم ينقلوا للرجل علمًا. كان عارفًا لكن أهل مصر قتلوه، كعادتهم، بالنسيان. واليوم نسوا الجد تمامًا ورجموا حفيده. «مدد يا حسين» هكذا قال نجم الدين وهو يمشي. وبدأ يصعد الجبل. الطريق شاق ووعر، وهو يمشي حافي القدمين. شوك وصخور صغيرة مُدبَّبة يدوس عليها وتنغرس في جلده، فلا يصرخ ولا يتألم. «مدد يا حسين. مدد». يشم رائحة عطور طيبة، مزيج حلو من القرنفل والعود والياسمين، فيتبعها. هل هي رائحة أبو الريش؟ البلدة التي عاد إليها بعد أكثر من عشر سنوات في الإسكندرية. كاتي، الغجري، الساحر الأسباني، وأيوب. كان الساحر الأسباني يعود كل عام إلى الإسكندرية من أجل السيرك، ولا يغادر قبل أن يكشف للصغير سرًّا جديدًا. أما أيوب فقد كان مضحكًا، سكران طوال الوقت. تذكر عندما عاد في تلك الليلة بعد منتصف الليل، يترنَّح من عمود إنارة إلى آخر، يتلو بعضًا من سورة مريم بصوت جميل مثل صوت الجد. وفي منتصف الآيات التي يتلوها يقفز فجأة عاليًا ويرقص في منتصف الشارع. ومن ورائه يرقص تشارلي شابلن بعصاه. يعلو القرآن المرتل بصوت أيوب على مقام «النهاوند»، تعلو زجاجة الخمر للأعلى ويتجرعها كلها. يزداد تشارلي جنونًا في الرقص من ورائه. ولم يتذكر نجم الدين لوالده شيئًا آخر سوى بعض المُشاجرات التي شارك فيها عندما كان دراويش سيدي جابر والنبي دانيال يأتون، حتى محطة الرمل، لينتقموا من ذلك السكِّير الذي لا يشرب الخمر سوى أمام مساجد الرحمن. وقد جذبت نجم الدين مقامات الدراويش وحضراتهم فداوم على حضورها. وفي إحدى المرات جاء أيوب سكران أمام مسجد النبي دانيال فثار جنون الدراويش، خرجوا من المسجد وانطلقوا ليطاردوا هذا العربيد، ويرجموه بالحجارة، والطماطم، وكل ما يقابلهم. ظل أيوب يقفز متفاديًا حجارتهم ما عدا ذلك الحجر الصغير الذي ألقاه نجم الدين، وأصاب رأس والده مباشرة، ونزف دماء كثيرة، أسرع العدو حتى اختفى تمامًا، التفَّ الدراويش حول نجم الدين، ربتوا على رأسه وقالوا «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى»، فابتسم الصغير فخورًا بما فعل، وبيد الله التي لامست يده وهما يلقيان الحجر معًا.

وبدأ يصعد الجبل، وهو يمزج رائحة البخور التي يشمها بروائح أخرى، مثل العطرية وإبر الراعي. ولم يكن يعرف أين يذهب. كان يعلم أنه لا بد من غار في هذا الجبل، لأن الله رحيم بالأنبياء، ولا مفر من الوحدة. وظل يتبع تلك الروائح وأحس أنها طيبة، كأنها روح من الله وريحان. وهناك رأى الغار أخيرًا، مظلمًا موحشًا، وسمع فحيح أفاعي يعلو من كل مكان، تجري زاحفةً على الأرض لتختبئ وتخرج من أسفل الصخور. وشعر أن هذا اختبار وابتلاء جديد. ولم يفكر في البحث عن غار آخر. كان السؤال هو «هل تحب الله أم تخاف الموت أكثر؟»، وابتسم نجم الدين للأفاعي. ورقد على بطنه، مثلها، وبدأ يُحاكي حركاتها الرشيقة والخفيفة. وتحوَّل إلى حيوان بدائي في معركة ضد الطبيعة، وأصدرت الأفاعي فحيحًا فأصدر فحيحًا أقوى. ظل كلٌّ منهما يختبر قوة وإصرار الآخر، حتى بدأت الأفاعي تلين وتستكين. لم يعد صوت فحيحها قويًّا، وحركتها صارت أبطأ. وتعالت في المكان رائحة نعناع برّي. وبدأت الأفاعي تهرب، وانقض نجم الدين على إحداها، والتهم رأسها ولم يمضغها، وأخرجها مرة أخرى عِبرةً للثعابين التي أفسحت مدخل الغار. وأحسَّ بنورٍ إلهيٍّ يتجلَّى عندما دخل الغار.. «سبحانك!».

بدأ يتمايل يمينًا ويسارًا «سبحانك... سبحانك».

«بسم الإنسان.. الساحر الثاني.. البهلوان.. المغرور الفاني»

ولم ينم دون أن يرى صورة فرعون جالسًا فوق العرش الإلهي ويقول للناس «ما عرفت لكم من إله غيري». فتمطر السماء طينًا وجرادًا وضفادع. وأحس أن الحجارة التي ألقتها أبو الريش لم تجرح رأسه فقط وإنما جرحت قلبه، ومع هذا استطاع أن يطرد تلك الأفكار بعيدًا. ولما نام تحرر من جسده. طرد مع زفيره روحًا شفَّافة كالماء. انسابت مع هواء الليل، خارج الغار، إلى بيوت أبو الريش. وفي منتصف الطريق انشطرت إلى عشرات الأرواح. ودخلت بيوت الناس من الشبابيك وشقوق الجدران، واستيقظ الناس أمام تلك الروح التي تقف أمامهم وتناديهم. ومشوا وراءها رجالًا وأطفالًا ونساءً، في طابور ممتد إلى آخر البلدة. وأمام الغار وقفوا ودخلوا، ورأوا نجم الدين الذي رجموه ذاك الصباح نائمًا داخل غار الأفاعي، والأفاعي تنام حول جسده، وعلى صدره، ولا تمسه بسوء. واتَّسعت أعينهم دهشةً وشعروا بالندم. عادوا إلى بيوتهم ولم ينم أحد. ظلوا يحملقون طويلًا في الشجر، والنخيل، والجبل، والسماء، وفي سقوف البيوت. تذكروا الجد أخيرًا. ولثلاث ليال امتد النُّواح والتَّعديد، وجاءت الغربان من كل القرى المجاورة والبعيدة لتشهدها. وعرفت تلك الليالي فيما بعد باسم ليالي الحداد والتوبة.

بعدها آمن الدراويش بشيخهم، ورأوا معجزات أخرى طوال العشر سنوات التي قضاها في البلدة. كان يعالج المرضى بأعشاب غريبة وهو يرتل صلوات وتعاويذ بصوت عذب، فيُحملق المريض بشرود في نقطة خفية بالسماء. ناهيك عن الحيوانات التي كانت تأنس للشيخ وتمشي وراءه في كل مكان مثل: الكلاب والقطط والفئران والثعالب الصغيرة. وبدأت القرية تتبرك بأي شيء يتعلق بالشيخ مثل خصلة سوداء من شعره المجدول، أو قلادة من القواقع، أو قارورة مملوءة بالرمل. وداوموا على زيارة الشيخ حتى فاجأهم بأمر السفر والمعجزة المنتظرة. فبعد صلاة الفجر قال لهم «رأيت القاهرة تسقط». وفي يوم آخر قال «رأيت مآذن تتآكل والدخان يعلو من ورائها». ومع مرور الأيام ظلت الرؤيا تكتمل حتى قال «رأيت الموتى يخرجون من مقابرهم ويبحثون عن الطريق». وعرف الدراويش أن الله سيختار أحدهم ليرى المعجزة، فنعم ذلك الرجل! وتمنى كل امرئ منهم أن يكون المصطفى. وقال لهم الشيخ «من يريد الله فليجلس». وجلس الجميع أمام

الغار وأعينهم متسعة عن آخرها. وبحثوا حولهم عن شجرة تليق بالتجلّي فلم يجدوا. وسألوا نجم الدين «هل يتجلَّى الله لنا؟» فابتسم وقال «بل يتجلَّى فينا». وصمت قليلًا ثم تابع «هاتوا أقلامكم». وبدأ كل منهم يختار صخرة أو حصاة أو ورقة شجر لتبدأ القرعة، واختار نجم الدين قوقعة وشم فيها رائحة كاتي الطيبة وأحسَّ بحنين إليها، وعرف أنها ستموت قريبًا دون أن يكون معها أو يغسِّل جسدها. وخاف من النهايات. ووضع الجميع أقلامهم على صخرة كبيرة وبدأ الشيخ يتلو من آل عمران والدراويش يرددون:

«وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ»

وبدأت الأقلام تتحرك وحدها فوق الصخرة وتسقط، حتى لم يتبق سوى قلم نجم الدين، ونظر الشيخ إلى السماء وقال «ليكن غيري شاهدًا على نورك». وأعاد القرعة. وبدأ يتلو والدراويش يرددون:

«ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ»

تدور الأقلام وحدها، حول ذاتها، وتسقط مع انتهاء الآية فلا يتبقى سوى قلم نجم الدين. ينظر الشيخ إلى السماء ويقول «قلبي ممتلئ بنورك وأخشى أن يحترق». يُعيد القرعة مرة أخيرة فيجد النتيجة ذاتها. يتنهد نجم الدين وينظر إلى السماء بعينين دامعتين ويقول مستسلمًا «لتكن مشيئتك!». كانت هذه إرادة الله، عرف الدراويش أنهم حواريون، وأن هذه البلدة مباركة. لقد شهدوا جد نجم الدين واليوم يشهدون حفيده. وعرفوا أن الأيام الباقية قبل أن يسافر الشيخ قليلة. وقال نجم الدين آسفًا «الحياة غُربة». ولم يعرفوا من أين لهم، وهم الفقراء المُعدَمون، أن يتبرعوا للشيخ بكل ما يملكون، لكنها بركة نجم الدين، لقد أحدث الله المعجزات على يدهم، إذ ظلوا يعملون بجهد كبير دون كلل. عملوا شيَّالين في محطة القطار، وكنَّاسين، وبنَّائين. وتعرَّقوا، وهم الكسالى، بالشمس الحارقة ليحصلوا على الرزق. وأحسوا أن ثمة أجنحة نبتت من بين ضلوعهم، وسعوا وراء الرزق كالطير. وبدأوا يجمعون النقود ويلقونها في حجر الشيخ. الدراويش

كثر والنقود كثيرة. لم يجمعوا مثلها من قبل فازداد إيمانهم. وجهزوا كل شيء: تذكرة وحقيبة السفر، جلابيب جديدة، عطور وأعشاب. وحملوا الشيخ فوق أكتافهم حتى محطة القطار، وظل نجم الدين يتفرج على المدينة من أعلى والمارَّة يأتون ويتمسَّحون به. وظل الدراويش يقفون حفاة، في رصيف المحطة، بلحى طويلة. يودعون الشيخ ويلوحون بما يملكون من خصلة شعر أو منديل. وظلوا هكذا يقفون، كأهل الكهف، في انتظار رجوع الشيخ، ودموعهم تتساقط تغسل لحاهم وذنوبهم.

كان الشيخ يراقبهم من النافذة بحزن حتى انطلق القطار وتلاشوا. ولم تمض لحظات حتى علا صوت فتاة تحاول العبور بحقائبها الكثيرة وهي تُردد «آسفة»، حتى وصلت إلى مقعدها أخيرًا. ونظرت إلى الشيخ وطلبت المساعدة فنهض ووضع حقائبها بالأعلى ولم ينظر إليها، وعاد إلى مقعده واختل توازن الفتاة وهي تجلس فلامس نهدها صدر الشيخ. وقالت بارتباك «آسفة» فلم يرد عليها. وصمتت الفتاة ونظرت إلى الأرض، ولم تمض ثوان حتى قالت «كنت تائهة ولم أجد العربة بسهولة». ولما ضاق الشيخ منها نظر إليها غاضبًا، فهدأ. كانت الفتاة جميلة جدًّا وسمراء، مثل قطعة شوكولا.

تفاحة

تبدو الطرق تالفة مثل جيفة نتنة. تذكر الغريب الجثث التي قام بتشريحها وذلك السؤال: ما الذي يجعلنا هكذا؟ أعين تُحملق في فراغ. الرُّوح: تلك المفردة ذات التاريخ الديني والفلسفي، لا علاقة لها بالعلم. كل المراجع العلمية تتعامل مع الحياة باعتبارها تفاعلًا كيميائيًّا، تفاعلات هدم أو تفاعلات بناء. الإنسان فُقاعات غاز وماء. نموت لأن خلايانا لم تعد قادرة على التجدُّد. يمر جوار مقابر متواضعة وبيوت فقيرة، جدران مشققة ونساء ذات جلدٍ بالٍ. تجلس النساء أمام البيوت بينما يجري أطفالهن وراء كلب هزيل، يحاول الهرب فيعجز. يمسكونه ويربطون رقبته بحبل. يجرّون جسده. يحاول مقاومتهم. ينبح بكل قواه. نباحه مزعج. يضربه أحدهم حتى يئن ويخضع. يعدون ويسحلون الكلب وراءهم بعدما ربطوا قدميه، يئن، ولحسن الحظ ينقطع الحبل. يشعر بالحرية أخيرًا. يبدأ الأطفال بإلقاء الحجارة على الكلب فيتفاداها كلها. يُسرع حتى يصل إلى آخر الشارع. فجأة يعلو صوت فرامل سيارة مسرعة. تدهس رقبة الكلب. يترجل السائق ويلعن ذلك الكلب الذي أفسد مقدمة السيارة، وينهض بعض الرجال الجالسين في المقهى ويُبدون تعاطفهم للرجل. يمشي الغريب في ذهول. غريبة هي الحياة، صور تُعيد نفسها كل يوم، ولما نموت نصير مساجين لها. لكننا لا نريد أن نموت. لا نريد هذه النهاية الحتمية. لا نريد النزول في تلك الحفرة وعبور الخط الفاصل بين العالمين، ذلك المجهول. وربما ليس هناك عالم آخر، وإنما ذلك العدم. تفاحة حمراء أعطتها العمة لصغيرها فقضمها وألقاها في النيل. صرخت العمة جزعةً فشرح لها الأمر قائلًا «الدود يا عمة». لم يهدئ هذا جزعها وغضبها وقالت معنفةً إياه «أيها الغبي. كُلْ الدود قبل أن يأكلك». وتذكر التفاحة الأولى وشعر بالسخط تجاه آدم. هل أكل التفاحة كاملة يا ترى؟ تفاحة أولى مدودة تقود الإنسان للمنفى. ربما كان هذا هو الدرس الإلهي: المعرفة فخ كبير... ورأى طفلًا يجلس مقرفصًا على الأرض يُطعم سلحفاة صغيرة بعض الجرجير، يمد يده بالطعام إلى فمها فتُخرج رأسها وتأكل دون فزع. وشعر الغريب برغبة مفاجئة في الضحك، ظل يضحك كثيرًا حتى احمرت عيناه ودمعتا، وبدأ يبكي. وحاول أن يهدأ فلم يستطع. وظل يحملق في السلحفاة. تخيَّل البنايات التي تعلوها والأشجار والنجوم. أرض كاملة يعيش فيها البشر، يحملها حيوان جاهل لا يدري شيئًا ولا يعرف قدره. وشعر بشفقة تجاه بني البشر، هؤلاء البائسين الذين آمنوا بآلهة لم يدفنوها، دفنها آخرون آمنوا بآلهة أخرى دفنها غيرهم. وعلى هذه الحال استمروا. ما الحقيقة؟ ديكارت يكتبها في «رسالة إلى العالم» ويُخفيها خشية الكنيسة، يصرخ بها جاليليو فيصير مهرطقًا. ويظل يهمس بها سرًّا «لكنها تدور». فماذا لو لم يهمس بها كديكارت أو لم يسمع تلك الهمسة أحد؟ سلحفاة كبيرة نعيش فوقها هي الأرض، وعين غول زرقاء هي السماء، والآلهة رجال أقوياء يدافعون عنَّا، يا لهذا الفزع الذي يحاصرنا! يا لهذا اليتم!

وظل الغريب يمشي حول المقابر، وبدأت الأفكار تتلاشى. وأحس أن ما يراه ليس سوى صورة من حياة أخرى عاشها من قبل. ها هي ليلى تعدو تجاه ضريح خالد، وخالد يسبح في النيل، والصياد على سحابة بيضاء ويلقي بالصنارة. عروس نيل ريفية، لو صدقت رؤيا الصياد لصار ملكًا مثل سليمان. وربما كانت هي المدينة التي تخلِّص الإنسان وتنقذه. مدينة تُطل من وراء السحب، بعيدًا عن الدمار والدماء فوق الأرض. ولم يعرف ماذا يفعل الآن وقد صار ميتًا. ربما يذهب إلى إحدى تلك المقابر وينام، وربما يسافر للأماكن التي لم يرها من قبل. لم يكن فضوليًّا، والعالم كان رتيبًا. وفكر أنه لا بد من سر وراء وجوده هنا. لماذا لم يعرج بعد إلى السماء؟ أو لماذا لم يصر محض رفات أو عدم؟ ورأى يدًا تمتد وتشده، ونظر إلى صاحبها فوجده درويشًا بائسًا.

ومشى مع هؤلاء الدراويش وسمعهم يصلون «يا ربنا أنجدنا». وفهم أنهم جميعًا موتى. وسأل ذلك الدرويش «إلى أين نمضي؟»، ولم يرد الدرويش لكنه صاح «مدد، مدد يا عالم السر»، واطمأن الغريب قليلًا. راوده ذلك الشعور بأن الملكوت قريب أو أن بوابة العروج هناك. ومشى معهم متشبثًا بهذا الخيط الخفي، وهو يردد بِلَوعَةٍ واشتياق «مدد... مدد يا عالم السر ومالك الأنوار». ووصلوا إلى مبتغاهم ولم يسألهم «ما هذا المكان؟»، وظل معهم خمسة عشر يومًا كاملة. يأكل من طعامهم ويصلي وينتظر الخلاص.

بجعة سوداء

بعد الأربعين، مشت سالي في طريق العودة إلى المنزل. رآها ابن الجيران المراهق الجالس في المقهى فنهض وتتبَّعها. كانت ترتدي الأسود حدادًا، والشارع مُظلم. وأحسَّت بهذا الظِّل الذي يُطاردها فشعرت بالفزع وحاولت أن تمشي مثل العسكري، لكن مؤخرتها ظلَّت تتمايل كالبندول. وكان الشارع فارغًا من المارة، وابن الجيران لم يكن طبيعيًّا هذه الليلة. اعتاد مراقبتها من النافذة. اليوم شعر بفوران الدم في العروق، لم يبالِ بأي شيء. اشتهاها. وأحسَّ أنها مذعورة جدًّا. سمع قلبها يدق بقوة، ورأى، رغم العتمة، قطرات عرق تسيل على رقبتها. ولم يعرف أن قلبها كان يدق لسبب آخر. العتمة تحاصرها، تتسلل إلى مسام جلدها، تسكن أعماقها. وأحست أن روحها بجعة سوداء، وشعرت برغبة جارفة في وضع روج أسود، وطلاء أظافرها بالأسود، وكان الليل يليق بشطحاتها. ودخلت البناية فدخل المراهق المسكين خلفها، وفوجئ لما رآها تلتفت وراءها، وتقف على الدرج، تعض شفتيها، تصعد وهي تهز مؤخرتها بدلال. وشعر أنها دعوة للفراش، كأنها بطلة من بطلات البورنو، بطلة لم يرَ مثيلًا لها من قبل. وبدأ الواقع يتلاشى وضاع في الخيالات. وصعد وراءها مأخوذًا بسحرها حتى باب شقتها. ولم تتذكر رجلها الغائب منذ مدة، وربما تذكرت ولهذا أرادت أن تنتقم. لم تكن تفهم مشاعرها على أيّ حال. أشارت بإصبعها إلى المراهق أن تعال، فدلفا معًا. أغلقت باب شقتها وجلست على المقعد. وضعت ساقًا فوق الأخرى وأشارت إلى حذائها ذي الكعب العالي. جلس الفتى وخلع لها حذاءها. كان مسحورًا بجمال قدميها ونظافة أصابعها. وبدأ يشم أصابعها ويلعقها إصبعًا إصبعًا. يا لها من امرأة! كان ينظر إليها كمن يرى إلهًا للمرة الأولى، وهي تعض شفتيها بلذة لا مثيل لها. ونهضت وأشارت للفتى أن تعال، فحاول النهوض، وضعت قدمها فوق ظهره فسجد مُجبرًا لها. وقالت بحاجبين مقطبين «اتبعني على يديك مثل كلب»، فأطاعها. ومشى وراءها كما أمرت وهي تمشي بسطوة باردة. دخلت غرفة النوم وأحس كلبها المدلل بالعطش. وجلست أمام مرآتها لتضع مكياجها: روج أسود، طلاء أظافر أسود، كحل أسود. ووضعت بعضًا من الروج الأحمر على شفتي الفتى الذي نظر لها ممتنًّا. وظل يلعق أصابع قدميها حتى انتهت من مكياجها. وبعدها خلعت ملابسها وارتدت قميص نوم أسود، وشدت الفتى إلى الفراش بعنف، وقفزت على صدره، وتدلى نهداها الكبيران على وجه الفتى الذي حاول تقبيلهما أو لعقهما، أمسكت الفتى من فمه بعنف فتأوَّه، وقالت «هل أذنت لك؟»، فهز رأسه أن لا. واعتذر. اعتذر كثيرًا. كان خائفًا من أيّ غلطة، إن أخطأ ربما تطرده ولا يذوق خمرتها. وربما لا يجد مثل هذا الفيلم مرة أخرى. كان مخمورًا ولم يذُق خمرتها بعد. وهي كانت سعيدة لأنها تملك سلطانًا أخيرًا. أمرت الفتى «ترجَّاني»، فظل يرجوها أن يُقبِّلها فلم ترض. كان رضاؤها لأول مرة بعيد المنال. وشعرت بالغضب فجأة لما رنت في أذنيها أغنية لحميد الشاعري، وصفعت الفتى المسكين على خده وقالت «تريدني؟»، فهز الفتى رأسه أن نعم. وصفعته مرة أخرى وقالت «أنت

عاهرتي» فأجابها الفتى «أنا كذلك». وتذكرت والدها لما كان ينعتها طوال الوقت بالعاهرة، وسائق التاكسي الذي كان ينظر إلى نهديها، وابن الجيران الذي خذلها في طفولتها، ورجلها الغائب الميت، أين ذهب يا ترى؟ ربما يضاجع نساء أخريات ويعود لها لما يتذكرها. هل يتذكرها؟ قصة الحب التي عاشاها معًا، هل يعرفها أصلًا؟ لم تغفر لأحد، ولن تغفر.
وقبل أن تعتلي قضيب الفتى ربطت يده في الفراش، وبدأت تتأرجح فوقه كهِرَّةٍ مجنونة. كانت تشتم الفتى وكان يكرر وراءها كل شتيمة. وأثناء ذلك رأت صورة زفافها مُعلَّقة على الحائط المقابل فأمسكت بالفازة الكبيرة من الكومدينو المجاور وألقتها عليها. شعر الفتى بذعر فقذف فيها سريعًا، وحاول النهوض فحال قيده دون ذلك. وشعر بالذُّعر، وتحرر من سطوة الشهوة، وظل يرجوها أن يرحل ولا يأتي، لن يراقبها من النافذة،

لن يتخيلها عارية وهو يداعب عضوه، لكنها جلست على المقعد عارية في الظل، أشعلت سيجارتها وظلت تفكر... لماذا يريد أن يخذلها؟ وتذكرت ذلك الليل، عندما تسللت إلى غرفة أبيها النائم ووقفت في الركن المظلم ممسكة بسكين حاد. تفكر أن تقطع رقبة والدها الذي استيقظ على شبحها وبحث عنها فلم يجدها، وظن ما رآه ليس سوى كابوس. ما الذي يمنعها من الانتقام الآن؟ والدها جيفة، وذلك المراهق مربوط في الفراش، ورجُلها يخونها مع أخريات. وقرأ الفتى أفكارها وظل يصرخ بفزع «لا». حاول إقناعها أن لا تفعل. ونهضت وعادت بسكين المطبخ. ظل الفتى يرجوها، وشبح قطتها الممزقة يدعوها للانتقام. رفعت سكينها للأعلى... ولثوان قصيرة أحس الفتى بسكرات الموت، ولما فتح عينيه وجد السكين قد مزق قيده. ولم يمكث لحظة واحدة في الشقة. جرى عاريًا مذعورًا إلى الشارع، ولم يعُد.
بيت العاهرات
لبنى، تلك الوردة الزرقاء، ذبلت كأنها لم تذق قطرة ضوء. أناملها باردة زرقاء وأظافرها مقروضة. تقف أمام نافذة الصالون مشعلةً سيجارة. عيناها نَشِفَتان وممتلئتان بالأسى. خلفها يقف جوهر يراقبها. كان يرى الثلوج تدفنها وتمحوها. ماذا تبقَّى من روحها؟ وضع يده على شعرها وانساب مع الشلال الأسود. قبَّلَ جيدها بأنفاس حارة، أغمضت عينيها ولعنت قلبها الذي خانها. همس جوهر في أذنها «لا أحب أن أراكِ حزينة». وملأ كأسًا من النبيذ وأمرها أن تشرب، فلم تطع، وكاد أن يصفعها على وجهها كالمعتاد، لكن علا صوت باب الشقة وهو ينفتح، التفت الاثنان فإذا بها غادة.
وخفق قلب لبنى ما إن رأتها. جرت إليها وقبَّلتها. كان حضنها دافئًا. وشعرت أن الثلوج التي بداخلها تذوب، كان لغادة سحر عليها وسطوة. وكان الأحدب يعرف. لم يكن اختيارها صدفة أو رمية نرد. كان يتركها تسافر وتزور أمها في جنوب مصر ويعرف أنها ستعود. هي عاهرة حقيقة لا لغز فيها: كلبة مال. وهذه العاهرة تعلقت لبنى بها. كانت تسرّح لها شعرها، وهي نائمة في حضنها، وتبكي. ولم تخمن أنها الهواء والقضبان في آن. وعلى النقيض لم تك لبنى تستطيع السفر أو مغادرة البيت، كان الأحدب العاشق حريصًا جدًّا، لم يترك ثغرة باسم الإخلاص أو الحب. كان قوادًا ذكيًّا ويعرف أن دوام الحال من المحال.
ولم تكن السمراء بمفردها، فوجئ الأحدب بالشيخ، ذي الشعر المجدول واللحية السوداء، يدخل بيت الدعارة ممسكًا مسبحة زرقاء طويلة. بدا أن الشيخ غير معتاد على زيارة أماكن كهذه. قال

«السلام على آل البيت» ولم يرفع بصره عن الأرض. كان يشعر بخزي شديد. ماذا لو رآه أحد الدراويش هنا في بيت للدعارة؟ ماذا عن الله فوق عرشه السماوي؟ والملائكة الذين يحصون خطايانا؟ وماذا عن غادة؟ تلك السمراء التي لم يرَ في سحرها أحدًا، وهو مولَع بالسحر، مهووس بالمعجزات. وهي رائحتها مثل الشوكولا، فماذا عن شفتيها وجلدها الناعم؟ كانت رائحتها تطغى على كل الروائح المنتشرة في الهواء: معطر الجو، عطور النساء الرخيصة، دخان السجائر والنرجيلة، الخمر، وبقايا المنيّ العالقة في الجدران، ومِسك الشيخ. الجدران مشققة ومغطاة بورق حائط أحمر. ولم يعرف الشيخ ماذا يجب أن يفعل! كان قليل الخبرة والتجربة. لم يظل واقفًا طويلًا أمام نظرات الأحدب الحادة، إذ قالت غادة لقوَّادها «لا تقلق. هو زبون عادي». ولم يبدُ الشيخ كزبون عادي، كان ورعًا، تقيًّا، يستغفر الله باستمرار، ولا يرفع بصره في نهدي امرأة أخرى غير تلك الغادة. وأحس جوهر أن في الأمر مكيدة، ربما كان مخبرًا أو شرطيًّا، لكن الأمور لا تتم بهذا الشكل؛ فأمناء الشرطة إخوة، وأبناء عاهرة، ويشربون الشاي في مواعيد دقيقة. وهم ضيوف دائمون على هذا المنزل. ومع هذا لم يطمئن للشيخ. وعلى عكس العادة أخذ حقوق الملكية والانتفاع مقدمًا وقال بغلظة «سنضع حقيبتك في الأمانات». وحاول الشيخ أن يأخذ منها المال المبلل بعرق الدراويش فرفض الأحدب قائلًا «ثمن الثقة» ونظر نجم الدين إلى غادة فوجدها تهز رأسها مُطَمئنة وهمست وهي تقبّل جيده «لا تندهش، ثمة شيخ داعر وقوَّاد أمين».

سبحان مغير الأحوال، ماذا لو رأى الدراويش شيخهم، في هذه اللحظة، وهو يخلع العمامة الزرقاء والعباءة، ويصير عاريًا تمامًا. صدره غابة من الشهوة. يهجم بشفتين لم تذوقا امرأة، يلمس لسانها فيسيح تمامًا. يرقصان في نهر هلامي. يبلع ريقها. ما طعم قُبلتها؟ بطعم القهوة والشوكولا. في شفتيها تعمل آلاف الجنيَّات الصغيرات، ها هو، يقبلهن، ويذوق الشوكولا التي يُعدونها بداخلها. وغادة تتأوَّه وترتعش. يا لها من ساحرة! من أين لها هذه المعجزة؟ لو لم يرها قديس لظن أنها عاهرة، لكنها مدينة للقديسين والزنادقة معًا. الجميع هنا يسبحون الله بإيمان لم يره. أنبياء يتركون سيوفهم وخيولهم. ما المعركة التي على المرء أن يخوضها ولا يعود؟ امرأة تنتظرك بعد الحرب. يا لها من طفلة مقاتلة! تعض شفتيها. تتأوه وتشتم. ما الذي جعل العالم لا يبالي ببراءتك؟ هي لا دية لها. يشد شعرها، يزداد شبقها أكثر وتتوسل «ضاجعني». ومن خرم الباب كان الأحدب بالخارج يراقبهما وقد اطمأن تمامًا لهذا الشيخ الفاسق. وخمَّن أن وراءه حكاية مدهشة. وتذكر فجأة ملكة ووجهها المحروق، وصرخاتها، ولعناتها التي يسمعها كل مساء، والكوابيس التي يراها. وتمنى لو يغفر الله ما فعل، وما سوف يفعل، لأن هناك الكثير من الخطايا التي ينتوي فعلها. وراوده يقين غريب بأن هذا الشيخ الزنديق ليس فاسقًا ولكن للأولياء شطحاتهم. هالة النور جلية لا تنكرها عين. «والعين مثل فتحة النيشان»، وأحس أن هذا الشيخ يملك حقًّا أن يهدي الأرواح، ومن يهدي الأرواح يملك غوايتها. وشرد في الجسدين العاريين وهو يردد في سره «مـدد».

الأحدب والشيخ

- كيف تبيع الله بعاهرة؟
- وكيف تشتري الله بعاهرة؟ إذا كان الثمن بخسًا في الحالتين.
- تظن أن الفلسفة تنجيك؟
- سفينة نوح؟ لا أعتقد بها.
- وبماذا تعتقد؟

- أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى
- نحن ننال ما نستحق.
- هل تؤمن بهذا؟
- لا أؤمن بشيء. أنا قوَّاد. هل ينتظر الله من القوَّاد أن يؤمن؟
- ينتظر الله من الرجل أن يقوم بدوره على الصورة الأكمل.
- أي دور؟
- أي دور..
- يا لك من شيطان!
- نعم ولكني شيطان مؤمن.
- لا أصدق أن ثمة شياطين خيِّرة.
- لا أصدِّق أن ثمة شياطين شريرة.
- ماذا تقصد؟
- أقصد أن لا وجود للشر الخالص، إننا نسعى ولا ننال الكمال أبدًا.
- إبليس كان صورة خالصة وكاملة للشر.
- إبليس المسكين كان شهيدًا للإنسانية، كان رسولًا تقيًّا.
- إبليس كان رسولًا؟!
- نعم. كان رسولًا تقيًّا؛ اختار الشر حتى يتجلَّى الخير لنا.
- لقد عصى إذًا لأجل مجد الله؟
- نعم، لأجل أن يزداد مجد الله عصى.
- وإذا كان مجد الله يزداد بمعصية إبليس فلماذا يُدان بعدُ كخاطئ؟
- آه. هذا هو السؤال الصعب، لا إجابة عندي.
- أفكارك تقودك إليها. وربما لا تقود لشيء. أخبرني: هل أنت ضائع مثلي؟
- أعرف جيدًا ماذا أريد.
- كلنا نعرف ماذا نريد وهذا لا ينفي ضياعنا.
- الأرض منفانا. لقد غوى آدم لذا فإن الله يعاقبنا.
- تقصد: يروضنا.
- لا مشاحَّة في الاصطلاح.
- لن أقبل بهذا المنفى.
- ماذا ستفعل؟

- لن أرضخ. سآخذ ما أريد بيدي.
- تفاحة أخرى... خطيئة أخرى.
- كيف تمسك بالنقيضين دون أن تخسر؟
- أنظر في المرآة كثيرًا.
- وماذا ترى؟
- أرى طفلًا.

- والأطفال لا يخطئون. أليس كذلك؟
- لا يخطئون البتة.
- أتمنى لك إقامة سعيدة في الجحيم.
- لا أعتقد أنني أخاف من ألسنة النار.
- مم تخاف إذًا؟
- لن أخبرك.
- ربما تخاف من أناس مثلي.
- وجهك المحروق وهذه الندوب لا تُخيفني.
- لا تلف أو تدور. قل ما تريد مباشرة.
- لماذا خلقك الله أحدب؟ من أجل فتاة ربما.
- حاذر.. لسانك لن ينقط عسلًا إن قُطِّع إربًا.
- هل لمستُ الجرح؟ هل أهنتك؟ أنا...
- طفل.
- نعم. والأطفال فضوليون كما تعلم.
- تظن أنك حاذق جدًّا. ماذا لو أنني غضبت جدًّا وطردتك الآن، ها؟
- لا تفعل، أرجوك.
- لن تضاجع تلك السمراء التي بعثَ الله لأجلها.
- أعتقد أنني كنتُ أحمق جدًّا، الخمرة هي السبب، أعتذر عن الإساءة.
- شيخ داعر! صرت مهذبًا الآن. لا تقلق. كلنا لنا نقاط ضعف.
- نعم. أعتقد ذلك.

العمامة الحمراء

ارتفع الستار. ليل موحِش، وأصوات أقدام تعدو في الطريق. تجري الفتاة السمراء بين السيارات وعلامات الذعر على وجهها. تُلقي نظرة خلفها فترى العتمة تطاردها. قلبها يدق بقوة ولا يهدأ. تتوقف عند عمود إنارة لالتقاط أنفاسها، فوق العمود يقف غراب أسود، تفزع من هيئة الغراب. قطط الشارع تعدو معها في كل مكان والشارع فارغ. العالم يهتز ويوشك على السقوط والأحدب يتعرَّق جدًّا ويشعر بالاختناق. يرى نجم الدين مُطِلًّا بصورة مشوَّشة، يرتدي عمة حمراء تلك المرة. يحاول الأحدب أن يدقق النظر، يفتح إحدى العينين عن آخرها ويرى الشيخ بصورة غريبة، ليس بسبب تلك الابتسامة الواسعة حتى الأذنين، لكن بسبب الأنف الأحمر الذي يضعه: أنف المهرج. انتفض الأحدب من هذا الكابوس. نهض، مشى متعرِّقًا مترنحًا في المنزل. وشعر بهدوء مريب: الهدوء الذي يسبق العاصفة أم الذي يليها؟ كان نائمًا على الأريكة، وعلى الأريكة المقابلة رأى إحدى العاهرات نائمة عارية، أسفل قدميها ينام رجل سمين.. ذوق غريب! وفي الصالة رأى أجسادًا عاريةً تنام فوق بعضها، ورأى ورقة بيضاء تُشير بسهم أسود تجاه غرفة غادة. وأحس الأحدب بصداع قاتل وظل يمشي مستندًا على الجدران. وفتح غرفة السمراء فلم يجدها بالداخل، ورأى ورقة بيضاء مكتوب عليها «الغرفة الخاطئة». ومشى في الصالة حتى وصل إلى غرفة لبنى ولما فتحها وجدها فارغة أيضًا. ورأى ورقتين، الأولى موضوعة أمام تسريحتها وفوقها وردة زرقاء، مكتوب فيها «لا تشم الوردة». والأخرى على فراشها مكتوب فيها «قراءة الفنجان

الخاطئة تجلب سوء الطالع». وأمسك بالوردة الزرقاء وتأملها في دهشة قبل أن يشمها، وبدأ العالم يضيع ويتلاشى. ورأى نجم الدين يظهر كشبح مرددًا:
«وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»
الفتاة السمراء تعدو وخلفها لبنى. سيارات خاطفة تمر جوار الفتاتين. وفي نهاية الشارع يمشي نجم الدين ببطء حتى يصلوا جميعًا إلى الموقف. لا تعرف لبنى كيف أقنعتهم بالفكرة، لا تصدق هروبهم، تتلفَّت حولها، تنظر من نوافذ العربة إلى الشارع، العربة فارغة، وعقارب الساعة تتحرك بكسل شديد. تصيح بجزع «لماذا لا نتحرك؟». ومثلها غادة «نستطيع أن ندفع للعربة كلها وننطلق». يستريح الشيخ على المقعد ويقول بابتسامة طيبة «لا تقلقا. فلقد اشتهى الوردة».
طرق
اختل توازن كل شيء. وقعت البراويز المُعلَّقة على الجدران، والجدران تقشَّرت أوراقها الحمراء. على الأرض بقايا المقاعد الخشبية، والمناضد، والفازات، والمرايا، بعدما تكسرت جميعًا. والأرائك كلها مقلوبة على وجوهها. ثمة آثار أقدام مليئة بالدم على الأرض وبقع دم على الجدران، وفي الركن كان الأحدب يجلس، بجبين مملوء بالدم، وقدمين داميتين بعدما انغرستا في بقايا المرايا. هذه المرايا التي حطَّمها إلى ألف قطعة، وفي كل قطعة كان يرى صورةً للشيخ. كيف لم يرَ القادم؟ أخطأ قراءة اللعبة ولم يعرف ماذا يفعل الآن أو ماذا حدث؟
أربعة أشهر قضتها لبنى بين هذه الجدران. حاولت الهروب مرتين. في المرتين ساعدتها غادة، أعطتها المال اللازم، وشجَّعتها، وعندما ينام العملاق تغمز لها. وقبل أن تنزل الدرج وتعدو في الشارع تُقبِّل صديقتها قبلة طويلة وترجوها أن تأتي معها فتُذعَر وترفض. تتركها وترحل. ولما ترحل ينهض سيدها راضيًا عن العاهرة السمراء، تخبره أين ستذهب فيرضى أكثر، ورضاه يعني المال. وفي ذلك المكان المحدد كان ينتظرها الأحدب، يصبر عليها حتى يعلو بها الأمل ثم يظهر أمامها، ولما تراه تبكي بحرقة وتعود باستسلام إلى البيت. لم تفهم أنها ليست حرة، ولم تسأل كيف كان يشم خطواتها ويقرأ أفكارها. كانت بريئة وجميلة، للحد الذي يدفعها ألَّا تشك في صديقتها السمراء.
وتذكر أول ليلة رآها في شارع جامعة الدول العربية، والليلة التي ضاجعها فيها، والليالي التي كان يراقبها في الظلمة دون أن تراه. وتذكر ملكة التي أفسدت كل شيء. وأحس أن جميع النساء عاهرات وأحب هذه المهنة. واليوم هو على وشك خسارتها، فبيوت الدعارة تقوم على السُّمعة الحسنة، لا السيئة. رجال عُراة ينامون فوق بعضهم البعض، وعاهرتان تهربان من قوادهما. لا بد أن قواد هذا البيت مخصي. وعلى يد من هربتا؟ على يد شيخ. آية قرآنية، معجزة، أم وردة زرقاء؟ لا يهم. دماء الأحدب تغلي. يريد أن يثأر. يريد أن يرى نجم الدين ميتًا. سيفعل ذلك بيده. فأي ميتة تليق بالشيخ! مصلوبًا على شجرة أو مذبوحًا كالشاه؟ كلها ميتات مقدسة، ومثل هذا الشيخ لا بد أن يموت ميتة نجسة. كيف؟ يموت عريانًا دون هالة النور تلك. وبعدها يستعيد لُبنى ويسجنها للأبد، وغادة ماذا يفعل بها؟ سيفهم لماذا فعلت هذا. هل هداها الشيخ أم أغواها؟ وبكم من المال اشتراها؟ وبعدها يحرق نهديها فلا تجد بيتًا.
وبدأ الأحدب يخبط رأسه بالحائط فانفجرت بقعة دم أخرى. ومد يده وتذوق هذه الدماء ولم يرتوِ. وعلا صوت من ورائه «أن تشرب دمك لا دم عدوك طريقة سيئة للانتقام». والتفت فإذا بها أم علاء. وأحس برغبة في البكاء ما إن رآها، أما هي فظلَّت ترمقه بشفقة. لقد عرفت ما حدث منذ

الليلة الأولى، وانتظرت أن يهاتفها ويخبرها فلم يفعل. وقررت أن تأتي لتحل هذه المشكلة الصغيرة. اقترب منها ابنها وارتمى في حضنها مرددًا «سأقتل ذلك الشيخ بيدي. أقسم لكِ». هزت رأسها أن لا. وقالت «بيدك؟ بالطبع لا. وتعود إلى السجن وأفقدك؟». ونظر في عينيها المترهلتين ثم قال «لكنني لن أترك حقي». فردَّت متفهِّمة «وأنا أيضًا لن أترك حقك. لكن هناك طرقًا أخرى مُدهشة للقتل».

درب البهلوان

كانت الشمس تستسلم للنعاس، ضوءها الخافت ينعكس على جدران حارة «درب البهلوان». والأحدب يمشي وراء أم علاء في زنقة ضيقة. مدق بالكاد يكفي لعبور شخص واحد. لذا فإن أم علاء مشت في المقدمة والأحدب خلفها. تنحشر أحيانًا بين جدارين فتضطر لشفط دهونها للعبور. البيوت من الجانبين تبدو كدفتي كتاب، والكتاب قديم وأصفر. يسألها الأحدب «من سنزور؟» فتُجيب ببساطة «أحد السحرة». يصلان إلى بيت يسد آخر الزقاق. حول البيت طاقة غريبة، ضوء الشمس على كل جدار، ما عدا جدران هذا البيت.

طرقت أم علاء الباب ففتح لها رجل أنيق، ببشرة مُحمَرَّة وشعر ناعم قصير. يرتدي بدلة سوداء ونظارة طبية ذات إطار سميك. سألت المرأة بتردُّد «البابلي؟»، فأجابها بابتسامة مهذَّبة «نعم. تفضَّلا». ودخلا البيت الذي

يفوح برائحة الياسمين. ولم يكن البيت كبيوت السحرة، فلا مبخرة هنا. بل مكتبة كبيرة مملوءة بالكتب القديمة. وكان البيت يليق برجل مثقف أو طبيب. وسألت أم علاء الرجل مرة أخرى في شك «أنت البابلي؟»، فأجابها «نعم يا سيدتي. كيف أخدمك؟». وفكرت أم علاء في مغادرة المكان لمَّا شغَّل الرجل تلك الموسيقى الراقية، فأمسك الأحدب بها. لقد عرف أن هذا الرجل ساحر مُخضرَم بالفعل، وتذكر الجامعة في غمضة عين، كانت الموسيقى هي بحيرة البجع التي أحبتها ملكة. ونظر إلى البابلي فرآه يمسك وردة زرقاء، كانت تشبهها. وعرفت أم علاء أن عليها الجلوس. وبدأ البابلي بالحديث قائلًا «امرأة وراء سقوط آدم»، وظل صامتًا ثم تابع «وامرأة وراء مقتل هابيل». وسألهما إذا كانا يودَّان أن يشربا القهوة فعرفا أن عليهما أن يفعلا. ووضع التنكة على سبرتاية تماثلها في اللون النحاسي، وهو يُكمل «وامرأة وراء سقوط ملاكين». وضاع بين روائح الياسمين والقهوة والورق القديم، وشرد في هذين الملاكين. ملاكان نزلا إلى الأرض قبل الطوفان، عندما حزن الرب بعمقٍ قالا «يا رب العالم... ما هو الإنسان حتى تذكره؟»، فقال «وماذا سيحل بالعالم دون الإنسان؟». قررا أن يسكنا العالم، وقال الرب «إنني العليم. إذا نزلتما الأرض ستسيطر عليكما لعنتها وتكونا أكثر ظلمًا من أي إنسان»، فجادل الملاكان كثيرًا وقالا «دعنا نقدِّس اسمك»، فأذن لهما بالسكن. ونزل الملاكان ونظرا بنات البشر، ولم يستطيعا المقاومة. أي فتنة ودلال تمشي فوق الأرض! أحبَّ هاروت عذراء تُدعَى عشتار، واشتهاها، فتمنَّعت. قالت «هَبني سرَّك أهبُك سِرِّي». كانت تقصد بسرِّه الاسم الأعظم، ذلك السر الإلهي المجهول عن البشر: سر الطيران والسحر. ولما همس بالسر من لوعة العشق لم يجدها. نطقت بالاسم الأعظم فاستحقت منزلتها بين النجوم. يا لبنات البشر! جميلات وقاتلات. نسي البابلي القهوة فذهب إليها مسرعًا وصبَّ فنجانًا واحدًا للأحدب، ثم قال «وامرأة وراء حرب طروادة». طروادة خيط رفيع يقود إلى ألكسندر، وألكسندر رجلٌ تركَ بساتين الزيتون وعشق بابل، وفي بابل بئر

غويطة. وفي البئر مَلَكان مُعَذّبان مُعَلّقان من أرجُلِهما بالسلاسل، وليس بينهما وبين الماء بلدان ومع ذلك يُعذَّبان بالعطش. لقد سقطا أسفل أقدام بنات البشر. لقد علَّما الإنسان صناعة الدروع، والتروس، والخناجر القاتلة، ومواد التجميل، والعطور، والطبول والمزامير، والتعاويذ السحرية، وطرق القمر والنجوم وقراءة الغيب. كان عصرًا داميًا، ازدحمت الأرض بالشياطين والعمالقة والبشر. ورأى الرب ذلك غير حسن.

أشعل البابلي سيجارة وابتسم قائلًا «لا عجب إذًا أن نهيم بالمرأة كل هذا القدر». وابتسم الأحدب، وأحس أن هذا الرجل عليم جدًّا وقادر على أشياء عديدة. ولما فرغ الأحدب من الفنجان أخذه البابلي وسأل بلطف «ما رأيك في قهوتي؟»، فقال الأحدب «جيدة وغريبة». ولم يبدُ أن البابلي قد سمع ما قال إذ نظر في الفنجان وشرد في الصور، همست أم علاء في أذن نبيّها «لقد أخبروني أن هذا العراقي مجنون». وبدأ البابلي يضحك كمجنون بالفعل، وأشار للأحدب أن ينظر في الفنجان فلما اقترب ونظر لم يرَ شيئًا. استعاد البابلي وقارَه «عليها أن تتهذب.. لا أحد يرى سواي». ورمقها بنظرة جعلتها تبلع ريقها بصعوبة. وقال «حسنًا. هاتوا أثرًا». فأعطاه الأحدب عمامة زرقاء وبعض ملابس الفتاتين الداخلية. لبس البابلي العمامة وسألهما عن رأيهما، فنظرا باندهاش ولم يعرفا بماذا يُجيبان. واندهشا أكثر لما أمسك الملابس الداخلية وشمَّها بشهوة وعمق، وأشار إلى لباسها الداخلي الأسود وقال «إنني ضعيف جدًّا أمام هذه و...»، صمت فجأة، وترقب الأحدب بقية الجُملة المبتورة، وأحس أن الوقت يمضي ببطء، واطمأن تمامًا لما تابع البابلي «وكلنا لنا نقاط ضعف».

صانع الفخار

مسكين جدًّا هذا الرجل المستند بظهره على العمود المقابل لمقام زين العابدين، صار قذرًا أسود كقطعة الطين التي كان يلعب بها في صغره. لا يذكر كيف جاء إلى هنا. بعض الدراويش، ذوو الجلابيب الخضراء شدوه في طريقهم وهم يمسكون أعلامهم، يرددون بتناغم «مدد.. مدد». وقد مشى معهم دون أن يعرف إجابة لذلك السؤال، لماذا؟ لماذا نتابع المشي؟ أو على الأقل إلى أين؟

وعلى العمود المقابل لمقام زين العابدين جلس لأيام وقد وجد اللقمة والماء. كانت موائد الرحمن مستمرة طوال العام أمام المسجد، غير أن نفحات سيدنا زين العابدين تصير مباركةً أكثر مع اقتراب المولد. ولم يأكل في البدء شيئًا. ظل ممسكًا بالخبز دون أن يقضم لقمة واحدة، لأن الموتى لا يأكلون. ومع استمرار قرصة الجوع بدأ يأكل وقال في سره «ربما يأكلون القليل». وظل يراقب المسجد وهو يزدحم عن آخره بطوائف متنوعة: بهوات وفقراء، عاهرات وعجائز. رجال يرتدون جلابيب خضراء وتتدلَّى مسابح طويلة من رقابهم، وأناس يرتدون جلابيب بيضاء وقبعات حمراء وآخرون يرتدون ملابس عادية وقد جذبهم النور. ولم يكن يقظًا تمامًا غير أن الدنيا بدأت تدور في نقطة هو مركزها، والناس يرددون بصوت واحد «هو!»، ويتابعون «هو الله!»، ويعيدون مرة أخرى «هو!»، وينشدون وهم يتمايلون برؤوسهم وأجسادهم وينشدون قصيدة عن عليّ، ورآه الغريب وهو يصيح غاضبًا بجنون «سيُدمي لحيتي أشقى آل الأرض». وتذكر كل الدماء التي سالت على الأرض أيام الفتنة الكبرى، والدماء التي ملأت شوارع القاهرة، والجثة التي أراد أهلها أن يعيد ضوء عينيها، ووالده الصياد الذي وقع في شباك سمكة. وشعر برغبة في العودة إلى الطفولة واللعب بالطين، وتذكر صانع الفخار الذي رآه مرة بيدين ملوثتين بالطين عندما قال «لماذا تريد أن تتعلمها؟ إنها مهنة ملعونة يا ولدي». ولما سأله «ما الذي يجبرك عليها؟»، لم يرد الرجل.

وقد خمن الإجابة على أيِّ حال، ربما كان الجوع الذي ظل يطارده حتى بعد الموت، تلك الرغبة التي تقرص معدتنا وتُلِح علينا، ولما نطيعها تصير محض خراء. فلماذا نأكل؟ وربما كان الرجل لا يفعل هذا بدافع الجوع وإنما الفكر. ربما كان فيلسوفًا أو صوتًا بريًّا يصيح عاليًا «نحن لسنا فخارًا»؛ لأننا قادرون على اللعب.

شدَّه الدراويش فأطاعهم، وظلوا يرقصون في الشوارع وهم يمشون، فرقص معهم. حاول أن يقفز إلى السماء فلم يستطع. خمَّن أنه لا مفر من النوم في مقبرة والاستسلام ليد الله، وأحسَّ أن كل شيء يسير للمرة الأولى على ما يُرام؛ فقد سمع أحد الدراويش يتحدث عن وجهتهم، كانت مقابر زينهم، وأحس أن الخلاص قد حان.

سحر بابل

ظلال تتحرك في سكون الليل، على جدران البيوت، وتُهيمن على أعمدة الإنارة. غربان تجيء كعادتها بأعين مترصِّدة، وغيوم تغطِّي القمر الشاحب بالأعلى. ثمة بقعة دم صغيرة لا يراها أحد. من كسر أنفك يا قمر؟ ونجم الدين نائم في بيت قديم وقريب من زين العابدين. يبدو مرهقًا جدًّا، مخنوقًا. يشعر برغبة في الصراخ ولا ينطق. شرٌّ أسود يُطبق على صدره. تلك الكوابيس التي بدأت تزوره. في البدء رأى أيوب يمشي عاريًا في شوارع الإسكندرية، والمدينة غريبة جدًّا، بناياتها القديمة مبتورة الأيدي والأكتاف، وبحرها مستنقع من الدم. أيوب يصرخ منتشيًا بزجاجة الخمر «غارة، غارة يا بشر». ويعدو راقصًا في الشوارع حتى يختفي. ووراء أحد البيوت تقف كاتي ممسكةً دُميةً صغيرةً: الدمية مفقوعة العين اليُمنى، وكاتي تلوح برأسها الصغير، تراقب المدينة بعينين مذعورتين. طائرات تحلِّق بالأعلى وتقذف عليهم بالونات حمراء تنفجر بِدَوِيٍّ عنيف. تنتفض الصغيرة وتبكي لكنها لا تعدو. يظهر أناس كثيرون يجرون في كل مكان، لكنها لا تعدو. وفي الزحام نجم الدين، طفل صغير يحاول التخلُّص من الحشد، يحاول العبور من أقدام الناس الطويلة، تتحرك بسرعة، واحدة للأمام والأخرى تلحق بها، ولا يقدر على تجاوزها. وفي غمرة كل هذا كان هناك ملكان عظيمان مصلوبان على سماء المدينة، هاروت يحاول التخلُّص من قيوده وماروت ساكنٌ تمامًا كجثَّةٍ هامدةٍ جواره. الفتاة السمراء تظهر كشبحٍ خاطفٍ في الظلال، يتلفَّت نجم الدين تجاهها فلا يجدها، تظهر في الاتجاه المعاكس، يحاول أن يرصدها فيعجز. ولبنى تقف جوار كاتي ممسكة بقلبها الدامي. تلتهم قلبها والدم يسيل من شفتيها، يتقطع قلب نجم الدين. تهمس في أذن كاتي فتبتسم لها وتنتزع قلبها أيضًا وتأكلان بنهمٍ. يتمزق قلب نجم الدين تمامًا لكنه يقاوم. يحاول الخروج من هذا السجن. يطلق صيحة من أعماق صدره ويشهق ويصحو. ولما يصحو يرى جدران البيت القديم وبعض العناكب، ودون أن يدري يسقط في النوم. فجوة لا قرار لها. يتلمَّس الجدران فيجدها رخامية وفي الأسفل ماء آسن. بئر؟ يتساءل ثم يُجيب «وربما مقبرة». من أين الفرار؟ يسمع همسةً من الظلام «إننا ملعونون جميعًا»، يقترب من مصدر الصوت في الظلام، وينتفض لما يرى هاروت بعينين داميتين تمامًا. يقول للملك المعذَّب «لماذا؟»، وينتظر الإجابة طويلًا دون أمل. يظل الملاك صامتًا مُحملقًا في يده. يفكر نجم الدين في الخروج من البئر، يغرس أظافره في الجدران الرخامية، ينكسر الظفر بعد الآخر ويسيل الدم على الماء الآسن. تعلو صرخات الملكين بينما نجم الدين يصعد، يرمقهما بنظرة فيُفاجأ أن لا قيد يمسكهما؛ فلماذا لم يحاولا الفرار؟ يظل يصعد وأظافره تنكسر، وكذلك يتمزَّق لحم يده. على هذه الحال يظل حتى يصل إلى فوهة البئر المغلقة. يصيح طويلًا «كاتي.. كاتي!». فلا يأتي رد إلا عندما ييأس تمامًا.

يتحرك غطاء البئر وينفتح فتلوح من ورائه الطفلة الصغيرة ودُميتها والشمس، يبتسم لها ويمد يده، تظل واقفةً محملقةً في الفراغ دون حركة، يتوسَّلها بما تبقَّى من يده لكنها تنظر إلى دمائه بفزع قبل أن تغلق الغطاء ببطء. ويصحو،

يفتح عينيه المرهقتين فيرى الدولاب المتهالك، والملابس المُلقاة في كل مكان، والفتاتين الجميلتين نائمتين عاريتين على صدره. تمد إحدى الفتاتين يدها وتقبض على عضوه المنتصب فيشهق.
وامرأة يونانية تمشي في شوارع الإسكندرية، ينادي عليها نجم الدين «كاتي!». عيناها زرقاوان لكنها لا ترى شيئًا. تلمح طيف ألكسندر فتطارده، وفي منتصف شارع أنطونيادس تقف فجأة، تسأل نفسها «ماذا يطاردني؟» وتشعر بالخوف من ظِلها. تحاول أن تتذكر طريق المنزل فلا تقدر. تبتسم سعيدة وتقول «لا شيء يطاردني الآن». يُذعَر نجم الدين لاختفائها. كل الحشد ظِل أسود. لا يعرف سر تلك الظلال. يتعرَّق كثيرًا. يقول «لا أحد مثلي». يتذكر جده، يقول «لا أحد معي». يتذكر والده، يقول «لا أحد ضدي». وفي المقابل يلمح جده آتيًا على ظهر فيل عملاق، يدهس تلك الظلال. ينادي نجم الدين بصوت عال «أنا هنا»، ولا صدى. يشك في النداء وجدوى المعافرة. يقترب الفيل، يدهس نجم الدين. يصرخ. ينتفض من النوم. يرى غادة تشرب كأسًا من النبيذ الأحمر، ولبنى تقبِّلها في رقبتها، ويسيل خيط دم من شفتيها.
واستيقظ نجم الدين مُتعرِّقًا. كانت الظلال تجلس على الأرائك والجدران والدولاب المتهالك، هذه المرة رآها على أقرب صورة، واستطاع أن يلامسها. أحسَّ بها تتسلل أسفل جلده وتجري في الدم. قال «كم لبثنا؟»، ولم يجد ردًّا. بحث عن الفتاتين فلم يجد غير ظلال. وعلى الجدران صورة مرسومة بالقهوة لليونانية العجوز. وقف أمامها وأحس بعجز عظيم. وبكى. كانت صورتها على الجدران مطموسة العينين والأذنين.
انتفض. حاول أن يصحو. هذه المرة لم يستطع. كان الكابوس واقعيًّا. ولم يكن يقظًا ليرى الظلال وهي توسوس للفتاتين بالهرب. لقد وقفتا في النافذة وألقتا نظرة على الشارع، والناس، وعربات الكبدة والممبار والمخ والحشرات الصغيرة التي تحوم حولها والقطط المشردة. وأحسَّتا أن العالم كبير جدًّا ومظلم جدًّا. كان الهواء يُطيّر خصلات شعرهما بحرية، هواء حلو. لقد أحسَّتا بالسعادة، لم تنكرا هذا، وربما كان هذا هو ما أفزعهما. لقد تركتا عالمًا تعرفان سرَّه إلى آخر مجهول. وهذا الشيخ الذي أنقذهما ربما كان شيطانًا. ها هو يصيح فوق الفراش وينتفض. ينادي على امرأة تُدعَى كاتي ويَبكيها. تطارده في الكوابيس، فماذا فعل بها؟ لقد راودتهما الفكرة في آن. قالت لبنى «أريد أن أعود»، فأومأت غادة متفهِّمةً، لكنها تذكرت الأحدب وقالت «هل يغفر لنا؟». ولم تعرف لبنى بماذا ترد، وبعد صمت طويل قالت «ربما يفعل». وأحسَّتا أن هذا البيت القديم مملوء بالأرواح الشريرة، وقررتا الهرب. لم تكونا تعرفان يقينًا إن كان قوادهما سيغفر أم لا، لكن العودة إلى البيت والزبائن، والحياة الطبيعية التي اعتادتا عليها، كانت تستحق المخاطرة.
وسمع نجم الدين أصوات الدراويش بالأسفل وهم يسبحون ويهللون، وتذكر أن الليلة هي مولد الإمام زين العابدين. ونزل الدرج وهو يفكر في كاتي التي لم تعد إلى المنزل، كان قد بلغ الثانية والعشرين يومها. مرَّ على وفاة الغجري عام واحد. وكاتي صارت تمشي وحدها في الشوارع وتحدِّث نفسها كثيرًا، لم يظن فيها السوء. بحث عنها لأيام فلم يجد لها خبرًا، لم يرها أحد؛ لأنه لا أحد يعرفها من الأصل. ليس لها أصدقاء أو أقارب. فماذا حدث؟

شارع أنطونيادس، لقد رآها في الكوابيس بذلك الشارع، ربما تكون رؤيا، كيف تكون رؤيا بكل الشياطين والظلال التي أحسَّ بوجودها. لقد رآها ولمس يدها، كانت باردة، وشعر أن الموت أهون من فقدانها. والتمس الطريق إلى مقام زين العابدين غير أن الدراويش شدّوه معهم. سألهم «إلى أين؟»، فقالوا «حيث التجلِّي»، وتذكَّر المعجزة التي تنبأ للدراويش بوقوعها، أخذ مالهم ومتاعهم وسافر. فهل يحدث شيء مهم؟ هل يجد كاتي؟ ومشى مع الدراويش حتى مقابر زينهم، وفي المقبرة رأى رجلًا متسخًا كقطعة طين يصيح «دثروني»! وحاول أن يرقد في مقبرة مفتوحة فمنعه الناس. شعر بالفضول تجاه ما يحدث. ولما سأل الرجل أجاب بصوت مملوء بالبكاء «أنا ميت». وأحس بالشفقة على الرجل المسكين وبكى، قال «وإنك ميت وإنهم ميتون»، وأشار إلى الحشد. الدراويش يرقصون وهم يسبّحون ويهللون، يدعون الله كثيرًا، «الله! الله!»، والله يسمع الدعاء ولا يفعل شيئًا. وأمسك نجم الدين بيد الرجل الغريب وبدآ يرقصان وهما ينتحبان. ولما أرهقهما الرقص جلسا وقال نجم الدين «احكِ لي»، فنظر الغريب طويلًا في الليل الأسود ولم ينطق. ماذا يقول؟ «فقدت عمري في ضرس تالف!» ماذا؟ «ضرس تالف». ماذا يعني؟ ولم يعرف نجم الدين بماذا يرد. غير أن منارة الإسكندرية كانت تضيء هذا الليل وعيني كاتي الزرقاوين. سأل الشيخ «تريد أن تجد الملكوت؟»، فقال الغريب بصوت أجش «نعم»، وبدأ الشيخ يحكي عن الإسكندرية. وبدأ يسمع صوت كاتي الجميل وهي تحكي «الإسكندرية طروادة أخرى»، وبدأ يهمس مع كاتي «ملحمة تهب الإنسان البائس الأمل». رجل يسافر من بساتين الزيتون في اليونان حتى قصور الهند، يمتلك الشرق: مصر، بلاد فارس، وسط آسيا. يهزم الفيلة. يدهسها. يحتضن الموت في المعارك، ولا يموت. لأن الآلهة لا تموت. الإسكندرية هي توق الإنسان الفاني إلى الخلود، عرفها الرجل الذي هزم الموت. وقال الشيخ للغريب «تعال، تعال نسافر معًا، هناك، ستحدث معجزة، سنجد الملكوت، الجنوب ملعون، والقاهرة ملعونة، والعالم؟

«العالم محض صحراء يا صديقي».

(٦) إله الحرب

٢٠ مارس وليل هادئ لولا بعض القنابل التي تسقط على رأس بغداد. عاصمة ألف ليلة وليلة لا تنام هذه الليلة. قوات التحالف تجتاح البلاد من جهة الكويت. ثأر قديم بين أطراف عدة. منذ ثلاثة أيام خرج بوش الصغير في بيان مبشرًا:

«سنوفر الطعام والدواء الذي تحتاجونه وسنزيح الإرهاب وسنساعدكم على بناء عراق جديد حر. في العراق الجديد لن تكون هناك حروب ضد الجيران، ولن يكون هناك مزيد من مصانع السموم ولا مزيد من الإعدامات العشوائية أو التعذيب. التعب سيزول قريبًا ويوم التحرير سيكون قريبًا».

وفي ليلة التحرير تلك لم يكن البابلي بلغ الخامسة عشرة، يشاهد بلده في التلفاز يُقصَف بالطائرات. وأمه السمراء، ذات الشعر الأبيض القصير، تُعد العشاء وتبدأ في الحكي عن القاهرة: المدينة التي فتنتها، لم يسمع ابنها كلمة واحدة؛ كان شاردًا في ليلة أخرى: ليلة أكثر هدوءًا وأقل فتكًا. تلك الليلة التي هربا فيها من بابل دون أن يخبرا والده. لقد تآمرا وخطَّطا لكل شيء، كذب كثيرًا على والده دون أن يعرف لماذا. «علَى الجُنديّ أن يُطيع الأوامر». هكذا قالت الأم، أوامر من؟ هي لم تكن قائدة يومًا. كان والده هو القائد والقدوة. لقد تربى وفقًا لعقيدة عسكرية آمن بكلِّ ما فيها، والده جندي مُخلص ضمن فدائيي صدام، تلك الميلشيا التي لم تكن ضمن الجيش العراقي لكنها تتبع رئاسة الجمهورية مباشرة، يتلقون أوامرهم من الرئيس صدام أو ابنه عُدي. مبدأهم في الحياة سهل «الله الوطن القائد». وعلى هذا المبدأ تربى البابلي. ترك محافظة بابل وهو في العاشرة، ترك مدينة الحلّة حيث ولد، ترك آثار بابل، وآثار كيش في تل الأحيمر: حيث الزقورة الخاصة بهيكل «إيل بابا» إله الحرب، ترك مدينة بورسيا التي تعني سيف البحر، وكذلك ترك تل العقير، وانضم إلى أشبال صدام وتربى هناك خمس سنوات، على فداء القائد، حتى يخون كل شيء فيما بعد. فيالسخرية الحياة! لا يزال يذكر كلماتها «تعال نهرب معًا». سألها «لم؟» فأجابت «لأن هذه الحرب أكبر منك». سألها «وماذا عن أبي؟»، فلم تعرف بماذا ترد. «والدك سيقدمك قربانًا»، فلم يهتم، قال بقوة «قربانًا للوطن»، غير أنها هزت رأسها أن لا، وقالت وهي تبتلع ريقها «للموت يا صغيري».

أم البابلي: المرأة السمراء القوية ذات الجذور الأرستقراطية. لا تزال تذكر حكايات أمها عن القصر الملكي، والصداقات القوية التي جمعت أسرتها بالعائلة الهاشمية قبل ثورة الضباط الأحرار في ١٤ يوليو ١٩٨٥. وعلى أيِّ حال فإن الثورة قطعت صلتها بالماضي، وكذلك موت أمها وأبيها في حادث سيارة غامض. عرفت كيف تتكيَّف، جيدًا، مع التاريخ الجديد. ترعرعت مع خالها ودرست الإعلام في جامعة القاهرة. أغرمت بالمدينة ذات المآذن الكبيرة والمقاهي الثقافية، قابلت شاعرًا يُلقي قصيدة «بروتوكولات حكماء ريش»، لم تحب الشاعر، وشعرت أن «ريش» هو مقهاها المفضل. ولما عادت إلى العراق تزوجت رجلًا عسكريًّا يدين بالولاء المطلق إلى صدام، والمرأة تدين بعقيدة رجلها. غفر لها ما تقدم من ماضي أسرتها، ووجدت لها بداية جديدة في حزب البعث. ذللت قلمها للدفاع عن وطنها ضد أي إعلام مسيء: إيران، الكويت، أو الغرب المتآمر. حاربت بقلمها في حرب الخليج الأولى، والثانية. لكنها هربت في الثالثة، هكذا فجأة دون مقدمات. فما الذي غيَّر موقفها؟ ابنها الذي يشاهد الحرب، مباشرة، على شاشة التلفاز لا يعرف السبب.

الناصرية تقاوم بشدة، وكذلك البصرة. جنود المظلات ينزلون في إقليم كردستان لفتح جبهة في الشمال. سماء بغداد تشتعل بالقنابل، وعلى أرضها دبابات تقتحم الأطراف. وفي مطار بغداد تنشب معركة شرسة. سيتابع أخبار تلك المعركة وهو يأكل الموز دون أن يدري أن والده، قائده الأعلى، هناك يموت في تلك اللحظة. سيشاهد الحرب ويشجع العراق، ممتلئًا بالحماس كمن يتابع مباراة كرة قدم. وبعد أربعة أيام تنتهي الحرب سريعًا، يستسلم الجيش العراقي تمامًا وتسقط بغداد. لا يصدق. ينكر ذلك، يظل يردد بغضب «علوج! الأمريكان، العراقيون، العرب. الجميع.. الجميع!».
كان البابلي شاردًا في تلك الذكريات عندما كان يتأمل صورة مكسورة لامرأة سمراء على الحائط، شعرها أبيض وعيناها ضيقتان حادتان. لم يفهم عينيها. ولم يحب قصائدها، وكتبها الكثيرة، ومذكراتها. كان خطها مزعجًا. أطلق تنهيدة كبيرة ثم ابتعد شاعرًا بضيق صدره. شعر بحاجة لبعض الهواء النقي فقرر الخروج، فتح باب البيت وتسمَّر لوهلة عندما رأى الأحدب العملاق ينتظره بالخارج.

مفترق طرق

لم يتوقع الأحدب أن يرى العاهرتين عندما فتح الباب، كانت لبنى تختبئ بدموعها من عيني قوادها، وغادة تنظر في الأرض وتقول بتردُّد «هل لنا أن نعود للبيت؟»، لبنى ترتجف من الرعب واليتم. لم تنتظر أن يشدها أحدبها إلى صدره لكنها تمنَّت أن يفعل، ويربت على ظهرها ويشتمها على غبائها. كم هي صغيرة حمقاء! لقد أخبرها كثيرًا «نحن كما نبدو»، فلم تصدقْ. وللحظات ظل الأحدب واقفًا لا ينطق. أشعل سيجارة وأخذ نفسين قبل أن يدهسها وقال «أنت فقط»، وأشار إلى غادة التي دخلت ولم تنظر وراءها. وللحظةٍ ظلَّت لبنى واقفةً مصعوقةً قبل أن تسقط على ركبتيها وتتضرَّع «اغفر لي». لم ينظر إليها قوادها، وقال «لن أفعل». وأغلق الباب في وجهها. لقد كان كريمًا معها كثيرًا لكنها في كل مرة تحاول الهروب، فمتى ستقبل حقيقتها؟ لا بد أن يأكل الشارع عينيها حتى ترى. ربما أخطأ التقدير. لقد كان واقفًا أمام العين السحرية يراقبها ولم يتوقع أنها ستنزل الدرج سريعًا وتختفي في الظلام، وجرى نحو النافذة ولمحها والظلام يأكلها. ونزل وراءها ملهوفًا، يناديها، ولا يجدها. سمع سيارة مُسرعةً تفرمل بقوة، وتصيح لبنى، فيندفع نحوها. كانت حادثة وفتاة غارقة في دمائها لكنها لم تكن هي، لقد أخطأ التقدير. وتذكر أم علاء ولَعَنَها في سرِّه وقال «يا لها من معلمة حمقاء!» وتذكر نجم الدين وقال «ياللطفل المذعور!»، وتذكر البابلي وأحس أن هذه هي وجهتها. لا يزال يذكر عيني البابلي عندما ضاقتا وامتلأتا بالشهوة وهو يشم ملابسها الداخلية. لكنها لا تعرف عن الرجل شيئًا. ربما هو من سيعثر عليها، لقد عثر على الشيخ من قبل، يستطيع أن يفعلها مرة أخرى. على أيّ حال لا بُد أن يهدأ ويفكر في حيلة جديدة، نظر إلى العالم: الطرق، البنايات، إشارات المرور، الرجال المتأنقين والسيدات الجميلات والأطفال السعداء، لا شيء حقيقي. العالم مرهق جدًّا كالألغاز.

الأحدب والبابلي

- هل عليَّ أن أخمن سر زيارتك؟
- السَّحرة يفعلون... أليس كذلك؟
- لكنهم لا يهمسون بكل ما يعرفون.
- لماذا لا يفعلون؟
- لأن للمعرفة ثمنًا كما يُقال.

- أريد أن أعرف كل شيء.
- بل تريد أن تنال كل شيء
- كل الرجال يريدون ذلك.
- الأنبياء والرهبان والمتصوفة يزهدون يا صديقي.
- لقد حصلوا على المجد مقابل ذلك، وربما كان كل غايتهم.
- ربما!
- وما هي غايتك أنت؟
- لو كنت تعرف ما طرقت بابي.
- تحب أن تكون غامضًا
- ربما!
- مم تخاف إلى هذا الحد؟
- لن أخبرك.
- لأن الأسرار هي نقاط ضعفنا.
- ربما!
- حسنًا، أعرف أن عاهرتي عندك.
- كيف تكون متيقنًا إلى هذا الحد؟
- لأنني رأيت بلاط بيتك باللونين: الأبيض والأسود
- وماذا يعني ذلك؟
- هذا يعني أن الحياة بالنسبة لك ليست سوى لعبة شطرنج.

- وتظن أنني أهوى الحروب وأن عاهرتك هي غنيمتي الصغيرة.
- بالتأكيد.
- أخبرني، أي أحمق يترك ما يريد يضيع من يده مرتين؟
- كيف عرفت؟
- لن أخبرك.
- هي من أخبرتك.
- وربما تكون أم علاء من فعلت أو جنودي المُسخَّرين.
- لماذا أشعر أنك مجرد بالون هواء لا أكثر؟
- لأنك تخطئ التقدير دائمًا.
- وماذا لو كنت مصيبًا هذه المرة؟
- إذًا علينا، ساعتها، أن نستعد.
- لأي شيء؟
- للحرب.
- لماذا؟
- لأنني لن أتركك تقتحم منزلي، هكذا، دون مقاومة منِّي على الأقل.
- يمكنك أن تترك عاهرتي الصغيرة، وتوفر على نفسك العناء والوقت.

- وماذا عن لذة اللعب؟
- إذًا لم أخطئ!
- أنا لم أقل ذلك.
- لا تتلاعب بي.
- لا أستطيع أن أهبك ما لا أملك وما لا تملك.
- من يقرر هذا؟
- كل امرئ يختار ما يريده، وأظنها قد فعلت.
- ليس للضعفاء حق تقرير المصير، أنا أختار لها الخير.
- أنت محرر الفتيات الصغيرات من مخالب الطرقات.
- نعم، هذه هي حقيقتي.
- إذًا دعنا نلعب الشطرنج.

حبات الرمل

تحرك القطار إلى الإسكندرية فإذا بالمقعد المجاور للغريب فارغ. لقد نزل الشيخ قبل أن ينطلق القطار لشراء زجاجة ماء ولم يعد. وظل الغريب جالسًا في مقعده، شاردًا في كلمات نجم الدين «في الإسكندرية يُبعَث المرء من جديد»، «سترى هالة النور وتعرف أن هذا هو الطريق». ولم يخمِّن ما حدث للشيخ إذ نزل من القطار وشعر بظلام هذا الليل مفزعًا، ورأى تلك الظلال السوداء تمشي على رصيف المحطة، وأحس أن لا جدوى لأي شيء. لن يجد السيدة العجوز، لن يجد الغجري الساحر، لن يجد ذلك الزمن الضائع في محطة الرمل. وقرر أن يستسلم للنهايات ويعود إلى أبو الريش، يحتمي من الليل خلف الجبل. هناك يغفو دون كوابيس. ولم يتراجع، ركب القطار المقابل في الجهة الأخرى وعاد فارغ اليدين. لم ير معجزةً أو سحرًا ولكن بئرًا مملوءة بالعتمة والملائكة المنبوذة. وعاد وترك الغريب وحده في رحلة السفر الأخيرة. ولم يحس الغريب بالوحدة لأنها كانت حاضرة من قبل، وظل يُحملق من نافذة القطار حتى وصل إلى الإسكندرية. ومشى في شوارعها يبحث عن الطريق، خرج من محطة القطار وسار في شارع النبي دانيال. ولم ير شبح أيوب يسكر عند بوابة المسجد، ولم ير شبح نجم الدين يراقب من بعيد. دلف إلى شارع كنيسة الأقباط، وهناك سمع ناقوس الكنيسة المرقسية. الكنيسة التي وقفت زمنًا أمام المهرطقين وهزمتهم، هنا حيث الحقيقة تنتصر. وللحظةٍ شرد في صليبها ونقوشها ثم التفت إلى الخلف فرأى فتاة لا مثيل لجمالها، عيناها وديعتان، وفوق رأسها هالة من نور. وتذكَّر تلك الجملة التي قالها الشيخ «سترى هالة النور وتعرف أن هذا هو الطريق»، عاود النظر إليها فرأى ملائكة صغارًا يرفرفون حولها، ونظر إلى قلبها فرآه على هيئة شمعة. دلفت إلى الكنيسة وأشعلت شمعة لتصلي.

الفتاة اسمها «ماري»، أرمنية الأصل، معروفة بطهارتها. عرض عليها أن تترهبن لكنها لم توافق. كانت ترى أن للمسيح خطة أخرى لها. تعرف ماذا يريد إلهها جيدًا، لأنهما يتحدثان معًا، ويسمع كل منهما الآخر. لقد مشى وراءها الغريب داخل الكنيسة المرقسية، ورآها وهي تتبرك بالأيقونات والقديسين، وتبرَّك وراءها بهم، وانتظرها بعد ذلك في الخارج. ولما فرغت من صلاتها مشى وراءها في طريق العودة للمنزل حتى دلفت إلى شارع ضيّق يُدعى «أنطونيادس»، وراقبها وهي تصعد إلى بناية قديمة حيث تعيش. ولم تنزل. نام الغريب على الرصيف المقابل للبناية وانتظرها في النهار التالي، وعلى صوت خطواتها وهي تنزل الدرج استيقظ، ومشى

وراءها الطريق ذاته إلى الكنيسة. ولم يعرف ما سر هذه الفتاة، ولماذا انجذب نحوها بهذا الشكل! كيف يستيقظ من النوم على تكة بابها وهي تنزل أو صوت خَطوِها على الدرج! وربما كانت الملائكة التي ترفرف حولها، وهالة النور فوق رأسها، سببًا قويًّا لينجذب إليها. ربما كانت تلك الفتاة هي الوحيدة التي تقدر أن تساعده للعروج، وربما كانت تلك الفتاة ملكًا متخفيًا في جسد بشري. لا شيء يأتي دون شقاء، هكذا عاقب الرب آدم، فلماذا ننتظر أن يكون الموت مختلفًا؟ وظل ينتظرها خارج الكنيسة المرقسية وفكر أن يحادثها في أمره، لعل هذه هي الخطة الأخرى التي اختارها المسيح لها. سيقول لها «أريد أن أجد سمائي». وهي تبدو كأنها سماء، طاهرة، مقدسة من أي دنس. يالجمالها! بشرتها البيضاء نهر صاف يجري على جلدها، شلال يتدلَّى على خصرها ويرسمها على أكمل صورة. وخصرها؟ خصرها كأس مقدسة. يالطهارتها! لا بُد أن أحدًا من البشر لم يمسها. «ماري أيتها العذراء أنا في حاجة إليك» هكذا تضرع لها، وجثا على ركبتيه، حين خرجت من بوابة الكنيسة، لكنها لم توقف سيرها، وبدا وكأنها، هي أيضًا، لا تراه. وظل هكذا على هيئة التضرع يراقبها، من ظهرها، وهي ترحل بعيدًا.

ولم ييأس. طاردها في كل مكان، في ملجأ للأيتام ودار للمُسنين ومشفى لمرضى السرطان حيث كانت تتبرع ببعض الأموال. وفي كل مرة يراها يجثو هكذا، متوسلًا إلى قلبها الرحيم، فلا تتوقف لتُلقي نظرة واحدة. وقرر الصعود إلى بيتها، ليكلِّمها هناك، ويشرح لها كل شيء. هذا العالم مدنَّس. فتاة بطهارتها ستعرف هذا، وتتفهم، وتشفق على حال البشر وتساعده. وعندما صعد وراءها الدرج لم تسمع خطوه، لأن أرواح الموتى لا تُصدر ضجَّة. ودلفت إلى شقتها وأغلقت الباب بيدها، وهي تتحرك للداخل، فأمسك بالباب ومنعه من الانغلاق. وتوقع أن تعود عندما لا تسمع تكتكة الباب ينغلق ولمّا لم تفعل خمن أنها دعوة للدخول. ربما كانت تراه طوال الوقت لكنها لا تمارس هبتها الإلهية على مرأى من الناس. تسلل إلى شقتها على أطراف القدمين فرأى عجوزًا بعينين زرقاوين جالسة على أريكتها شاردةً في السقف، ولم يخمِّن من تكون هذه العجوز. ولم يعرف أن وراء قدومها إلى هذه الشقة أسرارًا وحكايات كلها حول ألكسندر واليونان ومقدونيا وإسبرطة وطروادة، حكايات بين امرأة يونانية تفقد ذاكرتها وفتاة خرساء من الأرمن.

وتجاهل تلك العجوز لما اطمأن لشرودها وغيابها عن العالم. واقترب من غرفة ماري متسللًا على أطراف القدمين، ورأى الباب مواربًا، ورآها تخلع ملابسها. ولم يعرف لماذا اهتم بمراقبة تفاصيل جسدها، ثمة حسنة صغيرة على رقبتها وأخرى على نهدها الأيسر، وضاع في سُرتها الصغيرة، وما اهتم بسُرَّة فتاة من قبل. وظلت الفتاة عارية. على الجدران صلبان صغيرة موزعة بعناية فنية أو إلهية، وفي كل مكان بخور وشموع ترقص أضواؤها في الهواء. رائحة البخور طيبة جدًّا وكذلك كان جسد ماري. وعلى الجدران لوحات كثيرة، رسمتها لقديسين وتلاميذ. لوحة كبيرة للقديس «جرجس» الذي هزم التنين وحرر الأميرة الأسيرة، ولوحة أخرى لقديسات مصريات مثل «القديسة كورونا» التي شاهدت تعذيب القديس «مار بقطر» فآمنت وقالت «الآن صار وجعك وجعي، وإلهك إلهي». فطوبى لها كما قال الملاكان اللذان حملا الإكليل السماوي لها. وماري عارية فوق الفراش تنظر إلى السقف، تمد يدها إلى أنوثتها وتداعب نفسها. ولوحة أخرى للقديسة «الراهبة مارينا» التي انضمت إلى دير في زيّ رجل، وهناك قام أحد الجنود بمضاجعة فتاة ونسب الفعل إليها، فطردت من الدير وربت ابن الخطيئة حتى صار عمرها أربعين عامًا وماتت، ولما ماتت اكتشفوا أنها فتاة فقالوا «ياللمسكينة الطيبة!». وماري عارية فوق الفراش تشد حلمتها

وهي تتأوه من اللذة. ولوحة أخرى للقديسة «ألكسندرا» التي ذاب في عشقها شاب روماني مصارع، وتدنس بهذا العشق حتى أقسم على الخطيئة، فهربت وتوارت وعاشت في أحد القبور اثني عشر عامًا حتى صعدت إلى السماء. وماري عارية فوق الفراش تتلوَّى وهي تمد يدها متضرعةً إلى طيف لا يراه سواها. ولوحة أخرى للقديسة «تاييس» التي كانت عاهرة شديدة الجمال،

تشد الرجال بإصبعها إليها فيقعون أسفل أقدامها ويقبلونها حتى أعد الله لها خطة أخرى. وماري عارية فوق الفراش ترى أن للمسيح خطة أخرى لها، والمسيح ينام في لوحة للعائلة المقدسة، ومريم العذراء تراقب كل شيء من أيقونة سفر الرؤيا، والتلاميذ يشهدون من العشاء الأخير جسدها، وهي تتلوى وتقول «إلهي، هبني كل نورك»، والغريب يراقبها ولا يفهم كلامها، تغازل المسيح بصلاتها، وجسدها كأس مقدسة. تقول «إلهي، دعني أَصِير كأسك الممتلئ بك»، والغريب يراقبها. فتاة أرمنية خرساء تهرطق في غرفتها، وغرفتها كنيسة مملوءة بالأيقونات، رسل وتلاميذ يشهدون على عهرها، وغريب يتحطم على بابها. آلهة تسقط، فلمَ جئت؟ وتحرك نحو الباب مغادرًا، وسمع المرأة العجوز تقول «الإسكندرية يا صغيري»، وتنظر شاردةً إلى السقف، فالتفت إليها مصعوقًا، ولم يفهم شيئًا. كان العالم مرهقًا وغريبًا، وأحس برغبة في العودة إلى البيت في القاهرة. الناس ميتون في كل مكان، ينتظرون ولا أحد ينتظرهم. وتذكر تلك المرأة الميتة التي كانت تنتظره كل يوم دون ملل، وتذكر زهر النرد، وضحك كثيرًا جدًّا وهو يعدو في الشارع وقفز عاليًا وقال «كم أنا ميت محظوظ!».

الهدنة

أمام مرآتها وقفت سالي مرتديةً فستان زفافها، وشردت بذاكرتها في أيام بدت لها قديمة. لا تزال تذكر كيف قابلت زوجها في جامعة القاهرة، كانا يعدان رسالة الماجستير، تراه دومًا يمشي بملابس رثة ورائحة سيئة. لم يحاول التقرب من فتاة، كان يشعر أن رائحة السمك صارت جزءًا من جلده. وهي كانت فاتنة جدًّا، تمشي على الأرض باستعلاء، وتراقبها أعين الجميع. يقدمون لها الورد والقرابين ما عدا ذلك الرجل البائس، كان يتجاهلها باستمرار عن غير عمد، كان خائفًا من العالم بقدرها، ولم تعرف كيف خانها قلبها وأحبت مثل ذلك الرجل! لقد بدأت تراه باستمرار، وفي كل مرة تسأل نفسها ماذا لو كنا نعيش في عصر آخر؟ تراه يرتدي ملابس الفرسان ويحمل درعًا بنقش «القديس جرجس»، هل ينقذها من أسرها ويقتل التنين؟! ربما كان هذا هو جوهره؛ لأن كل الذين من حولها يرتدون قناع الفرسان وهم جبناء في حقيقتهم. لا تذكر ماذا فعلت لتشد الغريب إليها، لكنها نجحت في ذلك. بعد أيام قابل والدها الذي، على عكس المتوقع، وافق بسهولة. لقد رآه سهل الانقياد وكان هذا مطمئنًا. ابن الصياد الذي عاش في الجنوب حياة بائسة وفقيرة، ويعيش الآن فوق سطح بيت بميت عقبة صار على بُعد خطوة من دنيا جديدة، لقد فتحت الأميرة قلبها والعالم. سيصير طبيبًا. وبمساعدة والدها سيملك عيادة كبيرة في ميدان التحرير. ولم يكن الغريب يفكر في هذه الأشياء. كان يتذكر فوق سطح البيت الحياة التي تركها شرق النيل، الدار وشجر البرتقال، وليلى التي استسلم لموتها. كان يتذكر الفتاة التي قدموها قربانًا مقابل بعض الذهب، كان يتذكر كل هذا دون أن يدري ما الغاية مما حدث. وفي لحظات التذكر هذه كان يرى المرأة التي تهز شوارع ميت عقبة بجمالها، امرأة فاتنة في الأربعين من عمرها، تمشي وفي يدها ابنها الذي

جاوز العاشرة. كان يسمع الحكايات عن تلك المرأة، كم يشتهيها الجميع، لكنها أبعد من أحلامهم. هذه المرأة التي سيموت زوجها، تاجر الحشيش، فتفقد الجمال والسطوة معًا. يزداد وزنها بسرعة. ويهاجم الزمن، كما الخريف، روحها. وتظل تحلم فيما بعد باستعادة لحظة واحدة من شبابها، المرأة التي تُدعى أم علاء.

وسينسى كل هذه الأشياء حين يتزوج سالي، سينسى القرية التي ولد فيها، ووالده الصياد، وعروس النيل الريفية، وليلى، ويحاول الاعتياد على الحياة الجديدة: السيارة الباهظة، العطور الغالية، وطريقة الأكل المهذبة، سينجح تارة ويفشل أخرى. وسالي: العروس الجميلة لن تترك زوجها أبدًا. ستنتظره كل ليلة حتى يعود إلى المنزل ويحتضنها، ويخبرها أن كل شيء على ما يُرام، فلا يفعل، فتخبره هي «كل شيء سيكون على ما يرام» فلا يرد. لم يتحدث كثيرًا. وكانت سعيدة رغم ذلك، تشعر بقلبها يقفز لما تراه، لما يبتسم تلك الابتسامة الصغيرة. وهو؟ هو الآن يمشي في شوارع الإسكندرية، يتذكر المرأة الميتة التي تنتظره في البيت حتى يعود، تقفز إلى صدره فيُمسك بها، وينظر إلى عينيها فيجدهما ممتلئتين بالدموع. يشعر برغبة في البكاء معها، ويستسلم لتلك الرغبة دون خجل. لماذا لم يخبرها مرة واحدة؟ «صدري ممزَّق بالرَّدى والذكريات». لماذا لم يحكِ لها أي شيء؟ ربما يفعل، ربما يجد المرء في الحكايات بعض السلام، والحرب تدور بضراوة بالخارج. أم علاء تنتظر نبيها كل مساء فلا يرجع، وتفكر في الانتقام بقسوة واحتضار. وأحدبها يفكر في العاهرة التي هربت من يده، والبابلي يستمتع باللعبة. ونجم الدين يعود إلى أبو الريش مهزومًا. والناس أمام مسجد القائد إبراهيم يتصايحون بشدة. جموع غفيرة تندد بكل شيء، والغريب يمشي في طريق العودة إلى محطة القطار. ها هو الشارع يمتد بلا نهاية. وفجأة يدوي صوت رصاص في الهواء، وقبل أن يدرك لماذا أو كيف، تسكن في منتصف الرأس رصاصة، فيسقط صريعًا. ويرى أخيرًا تلك اليد تمتد لاقتلاع ذلك الضرس. يصيح مندهشًا «أنا لم أمُت بعد!»، يصيح كثيرًا «يا ناس. أنا حيّ»، غير أن تلك الصيحات تلتهمها الريح.

(٧) فى رجاء القيامة

السيدة اليونانية فقدت نضارتها؛ ارتفعت إلى السماء مع قنابل الألوان التي علت المدينة. كان الجميع في الإسكندرية يحتفلون بالسنة الجديدة، يرقصون في الشوارع ويغنون مرتدين الملابس الملونة، وماري حزينة لوفاة تلك المرأة. لما وجدتها أول مرة كانت تغني أسفل بنايتها، لم تسمع غناءها لكن لحنًا خفيًّا لامس روحها. أخذتها إلى البيت وقامت بإطعامها ورعايتها، واستمعت بصبر إلى شظايا حكاياتها التي لم تستطع حفظها، بالضبط مثلما كانت تجلس على حجر جدتها وهي صغيرة، فتهمس لها « كانت أمنيتي أن أصير صماء مثلك لكن الحياة غريبة، والعالم مكان بارد». وترتجف الجدة لما ترى الثلوج تتساقط من حولها وتغطي كل شيء. ولليوم الأخير من حياتها كانت ترى نفسها، وهي طفلة، تغوص قدماها في الثلوج التي سقطت بغزارة بمدينة بالق أسير. لم تكن تعرف ما يجري لكن أباها كان ذكيًّا بما يكفي لمراقبة الأحداث وفهمها. قال لأمها وهما يشربان القهوة «علينا أن نهرب الآن». كانت معركة ساريقاميش قد انتهت، وكانت الصغيرة ترى الشتاء قارسًا. ذكّرتها هذه الثلوج التي أكلت روحها، رغم معطف الفرو، بعمها القاطن في مدينة سام صن البعيدة والحلوى والآيس كريم الذي كان يهديها إياه كلما رآها. حدثها قلبها أن العم لن ينجو، ولم تعرف مم، ولم تخبر أباها أنها تراه، دومًا في أحلامها، مدفونًا أسفل أكوام الثلوج.

ظلت تمشي بصعوبة فوق الثلوج، تراقب أشجار الجن والغابات من حولهم. وفي الليل كانت تنصت لأصوات تأتي من الأشجار. تبدأ بهمس خافت يشدها ويخفت لما تقترب. حذرها والدها من الذهاب وحدها إلى الغابة، قال «دعينا نحتمي بالنار». كانت النار موقدة في الحطب الذي قام بجمعه، كانت النار تتراقص كلما همست الأشجار. راقبتها الصغيرة في عين والدها وسألت ببراءة «لماذا نهرب؟». كان السؤال صعبًا على عقلها. لقد تركوا بيتهم في بالق أسير، ودميتها، وفراشها الدافئ، ومشوا في الثلوج. قالت أمها «نبحث عن آليس»، لكن الطريق لم يبدُ ساحرًا، بل مخيفًا وباردًا مثل الموت. في الصباح تابعوا المشي بعيدًا عن الأعين، كان والدها يخشى الجنود خاصة. ورغم أن جارهم التركي كان يحبها ويهديها الحلوى باستمرار سمعت والدها يهمس لأمها «ليس علينا أن نثق في الأتراك بعد اليوم»، قالها بعدما تم تجريد الجنود الأرمن من أسلحتهم ومصادرة أسلحة المدنيين كذلك، وبدت كأنها دعوة لمذبحة قريبة. وبالفعل كانوا يدخلون القرى. تستمتع الصغيرة بالدفء لليلة، لكنهم لا يلبثون أن يغادروها في النهار، ولما يغادرون يتم الهجوم على تلك القرية أو غيرها ونهبها. أحسَّت الصغيرة أنهم شؤم على أهلها، وفهمت أن هذا الشعور راود أباها أيضًا ففضَّل التخييم في الغابات على البيات في القرى. واستمر الحال هكذا، مروا جوار الجبل الأسود وتبدَّلت الأشجار من شجر الجن إلى شجر الكاراتشام والماشا والزيتين. كانت الأشجار تتبدَّل، لكن همسها لم يتوقف. ولما عجزت الصغيرة عن فهم لغة الشجر تمنت لو كانت صماء؛ تمنت هذا لأن الأشجار صارت تزعق في الليل، وعندما يغفو الجميع تمد أغصانها للإمساك بها فتختبئ في حضن أمها.

تنفست أخيرًا، أحست أن الهواء دافئ، والشمس بدأت تسطع بقرصها الذهبي. سألت والدها على مشارف مدينة إزمير «هل وصلنا؟»، فأجاب بحزن «نعم». والتفتت حولها، لم تكن حال المدينة أفضل من غيرها، الحشرات والفئران تملأ الشوارع، والوجوه صفراء، وعلى الأرض بُصاق

أخضر، حاولت أن تتفاداه بقدميها، لكنها لم تكن أفضل من المدينة بحال، كانت قذرة وتفوح منها رائحة الخراء. شدت أمها من جلبابها وقالت بحزن «لكننا لم نجد آليس!»، حاولت أمها طمأنتها، أرادت أن تشير ناحية البحر الذي يلوح من بعيد، حاولت أن تنطق فوقفت الكلمات في حلقها، وسقطت فجأة جثة هامدة. لم يشعر والدها بالحزن، دفنها في صمت وقال للصغيرة «رأيت عمك بالأمس في الحلم، كان يلقي عليكِ السلام»، ولم ترد الصغيرة، ظلت تحملق في قبر أمها وهي تمسك بالتراب في يدها.

بعد أيام لم يركب والدها معها السفينة، قال لها «سأشتري لكِ الآيس كريم وأعود»، وعلى حافة السفينة وقفت تراقب الميناء طويلًا، ولما أطلقت السفينة نفيرها شعرت بالفزع، كانت وحدها، ظلت تصرخ «انتظروا! أبي هناك»، والسفينة لم تنتظر. كان والدها مستلقيًا على الأرض من فرط التعب، يراقب السفينة من بعيد وهي تُبحر ويلوح لها.

وتحركت السفينة باتجاه عالم آخر، خال من الآلام، كما ظن والدها. لقد اتفق على كل شيء مسبقا مع أحد العاملين فوق السفينة ولما حان الجد تغير الاتفاق. طمع الرجل بالمزيد؛ قال ببرود «هذه النقود لا تكفي»، فأعطاه المعطف والقبعة التي يرتديها. رمق الأب طويلا ثم قال «بالكاد تكفي للطفلة»، فهز الأخير رأسه متفهما، وبدا غير راغب في الذهاب إلى مكان آخر. أوصاه بالطفلة وقال «فقط ضعها على أرض أخرى، هي قوية، وستعيش»، وعاد في الطريق إلى قبر أمها. ورأى الحشود تقودها العصا، للتهجير، وبدلًا من الهروب في الاتجاه الآخر سار ناحيتهم وامتزج بالمُشرَّدين.

باب السماء (١)

الشمس كانت أول من استقبلها، عندما حطت قدميها على أرض أسوان. شمس كبيرة، ضوؤها مثل حمم البركان، تحمِّمها وتغسلها من ماضيها. ولبنى في المدينة التي لا تعرفها، تتحفز أصابعها، وتشعر بنشاط عكس الوجوه من حولها. كان الناس كسالى، رأت ذلك وهي تمشي في شارع البازارات، ورغم جفونهم المتدلية شعرت بأعينهم تخترق ملابسها وتعرِّيها. «المدن الجديدة لا تعرف حقيقتنا» هكذا قالت في سرها، ولم تكن موقنة تمامًا. الوجوه الفرعونية تعرف كل شيء، الجدران تعرف، وأبناء هذه الجدران يعرفون. ومشت تحت الشمس وهي تردد «للعاهرات الليل، عتمة تسترنا». حتى العاهرات يبحثن عن ستر.

الظلمة التي ترجوها كانت داخلها، مثل صندوق صغير، أخضر وقذر. داخل هذا الصندوق حشرات ودود، هناك حيث بكت كثيرًا حتى انتشلتها يد. لا تعرف لماذا توقن أنها وُجدت هناك، في صندوق قمامة، حيث ألقتها أمها وتمنت لو أكلها الدود. وعادت بعدها بنفس مطمئنة لتضاجع عشيقها من جديد. عاهرة تلد عاهرة، دائرة تُعيد نفسها، فمن أخرجها من ذلك الصندوق لتعيد اللعبة؟ «وربما لم أخرج!»، قالتها وأحست أنها عارية لا تزال، والزبائن من حولها يلعقون حلمتيها. حاولت الهروب من فكرتها بالسؤال عن نجم الدين، الشيخ الداعر أين يكون يا ترى؟ ولما سألت الرجال من حولها حاولوا النظر في عينيها فوقعت أعينهم على جسدها. شجاعة الرجال تخور أمام نهد صغير، وربما تخبرهم رائحتها أنها عاهرة. مشت مسرعةً مبتعدةً عنهم، لم يدلها أحد. بدوا جميعًا كأنهم يسمعون الاسم للمرة الأولى «نجم الدين!»، «من هذا؟» وأحدهم قال لها بابتسامة واسعة «أنا نجم الدين» ولما بدأت تهرول مذعورةً صاح من بعيد «أنا صلاح الدين. أنا قطز، تعالي إليّ يا حلوة».

لم يساعدها أحد. كانوا يتعجبون من الاسم وطريقة لفظها. ومشت حتى وجدت النيل، وهناك أحست بمن يتبعها. وتذكرت قوَّادها الذي كان يطاردها وينتظرها كل مساء. والتفتت مذعورة فرأت صبيًّا هزيلًا ذا أنف طويل يبتسم لها في بلاهة ويهمس «يا فتاة! تبحثين عن الشيخ؟»، ورغم رائحة نفَسه الكريهة فرحت وهزت رأسها بلهفةٍ أن نعم، وجحظت عيناه كمن رأى ملاك الموت وقال «لا أعرف الشيخ»، والتفتت فلم تجد شيئًا مُريبًا، الناس يمشون بسلام من حولها. وعادت ببصرها إلى الفتى فوجدته واقفًا أمامها مباشرةً فتراجعت للخلف مذعورةً وأشاحت بيدها لتبعد تلك الرائحة عنها قبل أن يهمس قائلًا «لكنني أستطيع أن أدلك على مكان للعمل».
المكان كان «بار» يُطل على النيل، بجدران بيضاء. استندت بيدها إلى السور وشردت في الأمواج التي تحتضن بعضها برفق ومحبة. واحتضنت نفسها بذراعيها دون أن تشعر. ووقف الصبي للحظات شاردًا في شرودها قبل أن تراه فيأخذها إلى غرفة نومها. لم توافق بعد لكنها ظلت تفكر في عرض صاحب المكان الذي لم يرها سوى لدقائق وقال لها مطمئنًا «نادلة، لا أكثر». كانت ضائعة بين عَرض الرجل وعِرضها المستباح، وكانت تعرف الرجال جيدًا؛ يريدون كل شيء، خاصة حين يقولون «لا أكثر».
فتح الصبي باب الغرفة المتهالك. «حجرة أم جحر؟» تذكرت فجأة كلمات قوادها. هزت رأسها للصبي بامتنان وتأكدت من إغلاق الباب خلفها. كانت غرفة زرقاء وباردة، تفوح منها رائحة عطنة. مجرد غرفة للمأوى، لو وافقت على العمل ستجد غرفة أخرى أفضل وربما بيتًا جديدًا. «هذا هو بيتك»، ها هو الأحدب يُطل من الظلام. ولماذا تبحث عن بيت جديد وبيتها هناك؟ كم كانت حمقاء لما هربت. من فرط إرهاق السفر غفت على المرتبة القذرة بملابسها وحذائها، وحقيبة السفر نامت على صدرها الصغير. وفي الحلم رأت نجم الدين يسبح في حمم الشمس، ورأت قوادها يهرب من الشمس إلى الظلام. وهي واقفة في الظل تردد «للعاهرات الليل». تعلو كلماتها

حتى تنتشلها من الحلم، وتنتفض، وينتفض ذلك الصبي القبيح الذي تسلل إلى غرفتها لينتشي بملامسة ساقيها الناعمتين. تتراجع إلى الجدار وتقول «أنت؟»، يتراجع الصبي للوراء ويقول «تبحثين عن الشيخ؟»، تتعلق بالأمل مرة أخرى وتقول «نعم. أرجوك»، فيجيبها «لا أعرف الشيخ. لكنني أستطيع أن أدلك على فراش دافئ».
ولأيام ثلاثة مشت تبحث عن نجم الدين، سألت طوب الأرض، والشجر، والعصافير. ولم تجد للشيخ أثرًا. تذكرت صديقتها غادة لما حكت عن الشيخ «كان ورعًا وعطشًا إلى نهدي»، وتذكرت حكايتها الأخرى، ما اسم البلدة التي يسكنها؟ قرية لها ريش، مثل طاووس، كأن الشيخ شيطان حقيقي. «أبو الريش»، تذكرت الاسم فجأة وأحست أنها غبية جدًّا، وذهبت إلى هناك مرتاحة البال. ولم تجد للشيخ أثرًا.
في المساء، استلقت بجسدها على الفراش ورأت نجم الدين يفتح بابها. كان يرتدي عباءة زرقاء ويبتسم لها، فابتسمت بدورها. أرادت أن تقول «أبحث عنك لتجدني أنت!» لكنها صمتت حتى اقترب منها وقال «تبحثين عني؟»، فهزت رأسها أن نعم، فتابع «لا أعرف لي مدينة، لكنني أستطيع أن أدلك على فراش دافئ».

واستيقظت على ضوء الشمس. هذه المرة لم تحب الضوء، كانت تسمع مواء قطط الشارع في عتمتها. صندوق قمامة لا أكثر، هذا هو قدرك. وفكرت في العودة إلى القاهرة، أو العمل بذلك البار. رنت كلمات صاحب البار في أذنها «ليس عليك أن تجوعي كثيرًا»، عصافير بطنها تتعذب الآن، المعدة خاوية وكذلك الروح. لماذا عليها أن تقاوم؟ كان الاختيار سهلًا، القاهرة بعيدة جدًّا، وكذلك البار، وهي لا تقوى على السير؛ ستنام أسفل تلك الشجرة. كان النوم رحيمًا. ولما استيقظت رأت العتمة التي بداخلها تغطي السماء، ووجدت النيل جميلًا مثل قبر. وقررت أن ينبت الريش من ذراعيها وتطير.

وقبل أن تُلقي بروحها في نهر الموتى، أحسَّت أن هناك من يراقبها. التفتت إلى الخلف فرأت عيون تحدق في الظلام، كأنها أعين غربان. وكادت لا تُبالي بها، عندما تموت ستترك الوقت لها لتنهش جسدها كما تشاء. وبدأت تلك الأعين تبرق أكثر. وعرفت أنها ملائكة الموت تحاصرها، وأخذت نفسًا أخيرًا من الحياة قبل أن تقفز لتنجو بروحها بعيدًا عن هذا العالم.

أمطار قمح

يا أرورو، أنت التي خلقت هذا الرجل.

فاخلقي الآن غريمًا له يضارعه في القوة والعزم.

وليكونا في صراع مستديم لتنال «أوروك» السلام.

ورأى البابلي ذلك الغريم صورة من الإله آنو، لقد غسلت أرورو يديها وأخذت قبضة الطين ورمتها في البرية، ومنها خرج أنكيدو – غريم جلجامش- للحياة. كان مكسوًّا بالشَّعر، لا يعرف الناس أو البلاد، ومع الغزلان يرعى. رآه البابلي كحيوان غير مروَّض، ورأى الصياد يخشاه. يمر الصياد بالوديان حتى يصل إلى كوخ صغير، وهناك يخبر والده الحكيم بأمر الرجل «ثمة ند لجلجامش!»، فيأتي الرد «أخبر جلجامش بالأمر وسيُرفق معك بغيًّا»؛ وحدها العاهرة تروض الوحش وتقهره. وعند هذه النقطة أغلق البابلي الكتاب وخبأه في المكتبة وقال لنفسه «الآلهة البابلية أكثر حكمة، وتعرف عن الإنسان كل شيء».

كان البابلي يحب هذه الملحمة كثيرًا، يقلب صفحاتها بحرص شديد، ولما ينتهي يخبئ الكتاب في أبعد رف. لم يحب جلجامش أو أنكيدو. ورغم المعركة التي انتصر فيها جلجامش على عدوه فقد رآه مهزومًا. الآلهة أكثر حكمةً وتوقًا للدم، والإنسان حشرة.

في كل مرة يقرأها يشعر بالحزن والألم. انهزم أنكيدو أمام جلجامش، هكذا بدا الأمر، غير أنهما في النهاية صارا صديقين مقربين. خاضا حروبًا عديدة خلدتهما معًا، والخلود لا يكفي لاثنين. وكلما وصل البابلي – في القراءة- إلى موت أنكيدو أحس بالسعادة وأحس جلجامش بالحزن. يهمس البابلي لجلجامش «أنت أحمق جدًّا، هزمتك الآلهة في النهاية»، الآلهة التي رأت أن لا بد من ند لجلجامش كي لا يصير إلهًا، ولما غلب نده وصارا صديقين انهزم. وحدها الآلهة ليس لها ند أو مثيل. وتذكر الأحدب وشعر بالغضب، وبدأ يصيح «أهذا ند لي؟»، ويضرب يده في الجدار. «أهذا الأحدب ند لي؟»، وبقوة أكبر يضرب يده حتى تدمى تمامًا. يسمع نباح «عشتار»، كلبته السوداء من نوع « Great dane» ولها بقعة بيضاء على شكل قلب عند الصدر. أحسَّت الكلبة بصاحبها وبدأت تلعق دماء يده، وتئنُّ بجنون، وتقفز للأعلى حتى احتضنها وهمس في أذنها «وليس لك ندٌّ يا طفلتي». وتذكر عندما جاء الأحدب الأحمق إلى البيت مهددًا، وأخرج المطواة بغباوة، فلم يفعل البابلي شيئًا سوى أن ضحك. وقفزت عشتار فجأة من مرقدها، بغضب جنوني،

وانقضت على الأحدب الذي سقط أرضًا من الذعر وبدأ يتوسل كطفل صغير. وهرب في الزقاق الضيق وعشتار تطارده متلذذةً بفأرها الصغير.
وجلس البابلي يتحسس عشتار أسفل رقبتها، وقد بدا هادئًا تمامًا، وعيناه تلمعان أسفل عدسات النظارة. كان يرى الأحدب طفلًا ضئيلًا، عاريًا من الندوب، وبحدب صغير على ظهره يتجنب الأطفال في الشارع.

حدب

كان الأحدب طفلًا ضئيلًا حقًّا، وبحدب صغير – ثقيل الظل- على ظهره. يجلس وحده في الظل ويراقب الأطفال الآخرين وهم يلعبون في الشارع. يراقبهم وهو يتحسس خصلات شعر دمية صغيرة قذرة، وجدها ملقاة أسفل شرفة طفلة سمراء. كانت الطفلة قبيحة ودميتها تشبهها. وأحبها. أحب تلك الدمية وصارا صديقين منذ ذلك الحين. يتحادثان، يحكي لها أسرارًا كثيرة. حكى لها ضرب والده لأمه، وحكت هي كم يزعجها أنفها المكسور. لم يتركهما الآخرون للاستمتاع بالحكي. جاء ولد بصحبة ثلاثة آخرين وظل يسخر منهما. لم يرد الأحدب لكنهم لم ينتهوا. ولما استشاط غضبًا وقرر ضرب الولد صاح «شيبوب» فظهر ذلك الكلب الأسود.
هرب الأحدب. ترك الدمية المسكينة وحدها. لم يطارده الكلب وبدأ يتلذذ بنهش جسد المسكينة حتى لم يبق منها شيء. كانت مخلوقة من القطن، ولم يعد أنفها المكسور هو أكثر ما يزعجها. وقف الصغير في الظل يراقبها بقلب أسود وحزين. ينتظر اللحظة المناسبة للانتقام. تلك اللحظة التي لم تأتِ قط. كان يسمع صيحات الأولاد من بعيد وهم يقولون «شيبوب. انظر إلى هذا الولد المسخ، وكوم اللحم النائم على ظهره»، فيسارع شيبوب بالعدو، ويطارده، ويسارع الأحدب بالهروب. وعلى هذه الحال كانت الحياة، أكثر قسوة من موت دمية، وأبعد بكثير من أنف جميل.

بار قديم

في البار كان الأحدب يجلس، ممسكًا بزجاجة بيرة، ويغني في نشوة بالغة «خمسة عشر رجلًا ماتوا من أجل صندوق»، لم يكن يعرف من الأغنية سوى هذه المقولة، ولا يذكر متى سمعها للمرة الأولى. وكان البار قديمًا وممتلئًا بالناس الذين يثرثرون في كل شيء، ثمة رجلان ناما رغم هذه الضجة وهما يحتضنان زجاجتي البيرة، ورجل كُهنة يمسك كوب بيرة ويجلس خلف الأحدب. يسعل ويبصق كثيرًا. ولم تطل جلسة الكُهنة إذ نهض وهو يردد «خمسة عشر رجلًا ماتوا»، والأحدب هناك يشدو بألم «من أجل صندوق». ومشى، بظهر محني، مستندًا إلى عصاه. وكلمات الأحدب تعلو من ورائه. كان يفكر جديًّا بماذا خرج من الحياة؟ مال يكفي للسُّكر كل ليلة. ولم يكن هذا كافيًا.
وشُبْرَا لم تكتفِ بعد من الحياة، كانت شوارعها ممتلئة. سيارات تتحرك سريعًا، وأضواء تتراقص، وأناس يمشون، وأطفال يقفون في الركن، لا يراهم الكُهنة. لم يكن يرى سوى الأرض التي تقوده إلى البيت. وتساءل» لماذا لا بد أن يرجع؟»؛ لم يعد يطيق البيت بعد رحيلها. ماذا كان اسمها؟ «لا اسم لها. لا اسم للموتى» هكذا صاح غاضبًا. ومشى ينظر إلى الأرض. «خمسة عشر رجلًا ماتوا من أجل صندوق». وظن أن الأغنية تتردد في رأسه المخمور. ورأى فجأة عملة معدنية صغيرة على الأرض، خمسين قرشًا، أو أقل. لم يعد بصره قويًّا كما كان. انحنى في سعادة لانتشال تلك العملة، لكنها تدحرجت فجأة للأمام. مشى بضع خطوات وانحنى، سمع فقرات ظهره تُطقطق ولم يبال. حاول الإمساك بها لكنها تدحرجت من جديد. وضحك الأحدب، وقد خرج من البار، وقال في

سره «هذا الرجل نكتة». كان الأطفال هناك يضحكون وقد ربطوا العملة بخيط رفيع؛ كانوا يشدون العملة كلما حاول الإمساك بها ثم صاحوا «جرب ثانية يا عم دهب».
في اليوم التالي. الأحدب جالس يتجرع زجاجة بيرة كاملة مرة واحدة، وينصت إلى أم كلثوم وهي تغني. كان البار قديمًا، ثمة صور لفنانين تملأ الجدران، وكراسي خشبية يخيل أنها ستقع بصاحبها في أي وقت. منذ مدة قصيرة والأحدب يداوم على المجيء هنا، ويحاول الهروب من أفكاره. هناك في البيت يتذكر لبنى، وهنا يحاول نسيانها، وفي الحالتين يسكر بها. يتذكر البابلي أيضًا، ولا يعرف أي الشعورين أصدق: الفقد أم الخسارة؟ لم يرد أن يغني هذا المساء ويرثي الرجال الذين فقدوا صندوقهم، لكنه سمع فجأة «خمسة عشر رجلًا ماتوا من أجل صندوق»، والتفت فرأى الكُهنة سكرانًا تمامًا ويصيح بحماس جنوني «ماتوا من أجل صندوق!». ولم تمض لحظات حتى جلس الرجل الكُهنة مع الأحدب، وبدآ يتجادلان في سكر طويل.
الأحدب والكُهنة

- خمسة عشر رجلًا ماتوا من أجل صندوق!
- تخيل يا ولد! ماذا كان في ذلك الصندوق؟
- الكثير من الذهب، وفتيات عاريات، وسيف ذو نصل حاد.
- لا شيء من ذلك.
- ماذا إذًا في رأيك؟
- ثلاثون قطعة فضة.
- تتحدث كأنك تملك ذلك الصندوق.
- أنا بالفعل أملك الصندوق.
- ثلاثون قطعة فضة. لماذا؟
- عدد كاف ليُغري المرء.
- لأي شيء؟
- أي شيء.
- الشيطان لا يملك فضة.
- ومع ذلك فهو يملكنا جميعًا.
- قل لي أيها السيد ماذا تملك أنت؟
- لا أستطيع أن أخبر لصًّا.
- ماذا تقصد؟!
- أستطيع أن أشم رائحتك، وإذا كنت فضوليًّا، منذ زمن طويل، كنت أملك سجنًا.
- كنت تملك سجنًا! واليوم؟
- المال. الكثير من المال.
- ها أنت ذا أخبرت اللص.
- آه. أنا مُسِنٌّ جدًّا، وأنسى.
- تملك المال إذًا يا عم دهب؟
- نعم، أملك الكثير، هل تريد البعض؟

- لكنك تبدو مثل شحاذ.
- نعم. هكذا أبدو، والحقيقة دومًا عكس ما يبدو.
- إنك تُذكِّرني بقصة قرأتها ذات يوم.
- أعرف هذه القصة. السلحفاة والأرنب؟
- بالطبع لا.
- الأرنب وكلاب الصيد؟
- ماذا؟!
- لا بُد أنها تحكي عن أرنب.
- لا. هي لا تحكي عن أرنب أو ضفدع.
- إذًا احكها لي.
- كنت سأحكيها لك لو لم تذكر ذلك الأرنب الملعون.
- ربما تحكي عن الشيطان.
- هي تحكي عن الشيطان بالفعل.
- لا فرق بينها وبين قصص الأطفال إذًا.
- حسنًا. ماذا كنا نقول؟
- أنا رجل مُسِنٌّ. لن أتذكر.
- كنت تعرض عليَّ المال.
- لا أذكر. لماذا أفعل ذلك؟
- هذا هو السؤال.
- حسنًا. هل تستطيع أن تطبخ لي؟ منذ ماتت زوجتي وأنا لا آكل جيدًا.
- بالطبع لا أستطيع. فليرحم الله زوجتك.
- لا أريد من الله أن يرحمها، أريدها أن تسكن في الجحيم.
- لماذا؟
- لأنني سأكون هناك.

باب السماء (٢)

السماء لونها أزرق كأنها بحر. إسكندرية تطل من روح السماء. والسحب تجري فيها كأنها سفن، كأنها زبد. الشمس شعلة نار للعارفين. ونجم الدين يقف على قمة جبل أبو الريش، فاتحًا صدره للريح، ذراعاه مفتوحتان- عن آخرهما- لاحتضان الكون. صاح «يا أيها المساكين، هلموا لتروا الحقيقة مرتين». كان الدراويش يجرون صاعدين الجبل، يتسابقون للذهاب إلى نجم الدين. تنجرح أقدامهم الحافية من الصخور الحادة. تلون دماؤهم الأرض، ويتركونها إشارة لمن سيأتي بعد.

كان الشيخ مغمض العينين ويدور كراقص التنورة. يرى قبر كاتي البعيد وباقة ورد أزرق، يرى قبرها ولا يعرف الطريق إليها. حد الغابات، حد السماء، حد النيل والإنسان. والأحزان لا حد لها. كل شيء متجل، والشيخ يحلق في السماء عاليًا. والكون يدور على إيقاع دُف، الكون يطير في ريشة طائر، ويسكن تلك العينين الثاقبتين.

اقترب الدراويش من الشيخ وازدحموا، كان برفقتهم بعض الأطفال الذين ينظرون بدهشة إلى الشيخ ويتهامسون. ومن بين هذا الزحام انعتقت لبنى ومشت باتجاه نجم الدين بينما حط صقر على

قفاز الشيخ. وضعه في قفص والتفت إليها، وأمر الدراويش أن يتركوهما. ووجدت لبنى نفسها تضرب صدره بغضب وتقول «كنت تعرف أنني هنا وتركتني أقتل نفسي»، وتركها الشيخ تضرب صدره كيفما شاءت حتى هدأت وقال «بل تركتك لنفسك». لقد أنقذها مرة، وأفزعها الأمل، فإذا كان اليأس ما تبغيه فلماذا تلوم الشيخ؟ ومع ذلك أنقذها دراويش الشيخ. احمرّ وجهها خجلًا لما تذكرت ليلة أمس. كانت الأعين تقترب منها قبل أن تقفز في المياه، لم تكن تعرف العوم؛ كان جسدها ثقيلا، وروحها أثقل، لذا وجدت نفسها تهوي. وفتحت عينيها مرة فرأت الدراويش يحملون جسدها، وفتحتها مرة أخرى فوجدت نفسها على فراش دافئ وأمامها امرأة سمراء بشعر أبيض تقول «يقولون أنك هنا لأجل الشيخ، وأنا أقول بل لأجل الحقيقة جئت»، وأطعمتها من حساء ذي رائحة غريبة، وأكملت «من يجرؤ على قول الحقيقة؟»، نظرت إليها لبنى بارتياب وسألت «ما الحقيقة؟»، ابتسمت العجوز وقالت «هذا الشيخ ليس سوى دجال، جده كان وليا، أما هذا فليس سوى أراجوز»، قالتها وأخرجت بعض الودع وهمست «لا تخبري أحدًا بسرّي». وألقت الحجارة على الأرض، ونظرت إلى لبنى لحظة قبل أن تقول «هل يكون شيخًا من لا يسمع همس الأرض؟»، سألتها لبنى وقد نفد صبرها «ماذا ترين؟». فضحكت العجوز ثم قالت «قد تضحكين، لكنها الحقيقة، من يتبع الشيخ لا ينجو من السفر؛ ومثلك أرق من الطرق».
لقد حذرتها تلك العجوز من الشيخ، وظنت أنها مجرد امرأة مجنونة. ولما طلبت المساعدة، الآن، من نجم الدين سألها «لماذا أفعل؟»، وتذكرت كلمات العجوز فأجابت بصوت مرتعش «لأنك تسمع همس الأرض». جلس الشيخ على صخرة، وعدل من العباءة الزرقاء ثم قال «لا أحد يسمع شيئًا، أنا ضائع مثلك»، ووجدت نفسها تقول غاضبةً «إذا تركتني لن يغفر الله لك». وصمت نجم الدين. كان يفكر: هل يغفر الله للعاهرات، للقوادين، للفقراء واللقطاء والمشتتين في الأرض؟ ربما يفعل. لكن هل يغفرون – هم- لله ضياعهم؟

(٨) مدينة الريح

أمام باب أم علاء، وقف البابلي، في عتمة، يتأمل الخشب المتآكل وجيش النمل الكبير الخارج من شقوق الجدران. صعد الدرج المكسور مستندًا إلى الجدران، يتتبع النمل المنظم حتى وصل إلى بيتها. مزيج من الثوم والبصل والعتمة. وكظل لا يُرى ظلَّ واقفًا يراقب الزمان، عيناه تضيقان وترصدان التفاصيل الصغيرة. على ماذا راهن الشيطان؟ الأرض، الملك، الفردوس؟ لا شيء. لا شيء غير لذة اللعب. ورأى البابلي هذه النملة تحمل درعها، وسيفها، وتمشي في طريقها إلى حتفها من أجل قطعة سكر. كان يلهو بها، يعيدها إلى الوراء خطوتين ويقدمها للأمام خطوة، كأنها قطعة شطرنج. أخبرها «سأطرق الباب. تعالي معي»، لكنها اختارت الشقوق. فقال في سره «نملة ذكية».

وتركها وراقبها وهي تتسلل، من الشقوق، مثابرة. وقال «نملة مقاتلة». الحرب تجعلنا نعرف أنفسنا، والسلام يجعلنا أكثر غباءً وكسلًا. أن تدهس عدوك، أن تنتصر، يعني أن تكون وحدك. لا ضد، لا ند، لا مثيل. وحدك. ولا سبيل للوصول إليك. لبيك يا خيل، يا فيل، يا غراب، لبيك يا نمل. رمل ممتد بلا نهاية، صحراء، والأرض رقعة شطرنج. كم عدد القطع؟ قال البابلي «ملكان، وثلاثون قطعة».

ما إن دخلت تلك النملة جحرها حتى فتحت أم علاء بابها. كانت في حال يرثى لها، أسفل عينها هالة سوداء، وجفناها متدليان. عيناها محمرتان وباكيتان. أشرقت ملامحها لما رأت البابلي. سألت بلهفة «سيدي! ماذا تريد؟»، فأبعدها برفق وقال «ثمة نملة تعرف كل شيء»، ودلف بيتها. قالت «نملة!»، «ولعلها ذات النملة التي أفسدت مزاج النبي» هكذا أجابها. وبدأ يتحسس الجدران المتربة في محاولة للوصول إليها، وأم علاء ترمق البابلي وتمنع نفسها من البكاء. كان قلبها يبكي. منذ توقف الأحدب عن زيارتها وهي تذبل أكثر. كل مساء تنتظره. تجلس وحيدة على فراشها، تراقب الساعة وتكاتها. «تك. تك». كم ارتبك قلبها وانقلبت حياتها بعد وفاة رجلها. كان فتوة قويًّا. ملك، في حضوره يخور الرجال، وفي حضورها تخور قلوبهم. لكن خريفها جاء باكرًا. لم تكن تذكر ابنها، لكنها تذكر أحدبها. كان قويًّا. كان يُنسيها عقارب الساعة لما يضاجعها ويظل داخلها طويلًا؛ فلا تصير وحيدة. نظرت إلى البابلي وتساءلت «ماذا تريد؟» فأجابها «أبحث عن جرح»، ومد يده ليمسح دموعها. قالت «أعرف جروحًا كثيرة». جسدها يستجيب ليده. همست «ما الذي يجعلني أخبرك بأي سر؟». «ماذا تريدين؟». «أريد أن أستعيد أنوثتي».

كانت غرفتها ضيقة، وعندما احتضنها اتسعت. المذياع القديم، الأريكة ذات الرجل المكسورة، البرواز الفارغ المعلق على الجدار. كل هذه الأشياء استعادت بريقها. ورأت نفسها في البرواز بكامل شبابها. كانت تضحك والبابلي يقبّل رقبتها، يمسك نهديها ويُعيد صياغتها من جديد. أحست برائحة طيبة تملؤها، وعسل كثير يسيل من شفتيها. جسدها صار ألين، صار أطيب. يا لهذا السحر! كان جسدها يستجيب للبابلي في تناغُم، يعلو ويهبط، يتأرجح مع اللحن. السرير صار أقوى ولم يصرّ. كل شيء كامل. والبابلي يراها، يرى خلخالها القديم يزين ساقيها، يراها وهي ترقص بقدمين حافيتين. شعرها يتطاير، جسدها رشيق مثل غزال مرسوم بحناء على ظهرها. وثمة قطة سوداء تتمسح في قدميها. وبدأت تتأوه، تلمس صدره، جسده. تشد على ملاءة الفراش بقبضتها.

تصرخ في لذة، في جنون. كل شيء كامل. وهي ترى شعرها يتطاير حولها، أسود ساحر. ترى ظلها على الجدار يلون كل شيء. كل شيء كامل. تصرخ «أكثر.. أكثر»، يسافر بها بلدان لم ترها. تلامس روحها السماء. ولدقائق طويلة ظلت مستلقية على الفراش، عارية وعرقة، ترتعش وتضحك بلذة. على هذه الحال ظلت بينما رحل البابلي مرددا «مدينة الريح تسقطها نملة».

دخان

الضوضاء من حولها، الصوت الأول لجارها القاطن في الطابق الأعلى يعنف امرأته بسبب بيضة مكسورة. الصوت الثاني لبواب العمارة الذي كان يمسح الدرج ولما رآها تنزل ابتسم لها ابتسامة كبيرة وهو يشتمها كثيرًا. وما إن خرجت من العمارة حتى صاح الأطفال «ماري.. ماري»، ومر جوارها رجل يقود دراجة، عاكسها، فجرى الأطفال وراءه، رجموه بالحجارة حتى وقع. كان الرجل يرى فستانها القصير وساقيها الجميلتين والأطفال يرون قلبها. وكان زحام الشارع مزعجًا وأصوات الباعة تعلو ، ومن بعيد كان ناقوس الكنيسة يدق. ولم يكن طريقها إلى هناك. الرجل الكهل الجالس أمام المخبز تأكد من الساعة، عندما رآها، وقال «السابعة تمامًا!»، والمرأة الهزيلة التي تنشر غسيلها في هذه الساعة كل نهار قالت للكهل «مسكينة». كان جميع الناس يعرفون المساعدات التي تقدمها ماري للفقراء، والمرضى. ويعتقدون أن الله لن يغفر لها. الفردوس حكر لهم. هم لا يفعلون خيرًا كثيرًا؛ لا يملكون ما يكفي. وماري تملك المال والذكريات الحزينة. في هذه الأيام صارت تهتم باللاجئين السوريين. تعرفت إلى طفلة صغيرة تبيع المناديل في القائد إبراهيم. أمسكتها الطفلة من يدها دون كلام وسارت معها. لم تحكِ الصغيرة شيئًا. وظلت تبكي بصمت. وظلت على هذه الحال حتى قادتها إلى أختها الكبرى. كانت فتاة جميلة عمرها لا يزيد عن الثامنة عشرة تبيع الورد والفل للعاشقين، وهي تتأمل السلام على وجوه الفتيات عندما يهمس الرجال في آذانهن بالكلام الحلو. لما رأتها ماري شعرت بقلبها يتألم، ورأت جدتها وهي طفلة صغيرة تحط قدميها للمرة الأولى على أرض الإسكندرية. تتأمل الغرباء من حولها والوجوه التي لا تعرفها. من يومها وماري تساعد تلك الطفلة وأختها الكبيرة. تهبهما المال فيرفضان، يرغبان في الحكي فلا تفهم كلماتهما لكنها تفهم دموعهما. الصغيرة تبكي وهي تردد «أمي»، والكبيرة تحتضنها. اليوم تمشي ماري في الطريق إليهما، يراها الطبيب الساكن في البناية المقابلة ويقول «مسكينة هذه الفتاة، قلبها المريض يقتلها». كانت ماري مريضة بالقلب. ترفض القيام بأيِّ عملية جراحية، كلما أوجعها قلبها عرفت أنها لا تزال حية. قلبها يخفق، قلبها يتألم من أجل طين الله الحي.

المسيح هو من يملك تخفيف آلامها. إذا شعرت بضيق في التنفس أو ألم في الصدر غنى لها الترانيم حتى تهدأ، ولما تهدأ تصلي لتنتهي آلام هذا العالم. كانت آلامها تتوقف أحيانًا أما آلام العالم فلا. ربما سينتهي كل شيء حين تعلو وتجلس يمين الرب في الملكوت. الموت حل سحري، كالنوم، يخفي الآلام مع غمضة عين.

واليوم مشت ماري حتى وصلت إلى القائد إبراهيم، ووجدت الطفلة الصغيرة على الأرض. لم ترها منذ أيام. تصمم الصغيرة على الحكي، رغم علمها أنها صماء. هذه المرة لم تقل «أمي»، ولم تتذكر بيتها المهدوم لكنها قالت «أختي»، قالتها بوجع، ونظرت إليها ماري باندهاش. وجدت الطفلة طريقة للتواصل معها. رسمت على ورقة بيضاء طفلة تبيع المناديل وأخرى تبيع الورد.

وضعت علامة x كبيرة على فتاة الورد فشحبت عينا ماري، وظنتها تقصد موتها، غير أن الصغيرة هزت رأسها نافية. ورسمت جوار أختها قطارًا ودخانًا.

بقعة حبر (١)

لسنوات كثيرة ظل الكُهنة يذكر عاملة «المساج». أنامل يدها الرقيقة التي تحول الأشياء إلى فقاعات هواء ملونة، تظل تراقبها بعينين بريئتين قبل أن تلمسها بأظفرها المزين بالمانيكير الأزرق أو الأسود. كانت تختار ألوانها بعناية، وكذلك فساتينها القصيرة التي تكشف عن ساقين ناعمتين. كانت الفتاة تمشي كطفلة، تضحك كطفلة، وتقتل ببراءة وبرود. لم يعرف أسرارًا كثيرة حول حياتها سوى أصلها الإيطالي واسمها «آنا ماريا» ولم يجرؤ أن يسأل أكثر. كانت الأوامر صارمة ومخالفتها ستؤدي إلى المعتقل بتهمة التخابر والخيانة العظمى. ورغم وضوح الأوامر، وشدة الظلام في شوارع القاهرة، والحرب التي يلوح دخانها، ظل الكُهنة مُتيَّمًا بها.

لا يذكر كيف استطاعت تلك الفتاة أن تقلب كل شيء، عام ١٩٦٠ عندما رآها أول مرة. كان رجلًا طيبًا، يملك محل مجوهرات في وسط البلد، ومتزوجًا من سيدة تدعى فاتن. يحبها ويخلص لها، ولم يفكر في خيانتها، كانت الفكرة في ذاتها خطيئة. لكنها غيرت كل شيء، تلك الفتاة التي تمشي كطفلة، تضحك كطفلة، وتقتل ببراءة وبرود. أرادت أن تشتري قلادة من ماس، فأخرج لها قلادة زرقاء، وما إن وضعتها على جيدها اشتهاها.

كانت الفتاة تعرف كيف تمشي، تضحك، ترمش، تغمز، تعض شفتيها. وكانت تفعل ذلك بتلقائية. تختار كلماتها جيدًا وتنطقها بلكنة إيطالية تزيد من غوايتها. لم يفهم كيف سقط أمامها هكذا! فاتن سيدة جميلة وأنيقة، تعرف كيف تمشي، تضحك، ترمش، تغمز، تعض شفتيها. ولطالما أحبها وحتى اليوم، لكن الفتاة الإيطالية كانت تعرف أسرارًا في جسده، كأنها فينوس، إلهة للحب، للمتع الخالصة، النقية والسيئة في آنٍ. بقُبلة من شفتيها جعلت الحياة مفهومة وسهلة، بقُبلة واحدة بررت الخيانة والشرور، فصار منسجمًا مع العالم.

بعد أيام بدأت الصورة تكتمل. كانت الشموع تملأ أركان المنزل، وفاتن جالسة هناك تنتظره. لما رأى عينيها الباكيتين شعر بالقلق، سألت بصوت مبحوح «هل تخونني فعلًا؟»، وتعجب من سؤالها واستنكر. قالت «لا

تكذب»، وكذب عليها كثيرًا. سألها عن سر هذه الفكرة الغبية، ومن زرعها في رأسها. ظلت ترتعش. مسح على شعرها حتى نامت. ولم يشعر بالذنب تجاهها.

في اليوم التالي كان في شقة آنا ماريا، وكانت نائمة على حجره وفي يدها كأس خمر عندما رن الهاتف. رفعت السماعة دون أن تضعها على أذنها وقالت «حبيبي. هذه المكالمة لك». أخذ السماعة متعجبًا وقال «آلو؟»، فجاءه صوت رجل يصرخ معنفًا «امرأتك تبكي لك بالأمس واليوم تخونها مرة أخرى أيها القذر». شعر بالدهشة وأراد أن يسأل من أنت، غير أن الرجل قال كمن يقرأ الأفكار «لا تسأل». وقبل أن يفهم شيئًا فاجأه بالقول «سآتي بعد خمس دقائق. عليك أن تغير هذه البيجاما التي ترتديها؛ إنها مضحكة». قالها وأغلق الهاتف مباشرة.

بعد خمس دقائق بالضبط كان هناك من يطرق الباب، لم يجد وقتًا ليسأل آنا ماريا من يكون القادم أو كيف عرفت بأمر المكالمة! كان مشوشًا تمامًا، ولما فتح الباب رأى رجلًا أصلع ذا شارب ينتظر. دخل الرجل دون استئذان. جلس على الأريكة وأشعل سيجارة وقال «هل تعرف من

أكون؟»، في ظرف آخر كان يمكن أن يخمن، أما الآن فقد كان غبيًّا. البلد في حال حرب، والأعداء في كل مكان. قال الرجل «أنا صلاح نصر»، وكان الاسم عاديًّا، ولم يعرف أن هذا الرجل هو رئيس المخابرات العامة، وأحد الضباط الأحرار الذين دارت الأغنيات عنهم.
لما عاد إلى البيت كان يريد البكاء، رأى فاتن تجلس في الركن وتبكي. ماذا تعرف يا ترى؟ أخبره ذلك الأصلع أنها لا تعرف شيئًا بعد. لقد هاتفوها وأخبروها «زوجك يخونك». لكنها لم ترَ شيئًا من الفيلم السينمائي الذي صوروه له مع آنا ماريا، ومن هي آنا ماريا؟ وكيف أوقعوها في شباكهم؟ كان مشوشًا ويفكر في أوامرهم، كانوا يريدونه أن يخدم الوطن. هددوه بخسارة فاتن إن رفض، ولأجلها – لا الوطن – رضخ لأوامرهم. بعد أيام تغير اسم آنا ماريا وصارت فتاة أخرى، ليست أكثر من عاملة «مساج». اعتذر لفاتن وقال «سأسافر لشهور قد تطول». ولم يرها منذ بدأ العمل بوابًا لفيلا في الهرم. ثلاث سنوات كاملة قضاها في تلك الفيلا، ينقل كل ما يسمع بين اعتماد خورشيد وزوجها. يساعد رجال صلاح نصر على زرع أجهزتهم داخل الفيلا، وينقل كل الهمسات التي ينطقان بها. لم يسمع شيئًا يشي بتورطهما مع أجهزة مخابرات أخرى، كانت هناك رائحة أسرار في الأمر، وشكوك لم يستطع أن يهمس بها.
كان يرى آنا ماريا ولا يستطيع الكلام معها. لم يكن يريد سؤالها عن الأمر، ماذا يفعل هنا؟ وماذا يريد صلاح نصر؟ كان يريد من عاملة «المساج» قُبلة فقط. لا يزال يشتهي شفتيها، ويريد أن يغفر لها. لكن أجهزة التصنت تملأ الأركان، وللأخطبوط ثماني أذرع. وظل الحال هكذا حتى زارهم، رئيس المخابرات، ذات يوم. تحرك – ظل الكُهنة- لفتح البوابة الكبيرة للسيارات الثلاثة، وراقبها، وراقب عيني الممثلة المفزوعة عندما رأت صلاح نصر، ولم ينسَ تلك النظرة التي لم تترك وجهها منذ أن أُجبر زوجها على تطليقها، ظلت في عينيها، ببريقها المخيف، وهي على التلفاز، تحكي عن فلسفة القواد.
الجنس أقصر الطرق للحصول على المعلومات، في الفراش ينسى الرجل من يكون. وتنسى المرأة اسم أبيها. على الناس أن يتحابوا. على القواد أن يمد لهم يده حتى يرتقوا ويتعلموا فنون السمو الروحي. وكلما ازداد جوع الرجل أو المرأة صار القواد أعظم، وأغنى، وأكبر. يسقط كل الملوك ويبقى هو رئيس هذا العالم، رئيس سلطان الهوى. هكذا تكلم القواد.
كانت أيدي القواد تمسك بنهود الفتيات، العذارى، والأرامل، والمطلقات. ونجمات السينما اللاتي يحضرن حفلات الجنس والسُّكر في فيلا بسموحة، وأخريات ينجحن في الهروب. ومن لم تستطع الهروب تقع – فيما بعد- من برج الموت.
وصاحبنا يهرب قبل عام ١٩٦٨ من قبضتهم. يحاول العثور على فاتن فلا يجدها، يكاد يجن، يهاتفهم فيقولون «فاتن تحب الوطن أيضًا، والوطن يحبها، وتقبل قربانك»؛ فيغضب، تفور دماؤه، يكتب على الحائط كل أفكار القوادة، يصير سكيرًا عاشقًا للنبيذ الأحمر. وكلما شرب دم القواد الأعظم، الميت، صاح بكل قواه «أريد المزيد».
وصاح الكُهنة مخمورًا «أريد المزيد». ضحك الأحدب الذي كان يمشي جواره، ولم يفهم لماذا يصيح هكذا ذلك الكُهنة المجنون، وعاد يغني «ماتوا من أجل صندوق»، وأفاق الكُهنة من شروده مذعورًا، تأمل الشارع واللافتات التي تملأ كل ركن. آيات قرآنية، وشعارات، وصورًا لرجال ذوي لحى. مصاحف مُعلَّقة ورموزًا لحيوانات: أسد، تمساح، ثعبان، فأر، ضفدع، فيل. وللناس حظهم من زهر النرد.

قطعة فضة
- ما رمز السطوة؟
- المرأة.
- بل العصفورة يا ولد.
- لأنها تعرف كل شيء؟
- بل... لأنها تغني!
بقعة حبر (٢)
للناس حظهم من زهر النرد، ومن أسمائهم، ومن مواقع النجوم. والأحدب لا يؤمن بشيء. يدعى جوهر، ولكن جوهر أي شيء؟ الإنسان فارغ جدًّا. ولا يريد أن يمتلئ بالمعرفة. ما قصة الكُهنة؟ وصورة تلك السيدة المعلقة بلا رأس. لقد صارا يتقابلان كثيرًا، الأحدب عاطل، والكُهنة يعده بامتلاك الصندوق. انتزعت أم علاء بيتها وعاهراتها وطردت ابنها بعيدًا. خرج فارغ اليد، الواحدة، لأن الثانية كانت تمسك بالعاهرة السمراء.
وظل الأحدب يتأمل شقة الكُهنة. كانت على حالها منذ سنين. الأثاث قديم، وأنيق، وعلى الجدران صور كثيرة لامرأة. ربما كانت آنا ماريا، وربما كانت فاتن. والأحدب لا يعرف شيئًا عن أمر الاثنتين. المؤكد أنها المرأة التي تمنى لها الجحيم. وحاول الأحدب ألا يهتم بما فعلت، أو من تكون. ورغم ذلك ظل السؤال يُلحُّ؛ من تكون يا ترى؟ ظل يردد في سره «لا يهم». كانت صفقة الكُهنة هي الأهم. بيت دعارة جديد، يعود بنا إلى زمن العهر الجميل. كان الكُهنة يخبره بشرود عن جميلات السينما، قبل كثيرة، وأحضان، وكاميرات تراقب في الظل. هن ساحرات في الفراش كما في شاشة السينما. وشرد الأحدب وبدأ يفكر في كلمات الكُهنة «ستصير قوادًا، ستصير رئيسًا للعالم»، عالمان متقاربان، يمكن للقواد أن يمسك بالعملة، ويلقيها في الهواء ويتلقفها، ولا يموت مشنوقًا على غصن شجرة. القواد تلميذ طيب للساسة والملوك. القواد يمسك بالحقيقة، وللحقيقة ألف ظل.
وقال الكُهنة «تعال لنعيد الزمن معًا»، كان الأحدب مخمورًا، ولم يكن يتوقع أن تفعل أم علاء ذلك، تطرده من بيت الدعارة بعدما توقف عن زيارتها. الحمقاء لا تفهم أن الرزق بيد الله، والله لا يترك أحدًا للجوع. الله يرسل الإشارات؛ لم تك صدفة أن يقابل ذلك الكُهنة. يسكران، ويغنيان في الطريق، ويترنحان، ويضحكان كثيرًا. كان الأحدب يضاجع السمراء كل ليلة، وأثناء ذلك، يتذكر لبنى، ويفتقد نهديها. لا بد أن يحارب البابلي ويستعيدها، وكان عرض الكُهنة مغريًا: بيت جديد، وعاهرات زهيدات، وجميلات كخيل عربية أصيلة، ومال، ورباط للخيل. لكن ثمة شرط واحد. قال الكُهنة «سأحكي لك أحجية، وأريدك أن تعرف السر».
ثلاثة وجوه
امرأة عرجاء، وثمة ندب أجمل من نهد، لما رآها الكُهنة قال «يا لها من امرأة بائسة»، ولم يهبها الله الحظ. امرأة لها جسد مليء بالصدف، وجلد خشن، ودم محترق. لقد أحبها الكُهنة لما رآها، وقال «امرأة لم يحبها الله تستحق رحمتي». يالقبحها الجميل! لماذا نعشق الجميلات فقط؟ يسيطر علينا الشكل، الشعر، النهد، الخصر، النحر، والمؤخرة. وندعي صدق الحب بعد ذلك، فلماذا لا نحب امرأة قبيحة؟ لقد أحبها الكُهنة وقال «امرأة لم ير روحها سواي تستحق محبتي». وكانت روحها أجمل، كانت روحها نهرًا عذبًا، ووجهها صحراء.

امرأة عاهرة، وثمة نهد أجمل من صلاة. ربما أخطأ الكُهنة تذكرها. عيناها تنطقان بعهرها، نظرتها تشتهي يده أو صدره أو جسده. عطشانة على امتداد الخط. تتلوى في صدره، تتسلل أسفل جلده، تهمس بالشتائم التي يحبها. نحن من الطين خُلقنا، والخطايا حلوة.
امرأة قديسة، وثمة صلاة أجمل من كأس خمر. لم تكن فوقها هالة من نور، لم تكن مزيفة كقديسات عصر النهضة. أحبها الكُهنة. كان جسدها يفوح بعطر غريب، ولم تتدنس كلما ضاجعها؛ ولأجلها قرر أن يتوب. هكذا تبدو الحقيقة أصدق، لكن كل ذاكرة عاهرة لصاحبها. لا يذكر منها سوى صورتها، وهي تمشي على أربع، حتى تصل إلى حضن آخر، والفضل يعود للرجال المخلصين، والوطن. من كانت تلك المرأة؟ عرجاء أم عاهرة أم قديسة؟
كان الأحدب ينصت للحكاية مفزوعًا. كم تقتلنا الحكايات التي تشبهنا. وقد شعر بالتوجس تجاه الكُهنة. هل يعرف أمر ملكة أو لبنى؟ قال في سره «عليّ أن أحذر». لكنه وافق على اللعب، سيعرف السر، ويملك البيت والعاهرات والمال. سيكون قردًا مُطيعًا، يرقص عندما يأمره السيد الكُهنة؛ فقط حتى يأتي الشبع.
حمامة تصيد صقرًا

نجم الدين جالس ينظر في عيني صقر، هكذا أسماه منذ الليلة التي اصطاده فيها. لقد أطلق حمامةً في السماء وربط بها شبكة بلاستيكية على ظهرها ولما اشتهاها الطائر المسكين وقع. ياللغواية! كل شيء يبدأ عندها وينتهي. ونظر في عيني صقر وقال «لا تخجل من حقيقتك». كان مستسلمًا تمامًا للهواء، وشعره المجدول يطير. ولبنى وراءه تراقب البيوت أسفل الجبل. كل شيء مسالم. حمام يطير، وعصافير، وسماء لا يعكرها شيء سوى رجفة انتابت نجم الدين، ففتح عينيه مذعورًا، وتراجع للوراء زاحفًا وهو يصرخ «لا».
هرولت لبنى إليه لتحميه من شبح لا تراه، كان نجم الدين مذعورًا كطفل صغير، ووجدت نفسها تسأل «أهذا هو منقذي؟». ولم تعرف ماذا يرى. شاحبًا يهمس بشفتين مرتعشتين «دثريني». واحتضنت العاهرة شيخها وأحسَّت بأمومة لم تفهمها. قالت «لا تخف؛ هذا محض شبح». ودون أن تقصد اختارت المفردة الصحيحة. ولما هدأ الشيخ سأل «ما هذا البرد؟»، أسوان شمسها منجم ذهب، شمسها شعلة نار للعارفين. وشعرت لبنى أنها تستعيد روحها وهي تضم الشيخ، عن قصد، إلى نهديها وتقول «أنا هنا. لا تُذعَر»، ولما لامس الشيخ جسدها اطمأن.
ما الذي أفزع الشيخ؟ لقد بدا ما رآه للوهلة الأولى مخلوقًا شيطانيًّا. من تراب الأرض خرج، وبدوائر من غبار سار، والغضب يفور من عينين ممتلئتين بالكراهية. ولم يكن شيطانًا، كان إنسيًّا، كان، ولم يعد كذلك. في البداية لم يتعرف الشيخ على الشبح الذي يطارده، لقد رآه في سوق أسوان، وجبل أبو الريش، وعلى قضبان القطار. لم يكن يعرف الطريق لكنه كان يتبع رائحة الشيخ في كل مكان. وللشيخ رائحة مميزة؛ مزيج من المسك والنعناع. حتى أنف رجل ميت سيعرف طريقه إليه. ولقد رآه عند النيل ينظر إلى صفحات المياه ويحاول أن يلمسها. كانت روح ليلى لا تزال بها، وهو لم يجد إلى السماء طريقًا.
ها هو شبح الغريب يمشي تائهًا في المدينة، ينظر إلى الحانات باندهاش، يسأل «ما الذي جاء بي هنا؟»، جلده ترابي والغبار يفوح من جسده. ينظر إلى بقايا هذا الجسد. يمسك جلده، كوم من تراب يسيل كما الماء من أصابع يده. يقف أمام زجاج المحلات وينظر إلى المانيكان، يمد يده في محاولة

لمسها، ولا شيء آخر. يشم رائحة في الهواء محملة برسائل إلهية، آه، آلهة من جديد؟ لقد مات ولم ير أحدًا. الرسائل جلية للعين، رموز كثيرة لا يفهمها، تطير في الهواء، ولا بد أن يتبعها. يمشي وراءها مسحورًا حتى تقوده إلى نجم الدين. فوق الجبل تارة، في البيت، في الغابات، في الصحراء، دائمًا تقوده إلى الشيخ، ولما يراه ينقض، دون إرادة، غاضبًا. ماذا فعل بك يا رجل؟ لا يدري. ولماذا تحن إلى النيل؟ أنت وحدك يا غريب، والموت لم يُنجك! لقد رأى دائرة هناك، وأرواحًا كثيرة تدور معها. كانوا يقتلون بعضهم بعضًا من أجل العروج، والباب شاهق، أزرق، ومغلق. ولقد عدا إليهم وصارعهم جميعًا وانهزم، لا من أجل العروج، بل ميتة واحدة هي كل ما يبغي، لا بعث، لا خلود.

في إحدى المرات كان الشيخ جالسًا مقرفصًا أمام التلفاز، والأخبار بين القتلى والقتلة والشهداء. فإذا بالكاميرا تقترب ببطء نحو وجوه عديدة ولا شيء يجمعها غير جدار. وجملة مكتوبة فوقها «لن ننسى أبطالنا»، من بين هذه الوجوه توقفت الكاميرا على وجه مألوف. مال الشيخ بصدره للأمام ودقق النظر مذهولًا ولم يصدق، في هذه اللحظة نفسها كان شبح الغريب يجلس مقرفصًا جوار الشيخ ويحاول التعرف على صورته في التلفاز. ولما أحس الشيخ بتلك الومضة التفت إلى يساره فلم ير أحدًا. رأى فقط ذرات صغيرة من غبار تتطاير كأنها أجرام في فضاء أسود، وتلمع بألوان لا مثيل لها، كأن سر الكون فيها.

لم يكن الغريب يعي شيئًا. باهتًا وترابيًّا يمشي في الأسواق. يراقب الناس، بضائعهم وتوابلهم وعطورهم. ومن كل الروائح التي يشمها يغيب مع تلك الرائحة، فلا يستطيع مقاومتها ويسعى لمطاردة الشيخ. في إحدى المرات فكر «لماذا؟ لماذا ندور؟»، وأحس أن هذه الجملة قالها في حياة أخرى. وضحك وقال «ديجافو!».

في أوقات كثيرة يسافر الغريب مع الريح وينسى أمر نجم الدين ثم يعود بغتة لينقض من جديد. هذه الأيام كان الشيخ يقضيها عادة مع صقر، يحلق في السماء ويصيد أي شيء. يرى الصقر روح الغريب تحلق جواره فيطمئن الشيخ. هذه المرة لم يحلق ولم يطمئن. هذه المرة جلس وحيدًا وأحس برغبة في الحكي. كانت لبنى تجلس وراءه وتفكر في صاحبة الودع وغادة. آه، كم تفتقد صديقتها ذات الشفتين الشهيتين! ماذا تفعل الآن بصحبة ذلك الوحش؟ ورأتها في حضن الأحدب يُقبّلها ويلعق نهديها وهي تتأوَّه باستمتاع. واستعاذت بالله من الشيطان اللئيم. وجاءها صوت نجم الدين «وماذا لو صدقت عيناك؟»، التفتت إلى الشيخ ولم ترد. من أنت؟ ساحر أم دجال؟ ولم تعرف. وبدا في عينيها هشًّا. كانت عينا الشيخ غائمة بالدخان. تستطيع أن تقدم المساعدة، هي عاهرة، وكل عاهرة أم. من فراشها يُولد الرجال وقد عرفوا أنفسهم، هذه هبة السماء إليها، الحقيقة الوحيدة التي تعرفها عن نفسها.

ومشت بقدمين حافيتين وخفيفتين فوق الحصى، كان الألم لذيذًا. ووقفت وراء نجم الدين وسمعت همسة حارة يزفر بها «كاتي!»، ورأت دموعًا كثيرة يحاول إخفاءها، وَيُتْمًا أكبر من هذا العالم. وبدأت تتعرى من ملابسها فوق الجبل، وقالت بصوت هامس «أنا هنا»، وعرفت أن الشيخ سيضاجعها طوال الليل، أسفل النجوم المتناثرة التي تلمع في السماء، وأسفل شهاب عابر لن يراه. ورأت في هاتين العينين السوداوين محبة كبيرة لن يعترف بها أبدًا. وضاجعها بقوة، وهي تتأوَّه، ومدت يدها لتُمسك بحجر صغير، ومن الحجر سمعت نفير قطار.

(٩) نقطة دم

في الطريق يمشي البابلي، مرتديًا حذاء أسود بسن رفيع. يمر جوار مقاهٍ يشدو منها العندليب. كراسي خشبية وروائح دخان تملأ الهواء، وضوء شمس ينثال على وجوه الناس. «يا فتاح يا كريم»، الوجوه مكفهرة. الرزق ضيق. والحياة أضيق من طفولتنا. ضوضاء السيارات العابرة تغلب العندليب، يحاول أحد المسنين الجالسين الإنصات إلى الموسيقى لكن أحدهم يغير القناة إلى قناة رقص. وسمع البابلي ذلك الرجل يشرد في الذكريات ويقول «هناك، في الصحراء، كانوا يسمحون لنا بمشاهدة هذه القنوات فقط». وقال البابلي في سره «لا عجب». على الجندي أن ينسى الصحراء، الشمس الحارة، الأفاعي، العقارب، والحدود. ما قيمة البيدق في رقعة الشطرنج؟ نقطة دم واحدة. وللحصان ثلاث نقاط دم. وللقلعة خمس نقاط دم. يقول الناس «يحيا الجندي حتى يموت»، كلنا نعيش حتى نموت؛ فلماذا يكون للملك ألف نقطة دم؟ ولماذا يبعث البيدق، في نهاية الرحلة، خير ممن عاشوا الحياة بطولها وعرضها؟ أناس كثيرون لا يعرفون الحقيقة. وأمام الملك يطأطئون رؤوسهم، ولا يسمعون البيدق حين يموت الجميع ويبقى وحده ويصرخ «لمن الملك اليوم؟». البيدق روح الشطرنج.

على العاهرات أن يرقصن على جثة البيدق المسكين، على قادتنا أن يسكروا لينسوا هموم الوطن. من تكون أيها البابلي؟ ماذا فعلت لعراقك؟ هربت في طفولتك مع أمك وتركت أباك يموت وحده. الوطن يعرف حقيقتك، لأن هناك رجالًا مخلصين يتجسسون دومًا علينا. الوطن يعرفك؛ أنت لست ابن أبيك، بل ابن امرأة، لقيط وجبان.

كان العنوان المكتوب في الورقة واضحًا رغم خط أم علاء المرتعش. تفاحة التهمتها بنهمٍ حتى تستعيد شبابها. ولم يبالِ البابلي بأحزان امرأة في الخريف، كلنا سيأكلنا الزمن كتوتٍ حلو. المهم أنها كتبت العنوان، حلوان، وها هو يسير في شوارعها، ولم يكن يتوقع أن يرى محل الخضار هناك، محل الحليب هنا، وبينهما المخبز. لا بد أن الأحدب وقف وراء تلك الشجرة ليصورها، وبعدها تسلل إلى تلك البناية. من الذي رآه يا ترى؟ لا يهم. ألا تزال ملكة تسكن ذات البيت؟ ربما سافرت إلى قطر حيث يعمل زوجها براتب كبير، أو إلى لبنان لتقوم بعملية تجميل. لكن من يستطيع مداواة الروح؟ جرح الروح أسود، قاتل، ويكبر في الظلام.

كيف ستصل إليها يا بابلي؟ الأرض تتحول إلى رقعة كبيرة، كل قطع الشطرنج التي يملكها، تقف على أرض ضده، تختار عدوه، تحشد صفوفها فوق التل. وقصر الأميرة فوق التل، نافذتها مغلقة، ولا تنتظر أحدًا. وربما لا تكون هنا من الأصل، لا شيء سوى شبح يتجول في الفراغ، أم علاء تجزم بنها هناك. سألها البابلي كيف تعرف ذلك، فعجزت عن الشرح. هذه أشياء تعرفها المرأة، فقط تعرفها، هكذا. ولأيام ظل البابلي يأتي هنا، نهارًا أو مساء، وينتظر طويلًا فلا يجد تلك النافذة تفتح. لا شمس تدخل ذلك المنزل. كان هناك صبي صغير يصعد كل نهار، إلى البناية، ممسكًا بجرائد ومجلات، ويبدو مفزوعًا حين ينزل. ولما رآه البابلي أحس أن ثمة نقطة ضعف يمكن أن يستغلها، سر، ولا حكاية دون سر.

الشيطان يصرخ «من أنت أيها البابلي؟»، الجميع يرونك عريانًا، لقيطًا، مهزومًا وملعونًا بفتنة كبرى. وقال البابلي «أعرف أنها بالأعلى»، وظل ينتظر ذلك الصغير. ومقابل القليل من المال

سيقول الطفل «ميكي، بطوط، عم دهب، بندق، أنا مثلها أحبهم»، مثل من؟ الشيطان يصرخ أكثر: من أنت، أيها البابلي، حتى تلين لك الحكاية. هل تملك النرد؟ لا نرد. الحياة بين اللونين، ومن يملك البيدق يملك كل شيء.
وبدأ يمسك بالقطعة الأولى: القلم. يرسم على ورقة بيضاء، مربعات عديدة، وفتاة ترتدي قناعًا، تستطيع أن تطير، تحلق بعيدًا، وتهرب من القفص الذهبي. العالم مفزع. ندوب وجهها تذكرها بذلك. وبدأ يمسك بالقطعة الثانية: الممحاة. يمسح بقايا الحروق، والندوب، وينظف الروح من غبار الذكرى. وبدأ يمسك بالقطعة الثالثة: اللون. قطعة السكر التي تخدعنا وتشدنا.
وابتسم وهو يقرأ الحكاية التي ألفها قبل أن يضعها أرضًا ويرن جرس الباب. نزل الدرج وانتظر. الباب لن ينفتح. لن ترى ملكة يا بابلي. ربما لا تكون سوى كذبة، لماذا كان اسمها ملكة؟ ياللحظ القاتل! هي القطعة الأهم، فلم تركها الأحدب تسقط هكذا؟! ظل البابلي ينتظر طويلًا حتى سمع تكة الباب، ورأى ظل ملكة وهي تنحني لتناول الأوراق، ولم يستطع أن يرى منها شيئًا. وأحس أن ثمة ابتسامة تعلو وجهها وعرفت أنها هي البطلة الخارقة التي تقصدها الحكاية، وضمت الورق إلى حضنها طويلًا قبل أن تغلق الباب وراءها، وظل الشيطان يصرخ: من أنت أيها المغرور، المتهكم، المتعالي، المختال، المنتشي، المجنون؟
شجرة الملك (١)
بين صفَّي شجر ممتد، في شارع مظلم، مشى الأحدب. لا غربان تنعق أو تراقب فوق الشجر. لا أحد يملك الحقيقة هنا. ثمة نسمة هواء باردة أحس بها الأحدب كروح ملكة، لماذا يتذكرها هنا؟ ومن تكون تلك المرأة التي يريد حقيقتها؟ نقود كثيرة ووعود يلقي بها الكُهنة، فلماذا؟ لا بد أن في نفس يعقوب شيئًا. هل نسي ملكة بالفعل؟ لم يعد يحلم بها، تلك التي كانت تمشي برقة في هذا العالم، فخدش الأحدب روحها، وأيقظها، فأنقذها من براءتها وطهرها.
وبدأ يتتبع الأرقام؛ بناية رقم (٢٨)، (٢٩)، وأخيرًا ها هي، الفيلا المنشودة. ووقف من بعيد يراقبها في الظلام. المعادي حي راق ورائق المزاج. سمع موسيقى بيانو تعلو، وراقب الأشجار التي بدت، من بعيد، كالعفاريت. ورأى البواب ينتفض فجأة ويلقي التحية على امرأة أنيقة تغادر الفيلا. حاول النظر إلى ملامح تلك المرأة فلم يستطع، كان الظلام كثيفًا، فتح عينيه عن آخرهما، ورغم الظلام بدأ يرى. طوبى لمن يرى أفضل في الظلام!
كانت المرأة تضع كحلًا يخفي تجاعيد عينيها، وعطرًا يفضح أنوثة لم يسرقها منها الزمن. لا بد أنها المرأة التي يبحث عنها الكُهنة أو يهرب منها. ما قصتها؟ أحس الأحدب أنه كالحمار الذي تشده جزرة مُعلَّقة على طرف عصا. وكانت الإجابة معلقة على غصن شجرة كعادتها. راقب المرأة وهي تركب سيارة سوداء تنطلق بها، وأراد أن يقترب من الفيلا حتى يعرف مالكها، لكن البواب كان واقفًا كالمسمار، يراقب القادمين بشك. والأحدب لا يفهم لماذا يلعب الكُهنة لعبة كهذه، لماذا لا يخبره بالحقيقة مباشرة؟ هذه امرأتي التي خانتني، أو امرأتي التي خنتها، أو هي الغواية بعينها. يبدو كمن يعرف الحقيقة كاملة، ولا يهبها لأحد. على الناس أن يجتهدوا حتى يصلوا إلى الحقيقة أو ما تبقى من مرآتها المنكسرة. وظل الأحدب على هذه الحال أيامًا، يراقب تلك المرأة، ويراها تخرج في ليلة الثلاثاء في كامل أناقتها، ولما تعود في الليل يلمح دموعها. ظن أنها تذهب إلى المقابر لزيارة أحد أبنائها. هل للسيدة الأنيقة ابن أو زوج؟ في إحدى المرات مل المراقبة وقرر أن يتتبع سيارتها ويعرف إلى أين تذهب. ورغم أن أوامر الكُهنة كانت قاطعة «الزم

الشجرة»، والشجرة خرساء، تركها وحيدة وابتعد عنها. ومشى وحيدًا، تحاصره أسئلة لا حصر لها، وكل إجابة في الأصل سجن.
كانت سيارة التاكسي، تطارد سيارتها، عندما أشار السائق إلى سيارة أخرى تطاردهما؛ نظر الأحدب في المرآة فأدرك صدق السائق. كان في تلك السيارة رجل يجلس في الخلف، ويتخفى بالظلام. من يكون؟ ظلت السيارة تطارده، وهو يطارد تلك المرأة، حتى وصلا إلى فيلا في المقطم. وهناك شعر بالحيرة؛ هل يطاردها أم يطارد من يطارده؟ ورأى تلك السيارة تبتعد ما إن قرر الاقتراب منها، ورأى كذلك تلك السيدة تدلف إلى الفيلا يفتح الحرس أبوابها، وعرف أنه لن يدخلها. لم يفكر مَن صاحبها؛ كان مجرد التفكير في ذلك مفزعًا. وقال السائل «هل نعود إلى الشجرة الآن؟»، ونظر الأحدب إلى السائق مبهوتًا ولم يرد.
لما عاد الاثنان إلى البيت تشاجرا، قال الأحدب «لماذا تطارد تلك المرأة؟ وقال الكُهنة بهدوء مستفز «ولماذا يطاردك ذلك الرجل؟»، هل هناك من يطارده؟ شعر الأحدب بالشك. ربما كانت حيلة من الكُهنة. آه ذلك المراوغ، كم يحب الألغاز! وازداد غضب الأحدب «لا أحب اللعب». وأحس الكُهنة بالحزن، الإنسان ذلك البائس، كيف يعيش دون لعب؟
وأمسك الكُهنة بزجاجة خمر وجلس يشرب منها، وظل الأحدب واقفًا. وقال له «تريد أن تعرف حل اللغز؟ فأجاب الأحدب «نعم»، ضحك الكُهنة وقال «أعرف لغزًا يحل اللغز السابق!». الجزرة لا تزال هنا، الأرنب دوما يشتهي الجزر. والجزرة على رأس أسد، والأسد هو ملك الغابة كما تعلم. الأسد يزأر، يصيح ويأمر، ولا أحد يعصي. الأسد يملك الأشجار، الأعشاب، الحيوانات. والأرنب لا يشتهي سوى هذه الجزرة. وأفعى تراقب المشهد من أعلى شجرة، وغزلان جميلات يملأن عرين الأسد، وثعلب حكيم يلزم جحره. فماذا يفعل الأرنب؟ الأحدب يشد شعره، يصيح «مثلي لا يفهم الألغاز!». انظر إلى وجهي وقل ماذا ترى»، ينظر الكُهنة ويقول «لا أرى أحدًا». الأرنب يفكر في حيلة جيدة، الجزرة عالقة في تاج الأسد، والأسد هو ملك الغابة كما تعلم، الأرنب يفكر في سرقة التاج ليلًا، الغزلان جميلات ويملأن عرين الأسد، والثعلب حكيم يلزم جحره. يمسك الأحدب بزجاجة خمر ويجلس مرهقًا ويصيح «وجدتها. الأفعى هي الحل!». الأفعى تبدِّل جلدها كل يوم. الأفعى شيطان. الأفعى

امرأة. ماذا تفعل الأفعى؟ يحس الأحدب بالغباوة. يصيح «إذا كنت لا تراني فلماذا تريد مساعدتي؟». ينتظر الكُهنة لحظة ثم يقول « لماذا خلق الله العالم؟». الأرنب طلب مساعدة الأفعى، وفي الليل تسللت الأفعى خلسة إلى العرين، لدغت الجميع، هزمت الأسد ولم تخرج. فكر الأحدب «أنا لا أعرف لماذا خلق الله العالم، هل تعرف أنت؟»، ابتسم الكُهنة وقال «لا أحد يعرف». الأرنب أمام عرين الأسد، ينتظر، تمر سنوات حتى يرى أخيرًا، مع ضوء النهار يشاهد الأسد يخرج إلى الغابة، وغزلان جميلات يملأن عرين الأسد، وثعلب حكيم يلزم حجره. «والأرنب؟»، هكذا سأل الأحدب. فابتسم السيد الكُهنة وقال ببساطة «صار أفعى».
كانت آخر كلمات الكُهنة تتردد في رأس الأحدب، وهو يمشي في الطريق عائدًا إلى الشجرة. «أريدك أن تعرف سر هذه المرأة وحدك. أريدك أن ترث الوجع»، ربما لا أحد يعرف لماذا خلق الله العالم، لكن الأحدب يعرف كيف يعيش في ذلك العالم. في لعبة السلم والثعبان كل الطرق تؤدي إلى الله، وكلها تؤدي إلى الشيطان أيضًا.

فخ
ليس هناك شيء، رغم الوهج الذي يضيء في نهاية المدى. كان البشر يبدون – في عيني الغريب- كوميض السيارات السريعة، ضوء لا يخرجك من النفق، وسماء أبوابها زرقاء وموصدة. ثمة ومضات تبدو واضحة، وروائح يستطيع أن يشمها. رائحة الإسكندرية منها، رائحة البحر والملح. كانت روح الغريب تقف أمام البحر شاردة في الزبد الأبيض. لا يرى الزرقة أو الأسماك، لا يرى سوى صورة العَمَّة. لقد لفظت الزبد في نفسها الأخير. ورغم صورتها لم يذكر اسمها، أو قصتها، أو لحظاتها الأخيرة. ونزل إلى الماء البارد. وتذكر قطعة طين تلك التي تنقصها عينان جميلتان، ولم يعرف اسمها. لا معنى للأسماء، هنا، وجوه بلا ملامح. هي ميتة، فلماذا لم يرها؟ لم ير غير أرواح تحاول العروج في دائرة كبيرة بالأعلى، أرواح متشابهة ومطموسة الأعين. أرواح على هيئة ماء أو هواء أو تراب أو نار. نار؟ عيار ناري انطلق فصار ترابًا. من قتلك أيها الغريب؟ «الإسكندرية طروادة أخرى، والعالم محض صحراء يا صديقي». أحس نجم الدين بالفزع وهو يمشي في شوارع الإسكندرية، عندما رأى ذلك الشبح يمشي في الطرقات ويبحث عن شيء مفقود. وأحست لبنى بشيخها وقالت «ماذا ترى؟». ولم يقل الشيخ شيئًا، اختبأ وراء جدار فجأة، ووقف لبنى في منتصف الطريق. المارة يعبرون من حولها، والغريب ينقض على تلك الرائحة التي يعرفها أكثر من أي شيء.
ووجدت لبنى نفسها تجري مع نجم الدين، وسط المارة والسيارات، تطاردهم أعين المارة في دهشة، وأعين رجال الشرطة. يلقي الشيخ بالعمامة ولا ينظر إلى الخلف، والغريب يعدو وهو يتشمم الهواء، لن ينسى تلك الرائحة، مزيج من المسك والنعناع. وتوقف الشبح أمام عمامة نجم الدين التي ألقى بها أرضًا، مسكها وتشممها، بينما اختبأ الشيخ ولبنى وراء جدار. وراقبا الشبح المجنون وهو يقفز على العمامة ويهرسها في الأسفلت. بعدها يحاول أن يتتبع تلك الرائحة التي فقدها فلا يمسك بها. وعاد يهيم، يمشي بشرود في شارع سعد زغلول، حتى يصل أمام لافتة زرقاء، وعرف نجم الدين اسم الشارع وحده. قال «أنطونيادس». وسألت لبنى من جديد «ماذا ترى؟»، فقال الشيخ «أرى خطيئتي». لا معجزات إذًا. لقد سافر إلى الإسكندرية على إثر وساوس تلك العاهرة. قالت «المدينة لن تخذلك». والمدينة صارت أخرى. لم يكن شبح الغريب هو الميت الوحيد الذي يراه. لقد رأى ألكسندر أيضًا. كجمرة وقعت في الماء يمشي في المدينة، يتأمل البنايات والشوارع، دون أن يتعرف إليها. يصيح «هذه ليست مدينتي». فلا يراه أحد. وهيباتيا كانت تعدو في الشوارع مذعورة، كرياح حاصرتها غابة مظلمة، وتهمس «أريد الهروب». كانت المدينة ملاذًا للموتى.
ودخل شبح الغريب إلى الشارع، ووقف أسفل بناية ماري وظل يتأملها، على أمل...! على هذه الحال ظل الغريب، وكذلك نجم الدين ولبنى، وراء الجدار، يراقبان، حتى نزلت ماري وعلى رأسها حمامة، وحده الغريب رآها. ومشى وراءها في استسلام، وهي تمشي بخفة فوق الأرض. وحكى الشيخ ما يراه. فتأملتها لبنى وقالت «هذه الفتاة عاهرة، أرى روحها». وقال الشيخ «بل قديسة، أرى روحها». والتفت الاثنان إلى بعضهما، كانت المسافة التي تفصل بينهما سفر، سألها الشيخ «الآخر، من يكون؟» فقالت ببراءة «مرآة». وقال الشيخ: «لا مرآة، لا فردوس، لا جحيم».

ومشى الغريب وراء ماري، كانت تفكر في الفتاة السورية التي هربت، وأحس قلبها بالوجع. سقطت دمعة من عينيها فتلقفتها يد الغريب، ولما لمست دمعتها يده أنبتت وردة بنفسجية. ورأى نجم الدين الوردة في يدها بغتة وقال «للفتاة أسرار»، وظلوا يتبعونها حتى وصلت إلى المقابر. وهنا تركها الغريب مذعورًا لما رأى الغربان، وظل نجم الدين ولبنى منتظرين حتى غادرت ماري، واقترب الشيخ من الضريح الموضوع أعلاه وردة بنفسجية، وارتعش عندما قرأ اسم كاتي قبل أن يسقط في البكاء.

حرب الورود (١)

الورود في كل مكان، على الأرائك والجدران، وفي خصلات شعرها كان ثمة وردة. ملكة ترتشف قهوتها وأمامها البابلي يجلس، يراقبها، ويتأمل جمالها الفتَّان. نصف وجهها الأيسر محترق عن آخره، والنصف الآخر آيةٌ في الحسن. الضد يبرزها ويجعلها أشهى، ورغم جمالها كان البابلي يصوب النظرات إلى النصفين بإنصاف. أراد أن يراها كاملة، وهي لم ترَ نفسها. لم تكن ثمة مرآة في المنزل، أو صورة معلقة على الجدران. الفتاة تعيش وحدها، تهرب من ضوء الشمس، والذكرى. تسقي الورود كل نهار وهي تصلي لها «أريد أن أصير مثلك». الورود تخفي بيوت العنكبوت الذي يعشعش في روحها، الورود تكذب عليها. وانتظر البابلي حتى أخذت رشفتها الأخيرة وأمسك فنجانها وبدأ يقرأ ما يرى. «امرأة وراء سقوط آدم»، وألقى نظرة على ملامحها ورآها تبتسم بسعادة غريبة وتطارده بعينيها، دار حول المنضدة وتابع «امرأة وراء سقوط آدم، لكن من وراء سقوطها؟»، في الفردوس ورود كثيرة وأنهار من خمر ولبن وعسل. فتيات من نور يسبحن عاريات أمام آدم، وملائكة تحلق بالأعلى. حراس يقفون بالخارج، ممسكين برماح وسيوف. الرجال أقوياء، الرجال يحبون الخمر، والدم، على حد سواء. الرجال يفهمون صليل السيوف ولا يسمعون همس الورد. لا بد أن إبليس تسلل إلى الفردوس، في هيئة لم يتوقعها أحد، والملائكة لم يكذبوا، وجدوا الأفعى مقتولة بالفعل، بينما ارتدى الشيطان صورة أخرى. ونظر البابلي إلى ملكة ثم قال «وردة لا أفعى هي عدونا». وابتسمت ملكة وفهمت أن الرجل يعرف شيئًا.

وعاد البابلي ينظر إلى فنجانها، ورأى صورًا كثيرة تصلح للحكاية، فتاة تقف وحدها في الركن، ووراءها شيطان يقدم لها وردة، وبطل ممزق الصدر إثر طعنات السيوف. لا بد أن خطيبها تركها، هكذا خمن البابلي. وبدأ يتابع الحكي « بلقيس.. هي أنتِ». بلقيس دون كل النساء جلست على العرش، ولما رآها سليمان عرف أن مدينتها أقوى من مدينة الريح. سليمان كان يملك الجان والعفاريت والنمل، كتائب من النمل لا حصر لها، وبلقيس كانت تملك حكمتها. وألكسندر كان يملك من النمل ما يكفي أيضًا، فمن كان يستحق أن يملك العالم؟

وبدأ البابلي يحكي عن بلقيس، مدينتها التي تشرق فيها الشمس بعدل على الجميع، لا فرق بين أحد. مدينة تحكمها امرأة لا تبالي بغير الورد الحقيقي في الشوارع، والزنقات، والعطور التي تفوح من كل ركن. فوق الأسوار نساء جميلات يرقصن، ورجل يعزف بالقيثارة وهو يراقب الحمام يحلق فوق القباب الملونة. لا أحد يقتل، لا أحد يشتهي امرأة غيره، لا جريمة هنا سوى لمن يكسر قلب امرأة. تجعلهم بلقيس من خدمها المقربين؛ كرجال بلا ماء.

ولما حكى البابلي أكثر عن بلقيس أحست ملكة بالملل، أخذت فنجانها من يده وقالت «ليس عليك أن تكذب»، فتفاجأ البابلي. ماذا لو صار العالم في يدي بلقيس؟ هي لا تهتم. تريد أن تحلق بعيدًا

عن التاريخ. أمسكت بأوراق الكوميكس التي رسمها، وبدأت تنظر إلى الفتاة التي تطير.
كان خطيبها يحب الرسم والألوان. رسمها كثيرًا قبل أن تحترق. بعد الحادث لم يتركها يومًا، ظل جوارها، يُطعمها، يمسح شعرها، ويربت على ظهرها. يهمس في أذنها بكلام الحب، يعدها أنهما سيظلان معًا إلى الأبد. هذا قبل أن تُلقي بالدبلة من النافذة وتطرده من المنزل. كان يهمس بكلام الحب والوعود، دون أن ينظر في وجهها، وكان هذا يكفي ليقتلها.
رغم وفاة والديها في حادث سيارة فقد ظل حريصًا على العهد، حاول مرات ومرات أن يعود إليها، فرأت الشفقة وراء ذلك. حطَّمت كل المرايا في المنزل، لم تعد تريد أن ترى وجهها. لماذا لا ينظر لها؟ يتحاشى عينيها، ينظر إلى السجاد أو الستائر، يلعن الذباب الذي يطير في الجو ويظل يطارده ببصره، يطارد الذباب عن وجهها. ولم ير البابلي شيئًا من ذلك في فنجانها. حاول أن يُعيد ترتيب الصور، الورود، المرايا. قال لها «أنت جميلة. والجميلات يجذبن الوحوش». لا بد أنها ترى الأحدب في الحروف. هذا حقيقي؛ يطاردها في الكوابيس، وفي الظلام، وفي أحلامها الحلوة يظهر أيضًا ليُفسدها. وبدأ البابلي يتعرَّق ويقول لها «لا تخافي، أنا بيدقك المخلص». لا شيء في الفنجان قادر على إقناعها، أحس باليأس. لكنها، لسر في نفسها، ابتسمت بنصف وجهها وقالت «ليس عليك أن تكذب. سآتي معك».

شجرة الملك (٢)
أسفل الشجرة جلس الأحدب يراقب الفيلا من بعيد، ونصيحة الكُهنة تتردد «الزم الشجرة». أيام مرت والأحدب يأتي هنا كل مساء، ينتظر ولا يحدث شيء. السيدة تخرج كل ثلاثاء وتعود والدموع على خديها. موسيقى بيانو تعلو كل سبت من فيلا بعيدة لا يستطيع تحديد مكانها. ضحكات يسمعها في يوم الأحد لامرأة تخون زوجها. ولم يستطع ربط هذه الأشياء ببعضها. واليوم ظل يرمق الشجرة بمقت، ورأى بعض الكتابات منقوشة على جذعها فبدأ يتسلى بقراءتها: أسماء، قلوب، أسهم، وعاشقان لم ينسيا كتابة تاريخهما. من بين كل الأسماء والتواريخ لاحظ تواريخ قديمة ممتدة من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٨٢. وتذكر عمر السيد الكُهنة. ورأى صلاة غريبة على الشجرة فرتلها وأحس بما فيها من شجن، وظل يرتلها حتى انتشى. وبدأ يدور مع الشجرة وهو يقرأ كل حرف عليها. ولما انتهى منها ظل واقفًا أمامها يتأملها. كان وجهها عجوزًا، مكرمشًا، ولها جفنان ثقيلان. تنتظر ميعاد موتها. عاشت أكثر مما ينبغي، رأت حيوات البشر تتكرر أمام عينيها، أناس يمرون عليها سريعًا كما الريح. الأشجار العجوز تعرف كل شيء، وترى ما لا نراه. ترى البابلي واقفًا في الظلام يراقب كل خطوات الأحدب ويعد الغنائم مسبقًا، وترى أم علاء تسعل وتبكي خسارتها حتى تسقط، وترى صديقها الكُهنة يزورها أحيانًا ويربت على جسدها. تتذكر كيف كتب على جذعها وجرحَها، لكن جرح الكُهنة أعمق. الأشجار تعرف الحكايات، مبتدأها ومنتهاها. الأشجار ترى. والأحدب يفهم أخيرا ويتسلقها، يصعد على يديها ويقف على رأسها، والشجرة تراه. يقفز من فوقها إلى سور الفيلا. السلك الشائك ممتد على السور ما عدا هذه البقعة. الكُهنة يعرف ماذا يقول «الزم الشجرة». وعلى السور أمسك برسالة مكتوب عليها «لا تأكل الثمرة». وابتسم وهو يقرأ العنوان المكتوب عليها.
وقفز من السور مبتعدًا.

ترك الشجرة وحيدة. الشجرة ترى القادم، تمد أيديها أن تعالَ إليّ، تستغيث بتجاعيد وجهها والأحدب يجري سعيدًا وينسى كلمات الكُهنة «الزم الشجرة». الشجرة كانت عينًا وفمًا للسيد الكُهنة، ولا أذن لتسمع.

(١٠) عشق صوفي

سمراء مثل قطعة الشوكولا، يذوب جسدها على صدره، تتمايل كموج النهر وهو يضاجعها. قوادها يختبر قدرات جسدها وهي عاهرة مطيعة. كما الفرس الجامح تعدو براكبها، تلهث. على الفراش جسدان مستلقيان، حيث ذلك الضوء الأصفر يتراقص. يشير الأحدب إلى الضوء ويقول «الشمس»، فتهز غادة رأسها باقتناع، قبل أن يصمتا قليلًا وينفجرا في الضحك.

اعتدلت السمراء في نومها لتنظر إلى قوادها، كم هو جميل. يرمقها بعينين مليئتين بالحب. يشعل سيجارة وينفث الدخان للأعلى، يخرج الدخان على هيئة دوائر لا تلبث أن تتحول إلى فتيات لهن نهود صغيرة. يشير الأحدب إليهن ضاحكًا ويراقب عينيها، يُراهن أن السمراء ستَراهن أيضًا. تظل على دهشتها قبل أن تلمع عيناها ويحمر وجهها ضحكًا وهي تشير إليهن.

ثمة زجاجة خمر ملقاة على الأرض، وحذاء أحمر، وعلبة بيتزا بها قطعة وحيدة متبقية، وحمالة صدر سوداء معلقة على طرف المنضدة، والكثير من أعقاب السجائر. هذا هو البيت الجديد كما وعده السيد الكُهنة. في مساء اليوم سيحصل على العاهرات، الثمرة الأولى كما أخبره. لم يفهم لماذا يلعب الكُهنة هذه اللعبة ولم يهتم بالفهم؛ كان مهتمًّا فقط بالدموع التي رآها الآن في عيني غادة. سألها «ما الأمر؟» مسحت دمعها وحاولت أن تختبئ بعينيها. سمراء مثل قطعة الشوكولا، قلبها رقيق، وهو أحدبها وقوادها، وحش يمشي على قدمين، يجوع سريعًا، فيأكل اللحم ويشرب الكثير من الخمر. ماذا يفعل دون نهديها؟ يلعقهما كطفل صغير يتعلق بالحياة. يضعف أمامها ويجاهد ليخفي ذلك، تعرف وتقول «أعرف أنك تخور أمامي». العشق ضعفٌ، لقد هوى مرتين، وفي المرتين لم تستحق العاهرتان قلب الوحش، هذه الفتاة تعرف من يكون وتهواه. وتحمد الله أن الوحش يقف في صفها، لا ضدها، ويحارب الدنيا لأجلها. يهمس لها «في بيتنا لن تشعر عاهرة بالبرد». البرد الملعون الذي يأكل الفتيات، والشتاء الذي يكره الفقراء. في هذا البيت سيكثر الرجال وتجد الجميلات الدفء، ومن وراء النوافذ يرتفعن فوق الرياح.

ورآها وهي تبكي أكثر. ربت على كتفها، مسح دموعها العالقة في أهدابها، وبدأ يُقبّلها في رقبتها وجبينها وترجَّاها ألا تبكي، وبدأ نحيبها وارتعاشها يهدآن وقالت «ما زلت أرى النيران تأكلها». لم يكن الأحدب يعلم شيئًا عما تحكي، وراقبها وهي تكمل بشرود حكايتها. أمها ترقص أمام عينيها والنيران تأكل نهديها ورقبتها وهي تشاهدها ولا تفعل لها شيئًا. لقد حذرتها وقالت لها «هذا الرجل يسرقك»، والرجل زوجها، وهي امرأة مؤمنة، الله لن يتركها تضيع، وعندما أشعلت النيران في نفسها راقبها الله دون أن ينفث بالرياح ليطفئها، أكلتها النيران ولم تترك منها سوى قطعة لحم فاسد.

وبالطبع هرب الرجل. وجدت غادة نفسها في ركن البيت، الجدران صفراء، وفي حضنها كل إخوتها الصغار. وتعلمت أن تبيع جسدها؛ لأن لكل شيء ثمنًا. أمها دفعت ثمن سذاجتها وبراءتها، لو أنها سمعت، منذ البداية، نصيحتها وهمساتها لأنقذت نفسها وصغارها، الله سيعاقبها، هي تعرف ذلك، ولن يغفر لها أبدًا.

وبدأت العاهرة السمراء تهدأ على عطف قوادها عليها، وظل الأحدب يقبّلها وهو شارد في حكمة الكُهنة. وتذكر نجم الدين فجأة، ذلك الصوفي الذي اشتهى غادة، هل اشتهاها بالفعل؟ الصوفيون

يعرفون باطن الأشياء، ويزهدون. دفعها الأحدب بعيدًا عن صدره فاندهشت. نهض عن الفراش وأمرها أن تأتي وراءه، وأخذها إلى الكنيف، وهناك ضاجعها. وتذكرت صديقتها لبنى ودموعها التي كانت تنهمر من عينيها، وبدأت تبكي هي أيضًا. ولما فرغ منها قال «كم نحن صوفيان في عشقنا!» ولم تفهم ما يقصد.

الأحدب والعاهرة

- لماذا تريد أن تخسر كل شيء؟
- على العكس، أريد أن أملك كل شيء.
- تستطيع أن تملكني بالحب.
- الحب يجعلني ملكًا لكِ بدوري.
- الحب يُظهر حقيقتك الطيبة.
- الطيبون هم الأشرار.
- أنت لست شيطانًا.
- كيف تعرفين ذلك؟
- أنا عاهرتك، وكل عاهرة ابنة لقوادها.
- وماذا تعرف عاهرة عن الحب؟
- أعرف أن البشر لا يريدون غيره على الأرض.
- ولم يجدوه يومًا، لا تنسي ذلك.
- ربما يخشى القواد أن يعشق.
- إذا ذاق الطباخ السم... مات.
- صحيح؛ لكن لا مفر من هذه الميتة.
- مت مرتين.
- وماذا رأيت هناك؟
- رأيت أننا لا نستحق السلام أو الحب.
- لكن، ماذا تعني الحياة دون السلام والحب؟
- لا شيء.
- إذًا الموت أهون.
- مت مرتين.
- وعندما بعثت؟
- رأيت أن أطهر نفسي من الخير.
- لكن الشر قد يحمل بعض الخير.
- أي شر ذلك؟
- أنا عاهرة، أهب جسدي ليسعد الآخرون.
- وهذا خير؟
- هكذا أراه.
- بل، هكذا تبررين الأمر لنفسكِ.
- قواد يعظ! هذا أعجب ما أراه!

- وأرى العاهرة تتحدث عن الخير أيضًا، وهذا عجيب.
- هذا يعني أننا نحمل الضدين، ولا تحدثني عن الشياطين.
- ماذا عن رؤساء العالم؟ وملوك العالم؟ وتلاميذ الأنبياء؟
- تلاميذ الأنبياء! ماذا عنهم؟
- أعرف رجلًا منهم كان مثالًا للشر الخالص.
- وماذا فعل ذلك الرجل؟
- مشى في الظلام وغنَّى.
- غنَّى؟
- خمسة عشر رجلًا ماتوا من أجل صندوق.
- أنا لا أفهم شيئًا، ماذا في ذلك الصندوق؟
- هذا هو السر.
- أنا لا أهتم بالأسرار.
- كيف وأنتِ عاهرتي؟
- مثل أي عاهرة أخرى!
- لستِ مثل أيِّ عاهرة يا حلوتي.
- حسنًا. الآن اطمأن قلبي.
- الآن نسيت أمور الخير والشر؟!
- لا تعنيني كثيرًا ما دمت معي، أنا امرأة لا نبية.

- لم يكن حديثًا خالصًا للخير إذًا؟
- لا أعتقد أن هناك ما يصلح العالم.
- هذا لا ينفي أن قصة نوح قصة طريفة.
- آه قوادي الجميل، تؤمن بالطوفان؟
- بل أومن بنفسي.. أنا ومن بعدي الطوفان.

شجرة الملك (٣)

على كرسي مارمرقس كان البابا شنودة الثالث جالسًا ميتًا، يراقب جنازته بعينين مغمضتين. يضع يديه على مقبض الكرسي، حيث يقف أسدان صغيران متحفزان. بعض الناس يتصايحون في المقهى «إكرام الميت يا خلق». تعلو ترانيم خِراف الرب وصلواتهم بصوتٍ باكٍ. وسمع البابلي همسات الناس «كان رجلًا شجاعًا، لم يخشَ السادات». عام ١٩٧٢ عندما أحرقوا كنيسة الخانكة وما حولها من مبان، فأرسل البابا وفدًا كنسيًّا من ألف كاهن وقس للصلاة هناك. والشارع محتقن بالجماعات الإسلامية والإخوان، والاشتراكيون في شوارع القاهرة يهربون مختبئين في الأزقة. وقانون الرِّدة برعاية الأزهر يوشك أن يصير واقعًا، وإسرائيل تمد يدها للصلح مع مصر. والرئيس يوقع اتفاقية كامب ديفيد، والبابا يرفض زيارة القدس. السينما تعرض فيلمي: الشيطان يعظ، وموعد على العشاء، في اللحظة ذاتها التي يقرر فيها الرئيس عزل البابا ووضعه تحت الإقامة الجبرية، فينجو من حادثة المنصة.

الناس يحكون عن البابا، والسادات، والإخوان، والرئيس القادم. والبابلي يتسلى بتمزيق الصور المعلقة على الجدران، ويمشي متراقصًا مع موسيقى ملحمة جلجامش ويغني:

تعالي أيتها العاهرة أقدر لك مصيرك
ليكن طعامك من فضلات المدينة
ستكون زوايا الدروب المظلمة مأواك

ولم يهتم كثيرًا بثرثرات الناس، وشرد في عينيها، تلك الفتاة التي انشقت روحها كالبحر إلى نصفين. كان يراقبها في البيت كل يوم، رآها تلعب مع عشتار، تقرأ الكتب، تسمع الموسيقى وترقص. ولم يفهم لماذا وافقت على المجيء! فنجان قهوتها لم يصدقها القول، وعيناه خانتاه وأخبرتها بالسر «اسمك ملكة»، وهو مولع بالشطرنج، يقدس البيدق عن القلاع والملكات.

ومشى في محاولة للفهم حتى وصل إلى شجرة الملك، وهناك لم يجد الأحدب. كانت الشجرة وحيدة وريح ساخنة تصفع وجهها. والبابلي يمشي ضد الريح، وضد أوراق شجر ذابل. وأمام الشجرة وقف وبدأ يلمس جذعها الخشن إثر تجاعيد الزمن، ورأى جراح الشجرة المسكينة على هيئة حروف وكلمات، تواريخ ورسائل. دم ينزف منها، ونمل كثير ينخر لحمها.

ثلاث صلوات. الصلاة الواحدة مكتوبة بكلمات مطموسة بحكم الزمن أو مبعثرة على صدر وظهر الشجر. واضطر البابلي للدوران كثيرًا حتى يمسك بكلمات الصلاة الواحدة التي تلف مع جذعها. وشرع في القراءة لاهثًا.

الصلاة الأولى
لا أشفق على سكان الأرض
أنا ابن الإنسان
قطعة طين مبللة
بالخطايا
رأيتُ اسمي ملعونًا للأبد
في صلوات المؤمنين
المعلقين
على الصليب
الحق الحق أقول لك
أنا هو الطريق
الحق
والحياة
هذه صلاة أولى
احذر رؤوس الملوك
وتاجر كما شئت
في رؤوس الأنبياء.
الصلاة الثانية
من له أذنان للسمع فليسمع
صوت دم أخيك

صارخ في الأرض
هل تسمع؟
لا شيء غير الريح.
الصلاة الثالثة
كل الأرض حقل دم
والغربان التي تراقبك
هناك، من نافذة الدار
تعرف سرك
تترقب سكينك
أو سكين أخيك
أو سكين امرأتك
الحق الحق أقول لك
لا تغفر أبدًا
لمن ضربك
على خدك الأيسر
واترك الغفران
لله.. والضعفاء

ومشى البابلي مرددًا تلك الصلوات، وتخيل الفتاة، التي تُدعَى ملكة، وهو يحركها كقطعة شطرنج كيفما شاء. ترك الشجرة للظلام؛ تمد أذرعها للأمام كعمياء تحاول المشي. ولم يرها البابلي، ولم ير الصلاة الأخيرة المكتوبة على جيدها، واتسع الظلام للغربان.

كعك

كأنها كانت تحاول طرد الأرواح الشريرة. هكذا شعر نجم الدين وهو يصعد الدرج المكسر وينظر إلى خشب الدرابزين المتآكل ويشم رائحة الثوم والبصل؛ كأن الرائحة تغسل الروح وتهزم الشر الكامن في النفس. تزداد الرائحة قوةً مع كل درجة. ولبنى تسد أنفها بيدها وتقول «هذه رائحة سيئة». ونجم الدين يقول «لا نستطيع الرحيل»، هذه رائحة سيئة، وكل رائحة تخفي سرًّا.

كيف سيعثران على القواد إن رحلا؟ لا بد أن يقابلا أم علاء. على الشيخ أن يقنعها أن تقوم بالأمر الصائب، أن تدلهما على مكان الوحش، فينقذا العاهرات الجميلات وينتهي كل شيء نهاية سعيدة. تصبح الدنيا مكانًا أجمل، كجنينة من أشجار العنب الأحمر، أو سجن مملوء بالأشرار.

ووقفا أمام بيتها. طرق الباب ثلاث مرات. وصاح الديك بعدها في منتصف النهار. تعجب الشيخ وقال «ثمة أمر سيء». ورأى على الحائط جيش نمل منهزم. نملٌ كحبات الرمل دُهس أسفل يد زرقاء. اليد باردة الملمس، تفوح من أطرافها رائحة كعك مخبوز. غراب على كتف الموت يجلس ويراقب كل شيء. الموت يطرق الباب ثلاث مرات، وأم علاء تفتح الباب. تقول «تعال يا موت، يا طفلي المدلل». والديكُ يصيح قبل شروق النهار. ملاك الموت يدخل، يحتضنها، ويأكل نهديها، وأم علاء ترتجف وتستكين. يحملها مبتسمًا إلى فراشها المُسوَّر بالثوم والبصل. صفراء هي أسنان ملاك الموت، والناس حلوى.

قال نجم الدين «علينا أن نكسر الباب». وهزت لبنى رأسها أن لا. خلعت بنسة من شعرها فانهمر شلالها الأسود. وبدأت تفتح الكالون بطريقتها. انتظر الشيخ حتى سمع تكة الباب، وانحنت لبنى في أداء مسرحي، فاخضرَّ

وجهها وتقيأت على الجدار المجاور. هجمت رائحة الكعك المتعفِّن عليهما، حاولت لبنى الاختباء منها بينما اقتحم نجم الدين المكان، ولم يصمد مِسك الشيخ وبخوره. قال «الموت يهزمنها، برائحة كهذه فقط يهزمنا». وظلت لبنى واقفة في الخارج تنتظره، ورأى الشيخ في غبار أم علاء تاريخها المنسي.

كانت تجري في الشارع، جسدها كغزال بري، وجلبابها البُني ملفوف حول عودها، لكن عينيها جزعتان. تعدو وقلبها يدق بقوة، تقول «سَبعي»، تصيح «رجُلي». ولم تك تتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد. زوجها صار محاصرًا بالأعداء، والأعداء هم الأصدقاء، الذين كانوا ضيوفًا دائمًا في بيتهم. فماذا حدث؟ هي لا تفهم. أخبرها زوجها «لا حشيش في السوق»، وهو محاصر بالديون. لكن كيف تصل الأمور إلى الدم؟ عندما أخبرتها جارتها بما يجرى هرولت إلى الشارع وتوقعت أن تجد زوجها ميتًا، أما علاء ابنها الوحيد، لماذا قتلوه! وقعت على الأرض أمام جثتهما. كان الدم يملأ كل شيء كعيد الأضحى، وهما مُعلَّقان على المذبح.

مملكة النساء (١)

في مملكة بني قيدار المتفرِّعة من شارع البنهاوي كانا يمشيان، ظِل قصير للكُهنة وظِل للأحدب العملاق. لم يتحدثا كثيرًا، عندما التقيا فقط قال الكُهنة بحسرة «لماذا تركت الشجرة؟»، ولم يرد الأحدب. لقد قرأ الصلوات الثلاث، وكان مؤمنًا بها من قبل. أمسك بالرسالة التي كتبها الكُهنة، كان مدونًا فيها الطريق، مملكة النساء كما أسماه، فلماذا جعل السيد الكُهنة الثمرة شهية هكذا؟ ولماذا يضحك الآن ويقول «أنت ابن أبيك».

في مملكة بني قيدار توجد شجرة ناشفة على مدخل الشارع، راقبها الأحدب وتساءل عن سر موتها. ورغم موتها كانت أفرعها عالية وتقف بشموخ ولا يبدو عليها أي أمارات للمرض. نساء كثيرات يمشين في الشارع، متشحات بالسواد. وبدأ الكُهنة يتحدث أخيرًا وقال «مملكة بني قيدار، مملكة عتيقة». وبدأ يشرح ملكاتها على مر التاريخ: الأميرة زبيبة، والأميرة شمسي، والأميرة يطيعة، والأميرة تلخونو، وبالطبع كان هناك ملوك من الرجال، لكن هنا – في مملكة بني قيدار المتفرعة من شارع البنهاوي- لم تعرف المملكة رجلًا. كانت مملكة خالصة للنساء، ولم تكن فيهن ملكة كبلقيس، ولم تكن مدينة تشرق فيها الشمس بعدل على الجميع، حيث الورود الحقيقية في الشوارع، والعطور تفوح من كل ركن. فوق الأسوار لم تكن هناك نساء جميلات يرقصن، ورجل يعزف بالقيثارة.

كانت الشوارع والبيوت توحي بالفقر، الرجال تبدو عليهم أمارات القهر، على عكس النساء كن يملأن الشارع، يجلسن أمام البيوت ويهمهمن. ودون إنذار سمع الأحدب صياحًا يعلو من زقاق ضيق، قال الكُهنة «صف لي ما ترى». كان الزحام شديدًا، كجدار عال هو الحشد، والكُهنة بالكاد يرى مؤخرات الناس. ورأى الأحدب العملاق، من فوق رؤوس الناس، ما يجري واندهش. قال «أرى رجلًا قصيرًا، كُهنةً مثلك، يقف مرتعبًا ويتراجع حتى يلتصق بالجدار»، وبدأ صوت الأحدب يخفت وهو يقول «وأرى نساء عاريات، ولهن نهود، أقصد أنني أرى نهودهن!». وشك

الأحدب فيما يرى وقال «أعتقد أنني مرهق، أخذت قرص صراصير ابن كلب». لكن الكُهنة قال «صدِّق عينيك وأكمل الحكي». ورأى الأحدب هذه النساء يمسكن بسواطير وخناجر وسكاكين، ويضربن الرجل بالعصيان ضربًا مبرحًا والرجل مستسلم تمامًا. يعتذر عمَّا فعل فلا يغفرن. وفهم الأحدب من طشاش الكلام أن المشاجرة سببها امرأة ضد امرأة، وأراد أن يعرف الحكاية كلها لولا أن الكُهنة شده بعيدًا وقال «مرحبًا بك في مملكة النساء».

ومشيا في شارع ملتو كثعبان، تجاوزا برك الوحل، وتوك توك خربان، وطفل وطفلة يبوسان بعضهما. ووقفا أمام عمارة بطابقين مرسوم عليها آدم وحواء عاريين تمامًا ويأكلان التين. وتساءل في سره الأحدب عن الثمرة: ما نوعها؟ ولماذا لعن الله التفاح دون غيره؟

ودلف العمارة وتذكر أم علاء، الدرج المهدم، الدرابزين المكسور، جيوش النمل التي تملأ شقوق الجدران. وتوقفا أمام الشقة المقصودة، طرق الكُهنة قبضة الباب الحديدية المصنوعة على هيئة امرأة تعطي لهم ظهرها العاري. وفتحت امرأة على هيئتها الباب. نظر الأحدب إلى حلمتيها أسفل قميص نومها الشفاف، ودخل البيت وهو يتأمل الجدران والنقوش والزخرفة الإسلامية، وشم رائحة النرجيلة محملة برائحة بخور، ورأى سيدة البيت تجلس هناك، وتراقبهما بعينين مثيرتين. قبلها الكُهنة وجلس جوارها، وجلس الأحدب أمامها مباشرة. كانت عيناها جريئتين، فضوليتين.

على أنغام موسيقى ألف ليلة وليلة بدأت الفتيات يرقصن، وحلَّق خيال الأحدب بعيدًا مع الدخان. كان يرى الزمان يتحول إلى عصر قديم، الجاريات يجلسن عاريات أسفل أقدام الخليفة. جدران لونها أزرق، وعليها زخرفة بيضاء، والنهود بيضاء كاللبن. والأحدب يترنح مع الموسيقى. تشير سيدة البيت إلى إحدى بناتها فتنهض وتجري لتُدخل فتيات صغيرات في صف واحد. والأحدب يتأملهن، كل فتاة لها كأسها وخمرتها.

وسأل الأحدب الفتيات عن أعمارهن وأسمائهن، فأجبنه. ودون أن يسأل عن أوطانهن، عرف وطن كل فتاة. وتخيل الخراب الذي حل على سوريا، وليبيا، اليمن، والبحرين، والعراق، وغيرها من البلاد. بيوت مهدمة، وجثث تملأ الشوارع، ودخان ينفذ إلى السماء. والله يراقب كل شيء. قال الأحدب للكُهنة «بضاعة جيدة»، فضحك السيد الكُهنة ثم قال «كل الحروب خير». غنائم كثيرة وسبايا جميلات، لرجال لم يشاركوا في الحرب.

سعل الكُهنة حتى احمرت عيناه، ونهض متعبًا يحاول الاستناد إلى الجدران واعتذر للسيدة والأحدب، لا بد أن يغادر، الليل مظلم، والشارع غير آمن. ونظر إلى عيني الأحدب وهمس بألم «لماذا تركت الشجرة؟»، وغادر. وظل الأحدب يفكر في تلك الفتيات الشريدات، كم هن جميلات، مذعورات، وبلا بيت.

في بيت الأحدب ستجد كل عاهرة وطنها، سيكون البيت بيتها، ويكون الأحدب أباها ومعلمها، هكذا رأى الأحدب لكن البيعة كادت أن تفشل؛ اختلف الأحدب وسيدة البيت في بعض التفاصيل، حيث يكمن الشيطان، الشيطان الذي همس في أذن الأحدب بفكرة جيدة. أمسك يدها ووسوس في أذنها ببعض الهمسات، وضحكت السيدة ذات العينين الجريئتين، وشدتها شهوتها إلى التجربة. وفي غرفة النوم قالت للأحدب «عليك أن تكسب الرهان».

في ظلام الليل، عرق يسيل على جسدين. عرق حلو المذاق كالسكر. ووجدت السيدة نفسها ترقص في تناغم، مع لحن يسكن رأسها. وجدران غرفتها بدأت تتحول إلى جدران لونها أزرق، وعليها زخرفة بيضاء. ووجدت أنفاسها تتقطع وهي تنظر حولها إلى المكان الساحر وتلهث وتنخر حتى

ارتعشت كلها وصرخت «جوهر!»، ونامت سيدة البيت وهي تشعر بلذة لم تذق طعمها منذ زمن. ولم تنس أن تهمس في أذن الأحدب «لك ما تريد يا سيدي»، فابتسم راضيًا عنها. وسمعها تقول «وسأهبك عاهرة فريدة لأجلك، اقبلها، النبي قبل الهدية».

(١١) شجرة الملك (٤)

أسفل جذع الشجرة كان جسد الكُهنة متدليًا، كدمية ممزَّقة الحبال. لا يحرك طرفًا أو رمشًا، ولا ينتظر المعجزات. والظلام بحر جائع. شعر الكُهنة بحركة في الركن، لم يفكر في مطاردتها ببصره، بينما ظل صوتها يصطاد ما يملك من وعي.

كان مصدر الأصوات قرع الطبول مع ظلال تتحرك بانتظام. الظلال تمسك بدروعها وترتدي خوذاتها. تتسلل بين الأشجار وتتربص اللحظة المناسبة. وهناك، في الظل، كان يجلس ظلٌّ على الأرض وينظر إلى ضوء القمر. حول الظل ظلال كثيرة، تنتظر أمرًا مهمًّا سيحدث، لكنها هربت بفزع ما أن سمعت صوت البوق، ولم يبقَ غير ذلك الظل وحيدًا، وظلال تتقدم بإصرار. والكُهنة يرى ما يجري ولا يفزع.

المكان حقل دم، والأرض كعادتها عطشى. تقدم الظلال – ذات الدروع- ظلٌّ لا يرتدي درعًا، عاريًا تمامًا، واقترب من الظل المتعبد أسفل ضوء القمر ووقف قليلًا، وعلى عكس المتوقع لم يخرجْ خنجرًا وإنما اكتفى برسم قُبلة على خده. وقال الظل الأول «أبقُبلة واحدة يا صورتي؟» وعلا قرع الطبول أكثر.

في لعبة الظل لا وجوه للأشياء، تطل الحكاية على الجدران. خيول تعدو في الحقول وأناس يهربون. ينظر السيد الكُهنة إلى المهرج الذي يظهر فجأة أمام الجدار ويكرر الحكمة قائلا «أبقُبلة واحدة؟ لا قبلتين، لا ثلاثة، لا عشرة». ومع ذكر الرقم عشرة يمسك المهرج عضوه ويصيح «يا أبناء العاهرة، أنا بلا خطيئة، سأرجمكم جميعًا». ويتقافز الجمهور مبتعدًا عن المهرج الذي يقذفهم بالحجارة.

يخلو المكان، ولا يتبقى سوى شجرة، وظلٌّ يعدو مذعورًا ويصيح «سيرجمني الذي بلا خطيئة»، غير أن غصنًا غادرًا متدليًا من شجرة يخترق حلق الهارب، يرفعه للأعلى، ليظل شاهدا على الناسِ. والناس يختلفون كعادتهم، هل مات؟ هل رفع إلى السماء؟ وربما جلس، ذلك الظل الخائن، على يسار الرب. وظلَّ الظلُّ معلقًا هكذا حتى انكسر الغصن، فوقع على صخور حادة وانشق من الوسط وانسكبت أمعاؤه.

وبدأ الكُهنة يتحرك أخيرًا مصفقًا بانتشاء، قبل أن يعود إلى ركوده. وكان الآتي ظلًّا يمشي على الأرض ويصفر لحنًا مألوفًا. وكل ظل ابن ضوء، ووحده هذا الظل ابن للظلام. فوق الظل غيمة سوداء تطارده، وانتظر الكُهنة حتى اقترب تماما ورآه. كان بلا وجها، يرتدي عباءة سوداء، وعلى كتفه يجلس غراب صامت.

للظل رائحة كعك مخبوز، ويده زرقاء وباردة. يقف أمام الكُهنة ويزفر سحبًا ضبابية. للظل روح مُتعَبة من طول المشاوير. جلس أمام الكُهنة ثم بدأ الغناء وقال «خمسة عشر رجلًا، يو-هو-هو، وزجاجة من الروم». وظل يغني بسعادة. وقد أخرج من الحقيبة التي يحملها بقايا الكعكة البائتة وزجاجة خمر، وظل الغراب الوقور جالسًا فوق الكتف يراقب كل شيء، بعينين لا تطرف لحظة واحدة.

وشعرَ الكُهنة برغبة في الحكي، وأراد أن يتحرر من التفاصيل. قال للموت «تعال. اجلس هنا بجانبي». وجلس ملاك الموت. لقد تعب الكُهنة من الانتظار، فلم يختر طريقًا واحدًا. في مفترق

الطرق يظل واقفًا، يتساءل «أين وجهي؟»، تجاعيده كثيرة وتخفي روحًا مُمزَّعة، وهي؟ لا تجد بيتها القديم. تختبئ بالكحل ولا تستسلم للمرآة. الزمان عدو ابن آدم، لقد غرس الله الإنسان في الطين حتى يحصده- فاسدًا- بعد حين. قال الكُهنة متوسلًا «متى يأتي حصادي؟» والموت يجلس ممسكًا بالمنجل والمحش.
أراد الكُهنة أن يحكي عنها، أو أن يراها بعد هذه السنين. لعلها تعرف وجوده هنا أسفل تلك الشجرة، يراقب شرفتها. يحاول أن يتجرأ ويذهب إليها ليقول «غفرتُ لكِ، فاغفري». لكن كيف سينظر في عينيها؟ وكيف يغفر؟ ولماذا لم تنسَ وطنها لتنجو؟ وظل الكُهنة يحكي حتى نعب الغراب في منتصف الحكاية.
الموت ينهض مصفرًا ذلك اللحن المألوف، والغراب يبصق على الكُهنة بنظرة باردة. ولم ينهض الكُهنة، ظل جالسًا في تلك البقعة، فلا آمن بالخير ولا فعل الشر كما ينبغي. وصاح الكُهنة «يا موت تعال إلي». استمر الموت في المشي. وجحظت عينا الكُهنة عن آخرها وصاح «يا موت..لا». لكن الموت لم يتوقف. دلف الفيلا وصعد إليها بخطى ثابتة، وعاد يغني تلك الأغنية، وقال «اسكروا، بزجاجة الروم، واتركوا الباقي للشيطان». ووقف أمامها في غرفة النوم، جسدها مترهل ووارم، وبقرف شديد مد يده في فمها وانتزع ضرسها التالف.
اللفيف
كان نجم الدين يدور في دائرة مغلقة. يرفع يده للأعلى ليمسك السماء عن الوقوع، وباليد الأخرى يشد الأرض كي لا تسقط في العماء؛ هناك حيث الشياطين ترقص وتتذكر سقوطها. ولبنى تعد الأيام وتذكر المرة الأولى التي جاءت فيها، هي وصديقتها، إلى ذلك البيت. كانت آثار القهوة لا تزال على الجدران وبعض من روح الظلال. البيت كئيب ومفزع. ومشت لبنى على البلاط كمطر خفيف حتى الشرفة، وامتزج شعرها الأسود بالليل. وظلت تراقب قطط الشارع التي تتسول البقايا والفُتات من عربة الكبدة والسجق.
نجم الدين، كعادة كل يوم، يقف أمام آثار القهوة التي تلطخ الجدران، عاجزًا عن الفهم. ينتظر أن ينفد الوقت، فلا يأتي نهار أو شمس، ولا يبقى سواه والعاهرة. ينام في حضنها وينفد فيها ويسكن. وهي تضم الشيخ بأمومة إلى نهديها بقوة، وتضفر خصلات شعره الأسود، وتغني أغنية أخرى، تأخذه كلماتها إلى عالم آخر، يعود إلى كاتي ومدينتها الساحرة، وإلى جده عندما كان يضفر شعره ويقول «أنت، يا صغيري، أكبر من جدك». فيضحك في سعادة. وشرد أكثر في عطر جده والمعجزات التي كان يقوم بها وينكرها على الدوام. يقول «إنما أنا عبد الله الضائع». ثم يصمت قليلًا ويقول «والذي يأتي بعدي أقوى». ونجم الدين يعرف قدر الجد. الجد يقدر على كل شيء، فهو حبيب الله، وإذا أحب الله عبدًا صار يده التي بها يبطش، لكن الله لم يحقق الأمنية الوحيدة التي كان يرجوها، فلِمَ؟ لقد رآه نجم الدين يبكي كثيرًا، يصلي «اللهم، لا تجعلني نوحًا». وعكس ما أراد شاء الله. حل الطوفان على الأرض وغرقت البيوت، وامتلأ اليم بجثث الناس والأسماك. ونوح على السفينة الكبيرة، مع أزواج من الحيوانات والطيور، يتضرع «يارب، قارب صغير.. ليام».
واليوم، لماذا صدَّق نجم الدين العاهرة حين قالت «من سواك للضعفاء!» ولماذا لم يقل «الله»، إن قالها قالت «أنت من روح الله». مرت الأيام ولم يجد للأحدب أثرًا، وها هو يختبئ في حضنها بعيدًا عن حروب العالم. يقول في سره «ربما تفكر الآن في القواد»، تقول في سرها «ربما يفكر

الآن في السمراء»، ويظل كل منهما نائمًا في حضن الآخر، حضن مليء بالوساوس، والشياطين أسفل الأرض، ترقص، تتقافز، تدق الأرض بقدميها، فتتداخل دقات قلب العاشقين في الرقص المجنون.
يستيقظان في صباح اليوم التالي، يمر عليهما الوقت، يدهسهما. والوقت ابن موت، وصديق خائن. ها هو النهار طلع، ومات، والليل يتلقى العزاء. يقف نجم الدين ولبنى في الشرفة، يربتان على ظهر الليل، وظهرهما مكسور. وفي غمرة كل ذلك الحزن رأى الاثنان عددًا كبيرًا من الدراويش يمشون ويتصايحون «يا ملك الغيب والضباب»، التفت الشيخ إليها مصعوقًا وسألها عن تاريخ اليوم، فقالت «نصف أغسطس».
نصف أغسطس. شهران مرَّا على تولّي الرئيس الجديد الحكم. وقف الرجل في ميدان التحرير وفتح صدره للشعب، وارتفع حماس الجماهير عندما حيَّا في الخطاب سائقي التوك توك. وعلقوا صوره في المقاهي جوار عبد الناصر.
خمسة أشهر مرت على وفاة البابا، شعر البعض بالحزن، وشعر البعض الآخر بالشماتة. تذكروا ما للرجل من خطايا؛ الرئيس المؤمن قال أن للرجل خطايا، والله في عُلاه لم يقل شيئًا. سألت لبنى عن الخناقة السياسية التي دارت بين الرجلين فضحك نجم الدين وقال «سمعت أنه قيل أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، أما أنا فأقول: لا تعطوا ولا تأخذوا، فكل ما لله - في واقع الأمر- ملكٌ للقيصر».
نصف أغسطس، هذا اليوم المقدس والملعون. مر على مقتل الغريب عام، هنا تقابلا، للمرة الأولى، ورآه الشيخ ضائعًا وأراد أن يساعده ويرشده إلى الطريق؛ فأرشده إلى القبر. صوت يوسوس في رأس الشيخ «أنت دجال أو قاتل، أنت دجال أو قاتل»، والصوت يخرج من رأس لبنى، تقول بحزن «مالنا والمولد؟!»، تشك في الدراويش والزحام والأصوات التي تستغيث بربها. ويُجيبها الشيخ «لسنا وحدنا؛ إن الله معنا»، يقولها ويقبل شفتيها في خشوع.
وشدها ليجريا في الشارع مع الدراويش، شعرها يتطاير خلفها، وكذلك ضفائر الشيخ. ها هي التواشيح تعلو، وبدأ الشيخ يطمئن لما رأى الأنوار الملونة، ضوؤها جميل كنور السيرك. وكانت عيناه نصف مغمضتين إثر السهر، أسفلهما هالات سوداء كثيرة، ولم يرَ غير ما أراد. لم يرَ الشباب ذوي القبعات والبناطيل الغريبة والفتيات اللاتي يرقصن مع صوت الدف وكلمة الله. خصورهن تهتز في تناغم. ولبنى ترى حقيقة الأمر وتفزعها هيئة المؤمنين.

ودخلا إلى مسجد زين العابدين، ورأيا أُناسًا كثرًا يهزون رؤوسهم في سُكر مع قرع الطَّبل، وصوت «الله الله الله» الذي يتردد بصدى عميق في المسجد. «الله الله الله» ولا شيء غير الله باق، «وحدوا الله يا مؤمنين»، والناس يصرخون بالتوحيد، «وحدوه»، ويجمعون ما تبعثر في سواد الليل من شظايا.
تواشيح حزينة كالتعديد، هكذا تسمعها لبنى. ونجم الدين يتمايل معها غير أن عينيه وقعتا على شبح الغريب، فجأة، بين الحشد المتراقص. وشعر نجم الدين بالفزع لما رآه، وسألت لبنى شيخها «ماذا رأيت؟»، فيشير إلى الركن الفارغ، ولم ترَ أحدًا لكنها فهمت مَن وراء الفراغ. وأراد الشيخ أن يهرب كالمعتاد، لكن عيني الغريب وقعت على عينيه فتسمَّر، ولأول مرة رأى فيهما وميضًا.

لأيام، ظل الغريب يسمع التواشيح تدعوه، حاول أن يتجاهلها، علا الصوت يومًا بعد يوم حتى كاد أن يقوده إلى الجنون. واضطر أن ينقاد ويتبع الصوت إلى مصدره. ولمّا وصل إلى مولد سيدي الإمام زين العابدين تأمل المكان وقال «كنت هنا من قبل»، ولم يذكر شيئًا آخر. صورة في عيني الغريب من الحياة لم يستطع نسيانها، ولأجلها جاء ليسكر مع السكارى. لبنى تشد الشيخ من يده وتقول «تعال نهرب»، يظل الشيخ متسمرًا. كانت الصورة التي يراها في عيني الغريب هي الطريق الضائع.

مملكة النساء (٢)

كان الأحدب يجلس أمام إبريق نحاسي مملوء بخمر معتق، ونرجيلة قديمة الشكل ينفث من دخانها ليعطر المكان برائحة بالتفاح. عاهرتان يلمسان الحدب. وفتيات تتمايل مع الموسيقى، ورجال يسكرون فلا يفرقون بين النهود المرسومة على الجدران والتي يشربون من خمرها. الأحدب ينهض مترنِّحًا فيصطدم بمنضدة صغيرة على الأرض، وغادة هناك في الركن المظلم تبكي دون أن يراها أحد.

ها هي الأحلام تتحقق، مملكة من ليالي ألف ليلة وليلة، بفضل سيدة البيت وعاهراتها والكُهنة. لكن أين الأخير؟ لم يره الأحدب، كأن الأرض ابتلعت الرجل. افتقده الأحدب، ثم نسى أن يذكره. المهم هو أن الأحلام تتحقق. تعلم الأحدب الكثير من سيدة البيت، عرف المكان السري، والسحري، الخارج عن دائرة الزمان: سوق السبايا. هناك يقفن عاريات يفحص التجار أجسادهن، ومن لها خصر كأس لها ثمن أكبر من ذات خصر الموزة، ومن لها خصر كمثرى لها ثمن أكبر من ذات خصر التفاح. وهناك من تفرض بعهرها شكل خصرها، أو نهديها، على ذوق التجار.

مشى الأحدب مترنحًا حتى وصل إلى غرفة نومها. سيدة البيت مستلقية على الفراش وفي انتظار أن تمسك بالعملاق، أو يمسك بها ويهزها من الأعماق. كانت تعلم بأمر غادة ولم تبالِ، الأحدب تاجر جيد، والتجار يعرفون ماذا يبيعون وماذا يشترون.

في الحروب يشتري الملوك الأرض، ويبيعون للغربان اللحم الفاسد. ويبيعون السبايا مقابل بعض السلام. التجار هم قادة الحرب، لا الملوك، يدرسون طبيعة الأرض والمناخ العام، ويحددون المنتصر. لا مقامرة في الأمر، التجار لا يقامرون.

سيدة البيت مطمئنة تمسك في يد واحدة بقلب الأحدب وعضوه. مثل هذا الرجل لن يخسر. البيت يكبر يومًا بعد يوم، الرجال المهمون والمهمومون بقضايا الوطن رواد دائمون للمنزل، يأتون أو يرسل لهم الأحدب الهدايا إلى بيوتهم، عاهرة تعرف كيف تتدلل وتتسلل أسفل جلد الرجل، وفي الفراش: تصير المرأة دمية، يصير الرجل خشبًا.

وغادة في الركن المظلم، ترابية اللون ولم تنبت من نهدها وردة. هي المخطئة، والخاطئة، والخطيئة ذاتها. ليس من حق العاهرات أن يعشقن، وإن فعلت واحدة منهن، فخطيئة أن تعشق المرأة قوادها.

كل إرث الكُهنة راح للأحدب الذي تمنى لو كان حيًّا حتى يراه قد حقق الحلم، مملكة تُعيد زمن القوادة الجميل. لو رآه الآن يضاجع سيدة البيت بقسوة، لشعر بالحسد. أي شجرة تلك التي يقف أمامها؟ سيقتلعها. سيدة البيت تصرخ في ألم ولذة، وتغطي الموسيقى صرخاتها. ولبنى صرخت من قبل «ضاجعني يا جوهر»، والسمراء قالتها من بعدها. ودارت الدائرة. وحده الأحدب يجاهد ليملك وجهًا واحدًا.

كانت مملكة الأحدب من هذا العالم، وسبايا هذا العالم، وحراسها من بني قيدار. النساء اللاتي رآهن مع الكُهنة. نساء قد يقتلعن وردة إن أعجبهتن، أو يقتلن امرأة أكثر جمالًا منهن. نساء لهن قلوب فراشات، يحلقن نحو النار، ولا يشعرن بفزع، الفزع هو أن يكون فراشهن خاليًا من رجل في المساء، أي رجل، طويل أو قصير أو ظل على الحائط.

حرب الورود (٢)

كل شيءٍ يمشي وفقًا لخطة البابلي، كان يراقب الأحدب في كل مكان، رآه عندما خرج من بناية أم علاء وهي تُلقي بملابسه من النافذة، وعندما قابل الكُهنة للمرة الأولى في البار، وعند الشجرة التي تعرف الأسرار، وعند مملكة النساء، كان يدرك أن الأحدب يتوحَّش، كنباتٍ شيطاني. يملك الآن المال، النساء، السلاح، والجوع للمزيد. ومع ذلك فإن كل شيء كان يمشي وفقًا لخطة البابلي، السم والعسل.

ولأيام طويلة ظل البابلي يتخيل ملامح الأحدب، عندما يمسك بتلك الرسالة القصيرة، ويقرأ حروفها العشرة «عندي عاهرتك». والإمضاء: البابلي.

كان يتخيل كيف سيثور، ويظن أن تلك العاهرة هي لبنى، وسيذكر حتمًا ذلك الحوار الذي دار أمام البيت، وكيف هرب مذعورًا أمام عشتار. لبنى، العاهرة السيئة التي هربت من أبيها، لا بد أن يعاقبها، هكذا سيقول، ولن يخمن أبدًا أن المقصود عاهرة أخرى.

وملكة هادئة في الركن، تراقب البابلي دون أن يراها، ويراقبها دون أن تراه. يسأل أحيانًا «لماذا جاءت معي؟» لم تشدها ملحمة جلجامش، وإنما شدتها ملحمة المسيح، كأنها تعرف أن البابلي سيخونها، بطريقة ما، ويضعها فوق الصليب.

لماذا بكى المسيح قبل الصلب؟ وصرخ «إلهي إلهي، لمَ تركتني؟»، لم يتخيل أن ينساه الله، وربما تمنَّى نهاية أخرى لا ينكره فيها تلاميذه. ها هي تشهد صليبها، تقرأ الرسالة التي كتبها وتركها على المائدة «عندي عاهرتك». هل كان غبيًّا لينسى الرسالة؟ فكرت «أستطيع أن أختار»، وربما كان هذا هو مقصده. لم يفزعها شيء لكن أوجعتها تلك الكلمة «عاهرتك»، العالم هو العاهر، والبابلي مُجدِّد في القوادة، هكذا حدثت نفسها. قالت «سأصعد الصليب»، وعرفت أن العالم سينام آمنًا، ووحده البابلي سيشهد قيامتها.

البابلي يعرف أن الأحدب سيأتي محاطًا بحارسات بني قيدار. الانتظار مزعج. ينصت إلى الساعة وخطو المارة في الطرقات. وعشتار تفعل ذلك أيضًا، تنهض كأنها تنتظر أحدًا، وتنبح كثيرًا. يرتجُّ البابلي وينظر من النافذة فيجد كل شيء ساكنًا. وفي ليلة دق الأحدب الباب بأدب.

كانت ملكة في غرفتها، عندما حدثها قلبها أن ساعتها قد حانت. تضع الزينة، وترتدي قميص نوم أبيض. خصرها مرسوم على هيئة ساعة رملية. سمعت صوت الأحدب بالخارج، لم يكن وحده، كان برفقة ثلاث نساء من بني قيدار.

ملكة تقف وراء الجدار، تحاول أن تتنصت على الحوار الدائر، لكنها لم تسمع شيئًا. خانها خيالها أيضًا فلم تر، كان الجدار سميكًا. خلف الجدار وقف البابلي على مقرُبة ثلاث خطوات من الأحدب، يفكر أن كل شيء يمشي وفقًا للخطة، حتى بعدما خلعت النساء ملابسهن، ووقفن عاريات، ووضعت إحداهن سكينًا على جيده. لقد شعر ببرودة النصل ولم يرتعش. أرادت ملكة أن تنتظر أكثر. حدسُها يخبرها بذلك. كانت حبات عرق صغيرة تسيل على جبين البابلي. ورغم ذلك لم يرتعش، لأن كل شيء يمشي وفقًا للخطة. سيخبره «خذ عاهرتك، أريد السلام فقط». سيقولها

ويتشفَّى بتلك النظرة المنكسرة في عيني الأحدب. آه، ملكة، فإلى أي النصفين سينظر؟ وكيف سيلمسها دون أن يحترق؟
علت الأصوات أكثر فغادرت ملكة غرفتها. ما الذي يحدث؟ كل شيء كان يمشي وفقًا للخطة، قبل أن تنزعج عشتار. رأت السكين على جيد صاحبها، فقفزت من مكانها وانقضت على تلك المرأة، وعلى الأرض وقعت، عشتار، والسكين مغروس في بطنها. رأى البابلي ذلك. اتسعت عيناه. عشتار تئن. اقترب منها زاحفًا. لمس جسدها بيدين مرتعشتين، ورأى أمعاءها خارج جسدها. لم يفهم ماذا حدث. كيف تموت هكذا دون ذنب. وكان الأحدب يراقب المشهد مبتسمًا قبل أن يصيح «برافو!»، وصفق كثيرًا. البابلي لا يراه. يرى طفولة عشتار؛ عينيها المرحتين. لما رآها أول مرة قال «سأدعوها عشتار»، وكرها جلجامش معًا. والأحدب لا يزال يصفق، ويضحك، ويقول «كلاكيت!». لم يتخيل أن مقتل حيوان قد يكون فارقًا، لأي إنسان. وظل يشتم البابلي بأقذر الشتائم حتى ينهض. يريد حربًا ذات معنى. ما معنى أن تنتهي الحرب بموت كلب، أو بموت إنسان، حروب كهذه مخزية. وبدا البابلي مخزيًا بالفعل، يبكي بصوت عال، كأن هذا رجل آخر. يحاول النهوض فلا يقدر، وعلى الجدار ينكمش. وظل هكذا. فاقد النطق. لا يملك خطة بديلة. وكان هذا مفزعًا. ورأى ملكة تصعد إلى صليبها.

تمر جوار البابلي المنكسر على الأرض، وأمام جثة عشتار حيث يقف الأحدب، تقف. شعرت بالشفقة على البابلي، وبالحزن على عشتار. انقبض قلبها لمَّا رأت الأحدب ينظر إليها مبهوتًا. ظل هكذا قبل أن يهتف مُلتاعًا «ملكتي!».
خاتم النبوة
شوارع كثيرة مشى فيها نجم الدين، ولبنى تنظر إلى الهواء. يتحدث الشيخ مع شبح لا تراه، يقوده ذلك الشبح إلى الطريق. ولم تعرف لماذا نثق في الموتى! وهل المعجزات كالموت حقٌّ؟ لم ترَ شيئًا. دعت الله أن يساعدها، فأرسل لها هذا المهرج. الطوفان آت، ولا قارب لها. تتذكر العجوز صاحبة الودع، ونبوءتها. «الرجل أراجوز، دجال، مثل غراب أعور». لكنها لا تملك بيتًا والشوارع مظلمة، وربما هي ابنة سيئة لهذا العالم، تستحق ما يحدث لها. ربما تريد الانتقام من غادة، صديقتها، لأنها تملك بيتًا وقوادًا. وكان نجم الدين ينظر إليها، يرى الشيطان يمسكها من أذنيها، ولا شيء يهزم المرأة سوى أذنيها. تقول عينا الشيخ «الإيمان هو الخلاص الوحيد». تقول عيناها «لا خلاص».
ظلت تفكر في الهروب. لم تعرف إلى أين. تذكر النيل، ذلك القبر الأزرق، هناك سيأكلها السمك الصغير، وتصير جِثّيَّةً للصيادين. ربما حينها تصير شفيفةً، لا يحدُّها زمن أو جدار. تختار من الصيادين رجلًا طيبًا، وتحول ذلك الصياد إلى فريسة مطيعة. وربما تتدلل على صيادٍ مُسِنٍّ، في بلدة غرب النيل، وتنام على صدره في الليل. يراقب النجوم على جسدها، وتشده إلى الموت، فيتبعها عن طيب خاطر. وبقُبلة منها يسري السم في جسده، وهي تلعب، العالم خطر، وممل، دون هذا اللعب.
ظلت تمشي مع نجم الدين في شوارع مكررة. لافتات مرَّا بها من قبل. ونجم الدين لا يرى ذلك، يهمس مع الشبح بلغة غريبة. ويقف فجأة. يتأمل البنايات. يبدو تائهًا مثلها. يقول للشبح «أنا أؤمن بك. تذكر». تسخر في سرها من ذلك الدجال، يتبع الريح، يطارد الغبار. تقعد على رصيف وتخلع

حذاءها. رأت باطن قدمها وارمًا. لامت الشيخ بنظرة. ورأت بعض المارة يعبرون أمامهم ويسخرون من عمامة الشيخ فيبتسم لهم متواضعًا. تبرطم «أحمق!». لو كان قوادها هنا لأغرقهم بالمنيّ، فلماذا يبدو الشيخ مخنثًا هكذا!

وشعر نجم الدين بالغضب. خلع حذاءه. وظل يضرب الهواء أمامها ويصيح «قصير الذيل يا معلون، اترك أذنيها». وهي تراه يفعل ذلك وتضحك. ونظر إلى ضحكتها، وقال لها «أنتِ طفلتي»! وأراد أن يسكن فيها. فوجدها تنهض، وترتدي حذاءها، وتمشي وحدها في الاتجاه الآخر. كانت الحرب على وشك البدء. ناداها فلم تتوقف. مشى وراءها، فأسرعت الخُطى، خلعت حذاءها، وهرولت. تركت نفسها للريح، رآها الشيخ وهي تحلِّق وتقفز في أتوبيس عام، لماذا تفعل ذلك الآن؟ تُلقي بقُبلة في الهواء، فتضيع في عوادم السيارات، ولا تصل إلى نجم الدين. يرمقها باندهاش، يفكر: لماذا جاءت إذًا! وماذا عن الإشارات؟ وقبر كاتي؟ وذلك الشبح؟ ماذا يعني أن تنتهي الحرب هكذا؟

والتفت فرأى الغريب لا يزال واقفًا، أمام عمارة، يراقبها. انفتحت إحدى نوافذها، فظهرت فتاة لها شعر بُني، عرفها الغريب، ولم يعرف اسمها. كانت سالي. العاهرة التي أهدتها سيدة البيت للأحدب، والتي تعمل وفقًا لهواها ومزاجها. خلفها تقف غادة وقد تركت رأسها تنام على كتفها. والعاهرات وراءهما يرقصن مع الموسيقى، والموسيقى تغطي صرخات ملكة في فراش الأحدب. كانت تصرخ والأحدب يضاجعها بقوة. وعرف السمراء ما إن رآها، وظل واقفًا. لم يعرف ماذا يفعل. انتظر عودة لبنى. قال بإيمان «ستعود»، لكنها لم تفعل. وجلس على الرصيف مرهقًا بينما الشمس تغرب.

وشده الغريب إلى العمارة، بيدين قويتين، بينما حاول المقاومة. وتعثر أكثر من مرة فوق الدرج. لم يكن يعرف ماذا سيفعل. وقف أمام الباب. طرق. أراد أن يهرب. لكن عيني الشبح كانتا جمرتين. انفتح الباب. ورأى الشيخ لون الإضاءة أحمر، وأجساد الفتيات شهية. تتلوَّى الواحدة هكذا، كالأفعى، وتشده إليها. ورأى الغريب يقف خلف سالي ويتحول إلى غبار، وغادة تبتسم ما إن تراه. تقول «تعال»، وآخريات يتحسسن نهودهن. لا يذهب إليهن. تقدم تجاه تلك الغرفة، حيث تعلو صرخات ملكة. فتح الباب ببطء. رأى تلك المرأة على حجر صاحبها، تهتز كمهرة، وتتأوَّه. لم تكن تستغيث، كانت منتشيةً. قَلَبَها صاحبها على الجهة الأخرى. نصف وجهها المحترق ملتصق بالفراش، وبعين واحدة تنظر إلى الشيخ. بينما كان ينظر إلى من يعتليها، ورآه، كصورة في المرآة، بلحية سوداء وضفائر. دعك الشيخ عينيه مندهشًا، وظلت ملكة تصرخ أسفل الشيخ الذي يضاجعها، ويراقبها في الوقت نفسه عند الباب. وجاءت العاهرات من وراء الشيخ. يتحسَّسن جسده، خلعن عنه العمامة والعباءة، حاصرته الأجساد البيضاء، وبدأ العالم يتلاشى. وأبصر ريش أبو قردان جميلًا. ورأى البياض يتسلَّق الشجر، والنخيل، والبيوت، ورأى الغربان السوداء مذعورة، فأحسَّ بالسعادة لأن الغربان تهرب..

أغسطس 2014 : أكتوبر 2016

مصطفى الشيمي

قاص وروائي مصري، فاز بالعديد من الجوائز الأدبية الرفيعة في مصر والوطن العربي، منها:
- جائزة أخبار الأدب ٢٠١٦،
عن رواية «باب الغريب».
- جائزة المسابقة المركزية لقصور الثقافة، دورة فؤاد قنديل ٢٠١٦،
عن المجموعة القصصية «مصيدة الفراشات».
- جائزة دبي الثقافية ٢٠١٥،
عن مجموعة قصصية «بنت حلوة وعود».
- جائزة المجلس الأعلى للثقافة، دورة بهاء طاهر ٢٠١٥،
عن المجموعة القصصية «ليلى والفراشات».
- جائزة المسابقة المركزية لقصور الثقافة، دورة خيري شلبي٢٠١٢،
عن المجموعة القصصية «عاهرة القمر».
- مسابقة دار جان للنشر الألمانية، ٢٠١٢.
عن قصة «إنجيل يهوذا».

صدر له

بنت حلوة وعود، قصص، دار الربيع العربي، القاهرة ٢٠١٦.
مصيدة الفراشات، قصص، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٦.
حي، رواية، دار العين للنشر، القاهرة ٢٠١٤ .